المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية
ⴰⵙⵉⵏⴰⴳ ⴰⴳⵍⴷⴰⵏ ⵏ ⵜⵙⴷⵍⵉⵙⵜ ⵜⴰⵎⴰⵣⵉⵖⵜ
INSTITUT ROYAL DE LA CULTURE AMAZIGHE

ⴰⵙⵉⵏⴰⴳ
أسيناگ

ملف العدد
التعدد اللغوي بشمال إفريقيا عبر التاريخ

تنسيق : المحفوظ اسمهري

مجلة المعهد – عدد 11

أسيناگ - ⴰⵙⵉⵏⴰⴳ

مجلة دورية

العدد الحادي عشر – 2015

أسيناگ- Asinag مجلة علمية وثقافية مغربية، مخصّصة للأمازيغية ومكوناتها اللغوية والحضارية. وهي متعدّدة اللغات، وتشمل ملفات علمية، ومقالات وحوارات وعروض إصدارات، وإبداعات أدبية، وإشارات بيبليوغرافية. وهي مجلّة مُحكّمة، تتوفر على لجنة قراءة، ومفتوحة للمجموعة العلمية الوطنية والدولية.

© المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية
2028-5663 : ISSN
رقم الإيداع القانوني : 2008 MO 0062
..... – الرباط 2015

المحتويات

تقديم..... 7

ملف العدد : التعدد اللغوي بشمال إفريقيا عبر التاريخ

عبد اللطيف الركيك

الكتابتان البونية والليبية بشمال إفريقيا القديم: إشكالية الأصل ومسألة التفاعل 15

أسمهري المحفوظ

وظيفة الكتابة بالأمازيغية عبر التاريخ..... 37

علي بنطالب

السياق الاستعماري وتأثيراته على الوضع اللغوي بالمغرب..... 55

خديجة قمش

لغات الكتابة عند ملوك شمال إفريقيا القديم..... 75

حوار مع ذ. محمد القبلي (مدير المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب)

أجرته لجنة تحرير أسيناگ..... 81

متنوعات

أحمد المنادي

نمْذجة القصيدة في الشعر الأمازيغي. بنية الاستهلال..... 89

رشيد لعبدلوي

تركيب العطف في الأمازيغية..... 117

عروض

رحمة تويراس : تعريب الدولة والمجتمع بالمغرب الأقصى خلال العصر الموحدي للأستاذة رحمة تويراس..... 151

الوافي النوحي : جذور وامتدادات: الهوية واللغة والإصلاح بالمغرب الوسيط للأستاذ محمد القبلي..... 153

ملخصات الأطروحات الجامعية..... 165

تقديم

يعتبر تدبير التنوع اللغوي من التحديات الكبرى التي أضحت تواجه بلدان شمال إفريقيا أكثر من أي وقت مضى. ورغم الأهمية التي تكتسيها مأسسة هذا التنوع في الوثيقة الدستورية لبعض دول المنطقة، مثل المغرب والجزائر، فهناك صعوبات جمة تحول دون ترجمة فعلية لهذا التعدد على المستوى المؤسساتي.

ونظرا للمكانة المتميزة التي يتبوأها هذا الموضوع بالنسبة لحاضر بلاد المغارب ومستقبله، ارتأت مجلة أسيناگ تخصيص ملف عددها الحادي عشر لمقاربة "**التعدد اللغوي في شمال إفريقيا عبر التاريخ**"، وعيا منها بأهمية التجربة التاريخية للمنطقة في مجال تدبير التنوع اللغوي، وضرورة استخلاص العبر منها في أفق بناء نموذج يستجيب للخصوصيات اللغوية بالدول المغاربية، وبمنطقة الساحل والصحراء التي تعتبر الأمازيغية جزءاً من إرثها اللغوي.

فالتاريخ العريق للغة الأمازيغية، أو الليبية بمصطلح العصر القديم، وشساعة مجال تداولها أكسباها القدرة على الصمود أمام لغات متوسطية مكتوبة تُدوولت لقرون بمناطق من الشريط الساحلي الشمال إفريقي، مثل الفينيقية والإغريقية والبونية واللاتينية، التي انتهى بها المطاف إلى الانقراض بالمنطقة، لتصبح بعد ذلك في عداد اللغات القديمة الميتة. ولما توغلت العربية مع الإسلام تدريجيا في كل أطراف هذا المجال الشاسع، عرفت الأمازيغية منافسة قوية لم تشهد لها مثيلاً، غير أن ذلك لم يفقدها القيام بوظائف أساسية ؛ فبالإضافة إلى دورها المحوري في التواصل المجتمعي، كان لها موضع قدم على مستوى التدوين، إذ وُظفت الأبجدية العربية لكتابة الأمازيغية، وخصوصا المتون الدينية. علاوة على ذلك، استطاعت هذه اللغة أن تتبوأ مكانة مميزة في هياكل نظام حكم إمارتي برغواطة وغمارة، والإمبراطورية الموحدية في ما بعد، خاصة في مجال ما يسمى بالحقل الديني الرسمي.

جاءت المساهمات المدرجة في ملف هذا العدد لمقاربة التعدد اللغوي الذي وسم تاريخ شمال إفريقيا، وإن بكيفيات مختلفة، منذ الفترة القديمة إلى اليوم، وذلك من خلال الوقوف على بعض القضايا الشائكة التي يطرحها هذا الموضوع. فبالنسبة للعصر القديم، تناول عبد اللطيف الركيك العلاقة بين الأبجديتين الليبية (الأمازيغية القديمة) والبونية، باعتبارهما تجليات للتعدد اللغوي. فدافَع عن فرضية الأصل المحلي لهذه الأبجدية معتبرا الأمازيغية أقدم لغة

بشمال إفريقيا استطاعت الانتقال من الشفاهي إلى التدوين بأبجدية أفرزتها تحولات البيئة المحلية التي اتسمت بمنافسة الكتابة البونية، وريثة الفينيقية التي تعتبرها جل الدراسات أصل العديد من الأبجديات التي تطورت بضفاف الحوض المتوسطي القديم. وخلص الباحث إلى أن الأمازيغية استطاعت أن تكتب جنباً إلى جنب مع اللاتينية حتى في ظل اشتداد التنافس اللغوي في المجال الساحلي الشمال إفريقي بين الأمازيغية القديمة وكل من البونية واللاتينية. وفي هذا السياق، وقفت كرستين حمدون (Christine Hamdoune)، على نموذج من النقائش المزدوجة الكتابة (ليبية–لاتينية) المكتشفة حديثا بالقطر الجزائري، والتي ستغني رصيد الأدلة التاريخية التي توثّق لتدوين الأمازيغية القديمة موازاة مع كتابات متوسطية قديمة، إذ تُعقد آمال كبيرة على تراكم الأبحاث حول هذه الوثائق المزدوجة الكتابة، من أجل فك ألغاز اللغة الأمازيغية قبل الإسلام، ومنافستها للغات المتوسطية التي زاحمتها في عقر دارها، إن على المستوى التواصلي أو الكتابي. وفي نفس الإطار، بينت مساهمة كل من مصطفى لخليف وخديجة قمش جانبا من هذه المنافسة. فتناول الأول وضعية اللغة البونية في عهد القديس أغسطين خلال القرن الرابع للميلاد، وذلك في سياق تاريخي اتسم بتراجع هذه اللغة أمام اللاتينية التي احتكرت الحقل الديني، بسبب انتشار المسيحية بين ساكنة شمال إفريقيا القديم. في حين رصدت الباحثة، في المساهمة الثانية، تجربة بعض الملوك الأمازيغ الذين زاوجوا بين السلطة والكتابة نظرا لاهتماماتهم العلمية. فرغم حضور الأبجدية الأمازيغية في عهد هؤلاء الملوك، فضلوا الكتابة باللغات العالمة الواسعة الانتشار آنذاك، وفي مقدمتها البونية والإغريقية واللاتينية. وهو ما جعل الوثائق التاريخية الرسمية المكتوبة بالأمازيغية القديمة لا يتجاوز لحد الآن الجانب الجنائزي، أو الديني بصفة عامة، وأشهرها تلك المكتشفة بمدينة دوگا (Dougga) التونسية التي تعود إلى القرن الثاني قبل الميلاد.

وعلاقة بمجالات الكتابة التي استعملت فيها اللغة الأمازيغية، بينت مساهمة المحفوظ أسمهري أن التأليف بها غالبا ما كان ذا صلة بالجانب الديني والمعتقدات. فوظيفة الكتابة الليبية في العصر القديم تكاد تكون مقتصرة على نقش الإهداءات للأموات أو الكتابة على شواهد القبور. أما خلال العصر الوسيط ثم الحديث، فقد استُعمل الحرف العربي لتدوين المتون الأمازيغية المختلفة، الدينية منها على وجه الخصوص. وتناول علي بنطالب الأمازيغية في التاريخ المعاصر، فأماط اللثام عن مكانتها في السياق اللغوي المغربي خلال الفترة الاستعمارية التي فُرضت فيها الفرنسية والإسبانية لغتين جديدتين، مقابل تراجع اللغة العربية الفصحى في مؤسسات الدولة. وأشار الباحث إلى أن الحاجة إلى التواصل بالأمازيغية في

مختلف مناطق المغرب دفعت المستعمرين إلى تعلمها، ثم العمل على إدماجها في النظام التعليمي العصري وكتابتها بالحرف اللاتيني.

وتعتبر الحوارات التي أجرتها هيئة تحرير المجلة مع متخصصين في تاريخ اللغات بشمال إفريقيا إضافة نوعية أثرت مقاربة الموضوع، خاصة أنها تغطي كل المراحل التاريخية، بدءاً من العصر القديم، مرورا بالوسيط، وصولا إلى الحديث فالمعاصر. فالحواران مع ليونيل كَالان (Lionel Galand) ومنصور غاقي سلطا الضوء على مكانة الليبية (الأمازيغية القديمة) وكتابتها في المشهد اللغوي بشمال إفريقيا القديم. إذ وقف كل منهما عند حصيلة البحث العلمي الذي راكمته الدراسات حول هذا الموضوع، فضلا عن الآفاق العلمية التي من شأنها أن تعمق المعرفة بتاريخ اللغة الأمازيغية وبتراثها المكتوب قبل الإسلام.

ولاستجلاء صورة الوضع اللغوي بشمال إفريقيا بعد دخول الإسلام والعربية إليها، وقف محمد القبلي في مطلع حواره على شح معطيات المصادر العربية حول الوضعية اللغوية ببلاد المغرب طيلة القرون الأولى للإسلام، مبرزا أن أولى الكتابات التي أرَّخت لهذه المرحلة لم تشر إلى انتشار العربية في المنطقة. وبالمقابل يستفاد من بعض الإشارات التاريخية أن بعثات الأمازيغ إلى الشرق، سواء في عهد النبوة أو في عهد حكم الخلفاء، كانت وفودها لا تتقن إلا الحديث بالأمازيغية. ووقف الباحث كذلك عند وظائف هذه اللغة طيلة العصر الوسيط، مبينا مكانتها في قيام بعض الكيانات السياسية، خاصة إمارة غمارة وإمارة برغواطة والإمبراطورية الموحدية؛ وأشار إلى أن التاريخ لم يسجل إكراها أو تعسفا في حق الأمازيغية من قبل الدول المركزية التي حكمت بلاد المغرب طيلة العصر الوسيط؛ وخلص إلى أن تعامل دول هذا العصر مع الأمازيغية لا يمكن فهمه إلا في إطار مركزية الدين في تحديد الانتماء الهوياتي، أي أن المحدد الأساسي للهوية لم يكن هو اللغة، بل الدين في المقام الأول.

أما أحمد بوكوس، فقد سلط الضوء على التأثيرات التي تعرضت لها مختلف تعابير اللغة الأمازيغية خلال الفترتين الحديثة والمعاصرة، باعتبارهما من أهم مراحل التاريخ البشري التي عرفت صدام الحضارات والثقافات واللغات نتيجة الإمبريالية والاستعمار الحديث. وبعد أن رصد انعكاسات المرحلة على الوضع اللغوي في شمال إفريقيا، وتداعياتها على بدايات الاستقلال التي اختزلت فيها الدولة الوطنية الناشئة هويتها في البعد العربي الإسلامي، انتقل للحديث عن الآفاق المستقبلية للغة الأمازيغية من خلال التجربة المغربية، باعتبارها السباقة إلى دسترة هذه اللغة، وإن كانت آليات ومراحل أجرأة هذا الطابع الرسمي لم تحدد بعد.

وفضلا عن الملف الموضوعاتي، تضمن العدد مساهمات علمية مختلفة مدرجة في باب "متنوعات"، تناولت جوانب أخرى من الثقافة الأمازيغية. ففي الشق العربي، تناول أحمد المنادي بنية الاستهلال في القصيدة الشعرية الأمازيغية. فرصد أهمية المقدمة في النص الشعري الأمازيغي، ومدى وعي الشعراء بدورها في بناء هذا الجنس الفني الأدبي. كما بيّن أن بنية الاستهلال في النص الإبداعي تعكس ذهنية المجتمع وقيمه ومرجعياته. أما مساهمة رشيد لعبدلوي فتناولت تركيب العطف في الأمازيغية، مبرزة أدواته ومكوناته وبنيته. ورغم بعض التشابه القائم بين هذه اللغة وغيرها من اللغات في موضوع العطف، حاول الباحث إبراز خصوصيات تركيبية تميز العطف في الأمازيغية.

وفي شق المساهمات باللغات الأجنبية، قام كارلس مورسيا (Carles Mùrcia)، في مقال باللغة الفرنسة، بتسليط الضوء على دور الدياكرونية والمقارنة في مختلف مراحل التهيئة اللغوية التي تشمل التحليل والانتقاء والتنميط. وقد دعم الباحث طرحه بأمثلة بيَّن من خلالها أهمية البعدين الدياكروني والمقارني في معالجة مجموعة من الآليات المحدِّدة لتهيئة لسانية فعالة: مثل تفخيم الجذر المعجمي، والثنائية زناتي/ غير زناتي، وتكييف الصور المستحدثة المأخوذة عن الطوارقية، إضافة إلى ظواهر المماثلة. ومن جهة أخرى، تناول محمد يعو، في مقال باللغة الإنجليزية، دلالات اسم الرأس وأجزائه في ثمانية وعشرين فرعا لغويا أمازيغيا، اعتمادا على المعاجم اللغوية. وخلص إلى التنوع الكبير الذي يطبع هذا الجزء من الجسم، نظرا للتوسعات الدلالية والتوظيفات المجازية. أما المساهمة الأخيرة في هذا الباب فكانت لمليكة عصام التي سلطت الضوء على تجربة تدريس اللغة الأمازيغية في ثانوية فرنسية تابعة لأكاديمية ليون. فبعد أن وضعت هذه التجربة في سياق تطور منظور الدولة الفرنسية للغات مواطنيها من ذوي أصول مهاجرة، عرضت إكراهات تعليم اللغة الأمازيغية بالنسبة لتلاميذ الباكالوريا في المؤسسة المعنية، وكذا الآفاق التي يطرحها تدريس ما يسمى باللغات الاختيارية في فرنسا، وعلى رأسها الأمازيغية.

وفي باب "العروض"، قدمت رحيمة تويرس ملخصا لكتابها: **تعريب الدولة والمجتمع بالمغرب الأقصى خلال العصر الموحدي**، وهو في الأصل أطروحة جامعية تناولت ظاهرة التعريب في المجتمع والدولة خلال الإمبراطورية الموحدية، مع تسليط الضوء على المكانة التي حظيت بها الأمازيغية، خاصة في مرحلة تأسيس هذا الكيان السياسي.

فيما قدم الوافي نوحي قراءةً في كتاب: **جذور وامتدادات، الهوية واللغة والإصلاح بالمغرب الوسيط**، للأستاذ محمد القبلي، مركّزاً فيها على القضايا ذات الصلة بالبحث في

تاريخ المغرب الأقصى الوسيط، والهوية ومرتكزاتها، وكذا بثنائية التبدل والاستمرارية، وببعض جذور الوضع اللغوي الحالي بالمغرب.

أما في باب "ملخصات الأطاريح" الذي يتوخى التعريف بالأعمال الأكاديمية التي نوقشت بالجامعات وذات الصلة بالثقافة الأمازيغية، فتضمنت تعريفا بأطروحتي المحفوظ أسمهري والعربي مومش اللتين نوقشتا بكلية الآداب بالرباط سنتي 2003 و 2016 تباعا. تمحورت الأولى حول " **جوانب من حضارة شمال إفريقيا القديم والصحراء من خلال النقوش والرسوم الصخرية** ". سلط فيها الباحث الضوء على مظاهر من حضارة الأمازيغ القدامى مثل وسائل النقل واللباس والكتابة وغيرها. أما الأطروحة الثانية، فقد تناولت تركيب الجملة الظرفية الزمنية في أمازيغية المغرب، حيث قام الباحث بوصف السلوك التركيبي لهذه الفئة من الجمل في إطار النظرية الوظيفية، واقترح، استنادا إلى معايير واضحة، تصنيفا عاما لها.

وفي الختام، لا يسع هيئة تحرير مجلة أسيناگ إلا أن تتقدم بالشكر الجزيل للسادة الأساتذة الذين تكلفوا عناء قراءة مواد هذا العدد وتقويمها، وهم: الحسين المجاهد، والخطير أبو القاسم، ونور الدين أمروس، وعمر أمرير، وعبد العزيز بلفايدة، وسعيد البوزيدي، وعبد الله بونفور، ورحمة تويراس، وعبد العزيز الخياري، وأنّا ماريا دي تولا، وأحمد الشعبيهي، وأحمد صابر، وحسن الصادقي، ومنصور غاقي، ومحمد فتحة، ويامنة القيرات العلام، وليونيل گالان، ومحمد المبكر، وحسن مخاظ، وعلي واحدي، ورشيد يشوتي.

أسيناگ-Asinag

ملف العدد

التعدد اللغوي بشمال إفريقيا عبر التاريخ

مجلة أسيناگ- □□□□□□، العدد الحادي عشر، 2016، ص 15-36

الكتابتان البونية والليبية بشمال إفريقيا القديم: إشكالية الأصل ومسألة التفاعل

عبد اللطيف الركيك

باحث في التاريخ القديم وعلم الآثار–الرباط

Le présent article s'insère dans le cadre de nos recherches consacrées à l'étude comparative de la problématique des composantes contribuant à la construction de la civilisation dite « punique », en nous basant sur de axes : « L'origine » et « L'interaction ». A cet égard, se pose l'écriture comme l'un des domaines où s'opéraient ces deux thèmes tout au long la période punique. On examinera :

- Les relations entre les écritures utilisées dans l'Afrique du Nord antique (phénicienne, libyque et punique) lors de la période punique.
- L'origine de l'écriture libyque tout en proposant une nouvelle approche visant à critiquer les hypothèses avancées.

مثلما هو الشأن بالنسبة للغة[1]، فقد ربطت الاسطغرافيا الأوروبية استعمال الكتابة بشمال إفريقيا القديم خلال الفترة البونية بتأثير فينيقي أو بوني. ومفاد تلك الأطروحة–التي كان لها حظ وافر من الرواج بين المختصين في علم الكتابات القديمة–أن سكان شمال إفريقيا القديم قد انتظروا مجيء الفينيقيين إلى بلادهم لتدوين لغتهم واستعمال الكتابة. غير أن الاهتمام بالكتابة الليبية المنقوشة على اللوحات الصخرية وفر للمهتمين بالموضوع معطيات جديدة في ما يخص تأريخ أقدم آثار الكتابة الليبية، ومكن تدريجيا من إعادة طرح مسألة أصل الكتابة الليبية، وعلاقتها بالكتابتين الفينيقية والبونية.

(1) انظر ما كتبناه حول التفاعل بين اللغتين البونية والليبية في شمال إفريقيا القديم خلال الفترة البونية: عبد اللطيف الركيك، (2008).

وتستلزم مقاربة إشكالية الكتابة بالمجال البوني الإفريقي[2] طرح الأسئلة التالية: هل يعود الفضل للفينيقيين في استعمال الكتابة من طرف سكان شمال إفريقيا القديم؟ أم أن الفينيقيين وجدوا بالمنطقة تقاليد عريقة في التدوين؟ إذا كان الأمر كذلك، فما هي طبيعة التغييرات التي حصلت على مستوى الكتابة بعد مجيء الفينيقيين وتأسيس قرطاج؟ وهل استمر الليبيون الخاضعون لقرطاج والمجاورون لها في تداول كتابة خاصة بهم؟ ثم ما هي مظاهر التفاعل بين الكتابتين الليبية والبونية؟

I. الكتابة البونية والكتابة الليبية

1. إشكالية قدم وأصالة استعمال الكتابة بالمجال البوني الإفريقي

لقد أدى تعثر تأريخ أقدم النقائش الليبية بشمال إفريقيا وعدم معرفة التطورات التي مرت منها الكتابة الليبية إلى اتساع تداول الفرضية التي تنسب الكتابة بشمال إفريقيا والصحراء لأصل أجنبي، ولاسيما بالنسبة للدراسات التي أسست للبحث في هذه الإشكالية. وهكذا طرحت عدة فرضيات متناقضة لأصل الكتابة الليبية مثل الأصل الإيجي[3]، أو الكريتي[4]، أو المصري[5]، أو العربي(نسبة إلى جنوب بلاد العرب)[6]. لكن مع توالي الدراسات اتضحت هشاشة الفرضيات السابقة لاستنادها على تشابه محدود وغير دقيق لبعض الحروف الليبية مع حروف الكتابات الإيجية والكريتية والعربية الجنوبية[7]. وتم الاتجاه في ما بعد نحو ترجيح فرضية الأصل الفينيقي التي عرفت رواجا كبيرا بحكم استنادها إلى قرينة وصول الفينيقيين إلى المنطقة واتصالهم بسكانها، فضلا عن الانتشار المجالي لأغلب النقائش الليبية بمواقع سواحل شمال

---

(2) المقصود بالمجال البوني الإفريقي هو مناطق شمال إفريقيا التي خضعت للسيطرة السياسية والعسكرية لقرطاج وتلك التي امتد إليها إشعاع الحضارة البونية علما بأن لفظ "بونية" أشمل من لفظ "قرطاجية" فالأخير يحيل إلى مدينة قرطاج ومجال تأثيرها. ويمتد هذا المجال من هيبو ريكيوس(عنابة) بشرق الجزائر إلى مذابح فيلان بالسرت الكبرى ضاما باتجاه داخل الأراضي جزء من البلاد النوميدية بوسط وغرب تونس والشريط الساحلي الممتد بين السرت الصغرى والكبرى. للمزيد من المعلومات حول المجال البوني الإفريقي راجع ما كتبناه في أطروحتنا لنيل الدكتوراه:

– عبد اللطيف الركيك، *الحضارة القرطاجية بين المحلي والمستورد*، أطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ القديم وعلم الآثار، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 2007 (مرقونة)، ص.ص 57-79

(3) BERTHOLON L., et CHANTRE, E., (1913, p. 518).

(4) SOLIGNAC M., (1928, p. 136).

(5) FÉVRIER J.-G., (1984, p. 325); REBUFFAT R., (2004, pp. 55-83, p. 83).

(6) LITTMAN M.-E., (1904, pp. 423-442, p. 441).

(7) GSELL S., (1929, p. 105); FÉVRIER J.-G., *Histoire de l'écriture*, (1984, p. 323 et 325).

إفريقيا، أي في المناطق التي يفترض وصول الفينيقيين إليها، وانتماء تلك النقائش زمنيا لما بعد مرحلة الانتشار الفينيقي بالمنطقة.

وهكذا اعتبر البعض بأن الكتابة الليبية قد اشتقت من الكتابة الفينيقية، وأن الفينيقيين لما وصلوا إلى شمال إفريقيا القديم لم يجدوا أساسا في الكتابة عند السكان الأصلاء[8]. وهناك من اعتبر بأن الكتابة الليبية لم تشتق مباشرة من الكتابة الفينيقية، وإنما تطورت بتأثير فينيقي من خلال تعديل رموز ليبية قديمة، واقتباس بعض الحروف الفينيقية[9]، مما يعني بأن الكتابة الفينيقية قد ساعدت على انبثاق كتابة ليبية عن طريق رموز محلية ورثها سكان شمال إفريقيا عن تقاليدهم العريقة[10].

ورغم الإشكاليات المعقدة المطروحة بالنسبة لأصل الكتابات القديمة عموما، فإن بعض عناصر التشابه الملاحظ بين الكتابة الليبية والكتابات القديمة قد ترجع في الواقع لاحتمال وجود نموذج أصلي هو الذي تفرعت عنه الكتابات القديمة كالفينيقية والعربية الجنوبية والليبية[11].

لقد استند أصحاب نظرية الأصل الفينيقي على عدة معطيات منها ما يرتبط بالجانب الباليوغرافي(الشكل الهندسي للحروف)، ومنها ما يستند إلى القرائن التاريخية ومنها:

أولا: تشابه بعض الحروف الفينيقية والليبية من حيث الشكل والمقابل الصوتي[12].(انظر الجدول رقم1)

(8) PICARD G.-Ch., et PICARD C.(1958, p. 62) ; PERROT G., et CHIPIEZ Ch., 1882, p. 87

(9) GSELL S., *HAAN*, T. VI, p. 107

(10) FÉVRIER J.-G., *Histoire de l'écriture*, p. 325 ; BATES O., *The Eastern Libyan*, Frank Cass et Co, LTD, 1970, p. 86

(11) Ibidem ; CAMPS G., (1977, pp. 143-166, p. 144).

(12) BATES O., (1970 p. 323).

الحروف الفينيقية العتيقة	الحروف الليبية الشرقية والغربية	المقابل الصوتي
		تاء
		شين
		ياء
		جيم
		ميم
		نون
		زاي

المصدر: عمل شخصي

ثانيا: اعتماد الكتابتين معا على الحروف الصامتة وعدم رسم الحركات[13].

ثالثا: اقتصارهما على عدد محدود من الحروف[14] (خاصة بالنسبة للكتابة الليبية الشرقية).

رابعا: تطابق اتجاه الكتابتين، أي اعتمادهما على الاتجاه الأفقي من اليمين نحو اليسار[15] (بالنسبة للكتابة الليبية الشرقية).

خامسا: عدم انتماء النقائش الليبية إلى فترات سابقة على وصول الفينيقيين إلى المنطقة[16]. علما أن هذه الفكرة قد انبنت على إنكار قدم الكتابة بالصحراء من خلال رفض وجود علاقة بين الكتابة باللوحات الصخرية والموضوعات المنقوشة عليها والتي تؤرخ بفترات جد قديمة[17]، أو محاولة الفصل بين نقائش الصحراء وسواحل شمال إفريقيا[18]. ينضاف إلى ذلك بالطبع القرائن التاريخية المتمثلة في تاريخية وصول الفينيقيين إلى الأجزاء الساحلية من

(13) Ibidem ; GSELL S., *HAAN*, T. VI, p. 105

(14) Ibidem

(15) Ibid., p. 107

(16) FÉVRIER J.-G., (1984, p. 321-322).

(17) GALAND L., (2001, p. 2).

(18) GALAND L., (1989, p. 70).

شمال إفريقيا القديم واتصالهم بساكنتها، وما يفترض أن ينتج عنه من نشر كتابتهم بتلك المناطق.

وبالرجوع إلى الدلائل التي سيقت للبرهنة على الأصل الفينيقي للكتابة بالمناطق الساحلية من شمال إفريقيا، يبدو لنا للوهلة الأولى بأن المقارنة بين الحروف الفينيقية والليبية لا تتسم بالدقة اللازمة، خصوصا وأن عدد الحروف المتشابهة هي في الواقع أقل بكثير مما تصور أصحاب فرضية الأصل الفينيقي. فإذا استثنينا أربعة حروف هي: التاء، والشين، والياء، والجيم المتشابهة على مستوى الشكل والمقابل الصوتي، فإن معظم الحروف الليبية المعروفة لحد الآن من خلال النقائش تختلف في شكلها وصورتها السمعية عن حروف الخط الفينيقي العتيق. ذلك أن الحروف الفينيقية تتميز بصغرها واتجاهها نحو الرسم السريع بينما تتسم الحروف الليبية بكونها بارزة وهندسية الشكل[19]. يضاف إلى ذلك غياب نموذج مضبوط للحروف الليبية حيث غالبا ما رُسِم الحرف الواحد بأشكال مختلفة[20]، وهو أمر يدفع إلى الاعتقاد بأن هذه الكتابة ربما نجمت عن عدة تجارب محلية مكنت من إعطاء الحروف الليبية شكلها النهائي.

ومن هنا يتضح بأن الدلائل التي عرضناها لا تبدو كافية للاطمئنان للفرضية التي تزعم انبثاق الكتابة الليبية من أساس فينيقي. ذلك أن عناصر التشابه لا تقتصر في الواقع على الكتابتين الليبية والفينيقية، وإنما تعد ظاهرة عامة بالنسبة لمعظم الكتابات القديمة، ولا تسلم منها الكتابة الفينيقية نفسها إذا ما قورنت بكتابات أخرى[21] ويطرح هذا الأمر إشكالية أصل الكتابات القديمة باعتبارها إحدى أعقد القضايا التي يطرحها علم الكتابات القديمة، بحيث ما زال من الصعب إيجاد تفسير مقنع لذلك التشابه. ولا يكاد الباحثون يتفقون على شيء بهذا الخصوص. فقد أظهرت الدراسات التي اهتمت بهذا الجانب وجود عدة قواسم مشتركة بين بعض حروف الكتابات القديمة، الأمر الذي يرجح بأن تلك الكتابات لم تنبثق–على ما يبدو–بشكل مستقل عن بعضها البعض. وهذا ما يطرح فرضية وجود نواة أولية مشتركة

(19) HACHID M., (2000, p. 184).

(20) GALAND L., (2001, p. 2).

(21) يبدو أن الفينيقيين– كما يفهم من نص ديودور الصقلي– لم يخترعوا الحروف، وإنما طوروها وعملوا على نشر النظام الأبجدي. ومن هنا طرحت أصول مختلفة للكتابة الفينيقية كالأصل المصري والمسماري والإيجي والسينائي(نسبة إلى سيناء)...إلخ. للمزيد من المعلومات راجع ما يلي:

- DIODORE DE SICILE, (1912, V, 74) ; CONTENAU G., (1927, p. 258-260).

لتطور الكتابة باعتبارها إرثا إنسانيا مشتركا[22]، بحيث قد ينسحب ذلك على عدة كتابات، بما في ذلك الكتابتين الليبية والفينيقية[23]. ويفسر هذا الأمر حسب الباحثة حشيد بالتفاعلات القديمة التي حدثت بين سكان شمال إفريقيا القدماء وشعوب الضفة الشرقية للبحر الأبيض المتوسط[24].

ويظهر أن التسليم بفرضية الأصل الفينيقي للكتابة الليبية يقلل في الواقع من أهمية الإشكاليات التي تحدثنا عنها سالفا، والتي تستلزم توخي الحذر عند النظر في قضايا لا يقوم عليها دليل علمي مقنع. كما أن التشابه في حد ذاته لا يلغي من دائرة البحث الاحتمال الآخر المتمثل في إمكانية تأثير الكتابة الليبية على كتابات أخرى أو على الأقل اشتراكها معها في أساس مشترك قديم نجهله لحد الآن.

أما بالنسبة لاعتماد الكتابتين الليبية والفينيقية على رسم الحروف الصامتة دون الحركات، فإن الأمر يتعلق بخاصية عامة تشتركان فيها مع معظم الكتابات القديمة، ومن ثمَّ، ي لا تعد مقياسا للحكم بالأصل الفينيقي على الكتابة الليبية[25]. بينما لا يستبعد أن يكون الاتجاه الأفقي(الذي هو من خصائص الكتابة الفينيقية) في الكتابة الليبية بمثابة تطور متأخر طرأ على الخط الليبي قد لا يرتبط بالضرورة بمسألة أصل الكتابة الليبية، ما دامت الأبحاث تجمع على قدم الاتجاه العمودي في الكتابة الليبية[26] الذي استجاب على ما يبدو لحاجيات محلية قديمة[27] مرتبطة بتقاليد الكتابة عند سكان شمال إفريقيا القديم، وبتطور داخلي لاتجاه الكتابة وشكل الحروف عندهم[28]. وهذه سمة تميز تطور الخط الليبي في شمال إفريقيا، وتجعله مختلفا عن مراحل تطور الكتابة في فينيقيا[29].

وحتى إذا سلمنا بالتأثير الفينيقي–البوني على مستوى اتجاه الكتابة، فإن الأمر يتعلق باقتباس تقنيات وليس نظاما للكتابة[30]. وكيفما كان الأمر فإن تغير عدد الحروف واتجاه

(22) Ibid., p. 261-262
(23) CAMPS G., (1987, p. 202).
(24) HACHID M., (2000, p. 188).
(25) GALAND L., (2001, p. 2).
(26) HACHID M., (2000, p. 186) ; FÉVRIER J.-G., (1984, p. 322).
(27) CAMPS G., (1977, p. 145).
(28) GALAND L., (2001, p. 2).
(29) CAMPS G., (1961, p. 38).
(30) GALAND L., (2001, p. 2).

الكتابة يمثل في محصلة الأمر تطورا شكليا لا يلغي إمكانية وجود أساس محلي في الكتابة عند الليبيين، ومن ثمَّ اختلاف الكتابة الليبية عن الفينيقية على مستوى التطور الداخلي كما يتضح مثلا من استعمال الحركات الأساسية في الكتابة الليبية وغيابها في الكتابة الفينيقية[31].

إذا كانت أهم دلائل الأصل الفينيقي على المستوى الباليوغرافي تقوم–في حدود المعطيات الحالية للبحث–على أساس غير متين بما يجعل الفرضية قابلة للنقد والتمحيص، فالملاحظ أن مكمن الضعف في فرضية وجود تقاليد محلية في الكتابة خلال الحقب السابقة على الانتشار الفينيقي يتمثل في غياب الآثار المادية لقدم استعمال الكتابة من طرف الليبيين، خصوصا تلك المؤرخة بما قبل وفود الفينيقيين على المنطقة. ذلك أن عدم العثور على كتابة ليبية بسواحل شمال إفريقيا تؤرخ بما قبل الانتشار الفينيقي اعتبر من أكثر الدلائل تأييدا لفرضية الأصل الفينيقي. غير أن دراسة نقائش اللوحات الصخرية المكتشفة بالصحراء سمح بتوفير معطيات جديدة حول إشكالية قدم استعمال الكتابة في سواحل شمال إفريقيا، وذلك من منطلق عدم إمكانية الفصل بين عناصر الحضارة بالمجالين الصحراوي والساحلي بما في ذلك تطور الكتابة.

إذا كانت أقدم النقائش الليبية بالمجال البوني الإفريقي وبباقي أنحاء سواحل شمال إفريقيا لا تتعدى القرنين 4 و3 ق.م[32]، فقد عثر على نقائش أخرى أقدم بالمناطق الساحلية لشمال إفريقيا، لكنها بقيت موضع جدل بين الباحثين مثل نقائش إكدن وشرن(Ekaden Ouacharène) بالهگار بالأطلس الصحراوي الجزائري والتي أرخت بما بين القرنين 6 و5 ق.م[33]، الشيء الذي جعل بعض الباحثين يستنتجون بأن أقدم آثار الكتابة الليبية لا تتعدى منتصف الألف الأول ق.م[34]. وهناك من بات مقتنعا بأن الكتابة الليبية تنتمي لفترات أقدم لكن من خلال ربط ظهورها بالتأثير الأجنبي[35]. ينضاف إلى النقائش التي ذكرناها سالفا نقيشة عزيب نكيس بالأطلس الكبير بالمغرب التي خضع تأريخها لمزاجية الباحثين. فقد أرخ مالوم اللوحة الصخرية الحاملة للحروف الليبية بالنصف الثاني من الألف الثاني ق.م لكنه

(31) FÉVRIER J.-G., (1984, p. 325).

(32) انظر ما كتبناه بهذا الخصوص في أطروحتنا لنيل الدكتوراه:

عبد اللطيف الركيك، *الحضارة القرطاجية بين المحلي والمستورد*، مرجع سابق، ص ص 150–156

(33) HACHID M., (2000, p. 174).

(34) GHAKI M., (2004, p. 22).

(35) REBUFFAT R., (2004, p. 61).

تحاشى تأريخ الكتابة بتاريخ اللوحة ككل[36]. كما عاين باحثون آخرون اللوحة الصخرية وأقروا بارتباط الحروف المنقوشة بباقي عناصر اللوحة وألحوا على ضرورة تأريخ الكتابة بتاريخ اللوحة[37]. بيد أنهم، وإن أقروا بقدم النقيشة، فإنهم رفضوا في محصلة الأمر – ولأسباب مجهولة قد يكون من بينها الرغبة في عدم إبطال فرضية الأصل الفينيقي التي يدافعون عنها– إعطاء نفس التاريخ لباقي مكونات اللوحة ومنها الكتابة[38]. ولعل هذا ما دفع كامبس Camps إلى تأريخها بالقرن 7 ق.م[39]، وشنوركيان بحوالي 1000 ق.م[40]، أي بفترة لاحقة للانتشار الفينيقي.

لكن تأريخ النقيشة في اعتقادنا يفرض بالضرورة الانطلاق من التاريخ الذي أعطاه مالوم للنقيشة ومن ارتباط الحروف المنقوشة بباقي عناصر اللوحة كما يتبين من خلال المقاييس الفنية(لون الزنجفر– النقش بطريقة التحزيز)، والموضوعاتية(تاريخ الأسلحة المعدنية). ويبدو بأنه لا يوجد في الواقع ما يمنع من الاستنتاج بتزامن الحروف مع باقي مكونات اللوحة، أي تأريخ النقيشة بنفس تاريخ اللوحة، وبالتالي وجود آثار للكتابة الليبية بالمجال الساحلي لشمال إفريقيا منذ منتصف الألف الثاني ق.م كما ترى الباحثة حشيد[41].

إضافة إلى نقيشة عزيب نكيس، اكتشفت بالمجال الساحلي أيضا رموز ليبية على اللوحات الصخرية بمواقع كهف مكتوبة جنوب غرب أفلو(ناحية وهران)، وفي واد زناتي قرب قسنطينة، وخنكة الحجر(قرب گالمة)، وشابة نعيمة(جنوب غرب بسكرة) بالجزائر، وكذلك بموقع بالقرب من فگيگ بالمغرب. غير أن المختصين، وإن أقروا بانتماء النقوش الصخرية بتلك المواقع إلى العصر الحجري الحديث، فقد رفضوا أيضا تأريخ الرموز الليبية بنفس تاريخ اللوحات الصخرية لاعتقادهم بأنها قد أضيفت خلال فترات متأخرة[42]، أو أنها رموز بسيطة لا تعكس ممارسة مرتبطة بالكتابة[43]. كما عثر كذلك بموقع راشكون بالساحل الجزائري على شقف خزفية أرخت بالقرنين 7 و6 ق.م زُبرت عليها حروف ليبية[44].

---

(36) MALHOMME J., (1960, p. 417).

(37) GALAND L., (1960, p. 418) ; CAMPS, G., (1977, p. 148).

(38) GALAND L. (1960, p. 421).

(39) CAMPS, G., (1977, p. 148).

(40) CHENORKIAN R., (1988, p. 439-440).

(41) HACHID M., (1992, p. 139).

(42) CAMPS G., (1977, p. 147-148).

(43) GSELL S., *HAAN*, T. VI, p. 102

(44) VUILLEMOT G., (1955, p. 76).

وكيفما كان الأمر، ورغم رفض الباحثين إعطاء تواريخ أقدم للوثائق المذكورة سالفا، فإن تلك التي قدمت تعد في حد ذاتها مهمة من حيث تأكيدها على الأقل عدم ارتباط ظهور الكتابة الليبية بالكتابة البونية كما ساد الاعتقاد في البداية استنادا إلى تأريخ النقائش المزدوجة بدقة(Thougga) بتونس(139 ق.م)، وإقرارها بتطور الكتابة الليبية بمناطق بعيدة عن التأثير الفينيقي والبوني المباشر.

ترى الباحثة مليكة حشيد بأن البحث في موضوع قدم وأصالة الكتابة بشمال إفريقيا القديم وفهم تطورها مجاليا وزمانيا ينبغي أن لا يقتصر على النقائش المكتشفة في المناطق الساحلية لشمال إفريقيا، ودافعت الباحثة عن فكرة توسيع النطاق الجغرافي للأبحاث ليشمل الصحراء وهوامشها الشمالية (تاسيلي نجار وتادرارت أكاكوس والأطلس الصحراوي وفزان). فقد عثر بتلك المناطق على أقدم الرموز والعلامات والحروف الليبية القديمة[45]. ولعل من شأن الاهتمام بنقائش الصحراء تجاوز التقسيمات العلمية الكلاسيكية التي ميزت في تطور الكتابة عند الأمازيغ بين كتابة شرقية وغربية وصحراوية[46]. ذلك أن البحث عن أصل الكتابة ينبغي أن يتركز عن التراث الحضاري الذي تبلور بمجموع المناطق التي سكنها الأمازيغ. وفي هذا الإطار اعتبرت حشيد بأن الوشم والرموز والعلامات والأشكال الفنية التي بدأ يصنعها الإنسان بالمنطقة منذ العصر القفصي(10000 ق.م)، أو تلك المنقوشة أو المرسومة على اللوحات الصخرية منذ المراحل الجاموسية والبقرية، تمثل في الواقع أولى إرهاصات الكتابة عند أجداد الأمازيغ[47].

من هذا المنطلق، يمكن اعتبار اللوحات الصخرية المكتشفة بالصحراء بمثابة خزان من الوثائق يختزل التطورات التي ربما قادت إلى التوصل إلى حروف الكتابة. فقد عثر على أقدم النقائش الليبية في الصحراء الوسطى على لوحات تاسيلي نجار وتادرارت أكاكوس بلوحات صخرية تنتمي لمرحلة العربة. وإذا أعطينا للكتابة نفس تواريخ اللوحات–وهو أمر لا يزال محل خلاف بين المتخصصين– فإن تلك الكتابة تعود حسب حشيد لما بين 1300 و 1200 ق.م[48]، وهو تاريخ قريب من ذلك الذي توصل إليه كولان(Colin) من خلال دراسة تطور

(45) HACHID M., (2000, p. 186).

(46) التمييز بين كتابات ليبية شرقية وغربية وصحراوية هو تقسيم من وضع الباحثين الأجانب من خلال معايير من أهمها شكل الحروف، لكن تلك التقسيمات ظلت متأثرة بنظراتهم التجزيئية لتاريخ المنطقة من خلال اعتقادهم بوجود بؤر حضارية جهوية متناثرة في شمال إفريقيا والصحراء تتبع لمجموعات بشرية كبرى، وبالتالي غض الطرف عن الانتماء الحضاري المشترك لساكنة تلك المناطق.

(47) HACHID M., (2000, p. 185)

(48) Ibid., p. 187

أسماء الأعلام، والأماكن، والمجموعات البشرية الليبية في الوثائق المصرية، والمصادر الأدبية، والنقائش البونية، والليبية. فقد خلص كولان إلى أن ظهور الكتابة الليبية تم ألف سنة قبل أن تتم الإشارة إليها في المصادر الأدبية[49].

وبناء على إفادات نقائش الرسوم والنقوش الصخرية بالصحراء، يمكننا الاستنتاج بأن الكتابة الليبية في الصحراء تتزامن مع أقدم آثار الكتابة الفينيقية في الشرق[50]، والتي لا تتعدى القرن 13 ق.م[51]. وهذا يعني بأن الكتابة الليبية قديمة هي الأخرى إذا ما قورنت بالفينيقية، وتبعا لذلك لا يمكن أن تتفرع عنها[52] خصوصا وأن أقدم آثار الكتابة الليبية قد عثر عليها بالصحراء، أي بمجال بعيد عن التأثير الفينيقي الذي اقتصر على السواحل[53]. واستنادا لهذا المعطى، يمكننا الترجيح بأن الفينيقيين عند قدومهم إلى شمال إفريقيا، قد اتصلوا على الأرجح بساكنة محلية تستعمل شكلا من أشكال الكتابة[54].

وبناء على ما سبق، تُطرح الحاجة إلى إعادة النظر في الفرضيات التي تنسب كل تطور بشمال إفريقيا ومن بينها الكتابة لتأثير أجنبي تم بالضرورة عبر البحر، رغم أن ذلك لا يعني إلغاء إمكانيات التفاعل والتأثير عندما يتعلق الأمر بتلاقي نوعين من الكتابة في نفس المجال[55]. فإذا لم نكن واثقين من ملابسات انبثاق الكتابة بالصحراء، فالراجح أنها قد تطورت بالمنطقة كما يتضح من وجود أقدم النقائش هناك وتشابه بعض حروف الكتابة المروية[56] مع حروف الليبية، واكتشاف نقيشة تصنف ضمن الكتابة الليبية الغربية في بلاد النوبة جنوب

(49) COLIN F., (1999, p. 13).

(50) HACHID M., (2000, p. 184).

(51) FÉVRIER J.-G., (1984, p. 206).

(52) HACHID M., (2000, p. 168).

(53) Ibid., p. 187

(54) Ibid., p. 138

(55) لا تلغي فكرة قدم الكتابة الأمازيغية ونشأتها بشكل مستقل عن الكتابة الفينيقية مسألة التأثيرات التي ربما حدثت بينهما على عدة مستويات، إذ أن الفينيقيين توصلوا إلى تطوير النظام الأبجدي قبل الشعوب الأخرى(مع نهاية الألف الثاني ق.م) ونشروه عند الشعوب الأخرى. ولا نستبعد أن تبقى منطقة احتك بها الفينيقيون مباشرة بمعزل عن دينامية التأثير الفينيقي على هذا المستوى. ويبقى الأمر مطروحا خاصة ونحن لا زلنا نجهل التطورات التي مرت منها الكتابة الليبية، أي هل مرت من المراحل التصويرية والمقطعية ثم الأبجدية. ذلك أن الأبجدية تمثل مرحلة متطورة لاستعمال الكتابة التي توصلت إليها العديد من الشعوب قبل الفينيقيين سواء في الشرق القديم أو مصر أو بلاد الإغريق لكنها لم تتوصل إلى نظام أبجدي مثل ذلك الذي توصل إليه الفينيقيون والذي مكن من اختزال عدد الحروف ووضع مقابل صوتي مضبوط لكل حرف على حدة.

(56) الكتابة المروية هي أبجدية من أصول مصرية هيروغليفية وديموطيقية تم تطويرها في مملكة نبتة في الفترة ما بين (700 إلى 300 ق م) وكانت تستخدم لكتابة اللغة المروية في مملكة مروي منذ القرن الثاني قبل الميلاد، ويحتمل انه تم استخدامها من قبل الملوك النوبيين.

مصر[57]. علما بأن ديودور الصقلي أشار إلى أن المصريين قد اقتبسوا حروف كتابتهم من الإثيوبيين[58] سكان المجال الصحراوي.

بالرغم من أهمية إفادات الرسوم والنقوش الصخرية بالصحراء، فإنه يبقى من السابق لأوانه التحقق على سبيل اليقين مما إذا كانت تلك الرموز الليبية المنقوشة أو المرسومة على الصخور تمثل بالفعل نظاما متكاملا للكتابة وصلت إلى المرحلة الأبجدية، أم أنها مجرد إرهاصات أولية لرموز وعلامات ربما شكلت أساسا لتطور الكتابة عند ساكنة شمال إفريقيا والصحراء في الحقب اللاحقة.

وبناء على هذه الملاحظة يمكن الاستنتاج بأنه رغم وجاهة وأهمية خلاصات الباحثة حشيد فيما يتصل بتأريخ الكتابة بشمال إفريقيا والصحراء والمؤيدة لفرضية الأصل المحلي للكتابة الليبية، فإن مكمن الضعف فيها–وفي فرضية التطور المحلي للكتابة الليبية عموما– يتمثل في كونها لا تحسم الإشكاليات المرتبطة بمعايير تأريخ نقائش اللوحات الصخرية، وتفكيك كتاباتها. ذلك أن معرفتنا بتطور استعمال الخط الليبي بشمال إفريقيا والصحراء تتسم بتفاوتات مجالية وزمانية، أي غياب الوثائق في بعض مناطق شمال إفريقيا، وعدم تغطية تلك المتوفرة منها لفترات زمنية معينة. ذلك أننا لا نتوفر لحد الآن على وثائق مكتوبة تقيم الصلة بشكل واضح بين كتابات القرن 13 ق.م حسب تأريخ حشيد المشار إليه سابقا وكتابات الفترة البونية وما بعدها، ذلك أن معظم المواقع الشمال إفريقية والصحراوية لم تقدم دلائل كافية تثبت انتظام استعمال الكتابة على امتداد تلك الفترات.

ويطرح هذا الأمر إشكالية التفاوت بين مناطق شمال إفريقيا والصحراء في تاريخ استعمال الكتابة وانتظامها، وخاصة في مناطق المجال الإفريقي الذي أسست به قرطاج وتوسعت به، حيث لم يعثر لحد الآن على نقائش سابقة أو لاحقة لتأسيس قرطاج. وهو ما يجعلنا إزاء احتمالين يصعب الحسم فيهما، فإما أن الكتابة الليبية قد استعملت بالفعل بالمنطقة ولم تترك آثارا مادية بحكم أن المجال البوني لم يكن معزولا عن باقي المجال الشمال الإفريقي والصحراوي الذي وجدت به آثار الكتابة، أو أن الكتابة الليبية قد تراجعت بسبب تداول الكتابة الفينيقية بالمجال البوني الإفريقي لصالح الكتابة البونية المستعملة في الوثائق الرسمية القرطاجية، وهو الأمر الأقرب إلى الترجيح.

(57) CAMPS G., (1977, p. 145).

(58) DIODORE DE SICILE, *BH*, III, 3

ويتوجب الإقرار في هذا المضمار، بأن الاستنتاج في مثل هذه القضايا الشائكة يبقى مقرونا بالحذر وموسوما بالنسبية، وحسبنا أن نعده تأسيسا لمشوار طويل من البحث والتحري الموضوعي الذي يقطع مع الأحكام المعيارية ويتجاوزها إلى المقاربة الشاملة لتاريخ شمال إفريقيا والصحراء. فلا يمكن صرف النظر عن معطى أساسي يتمثل في شح الوثائق المتوفرة وتجزئها، وهو أمر لا يسمح بإلغاء الآراء التي تشكلت في شأن أصل الكتابة الليبية، إلا أنه لا يمنع من إعادة النظر في المعطيات التي استندت إليها، وكشف الثغرات التي تعتريها بدل الاستماثة في الدفاع عن الفرضيات غير المؤسسة علميا. واعتبارا لهذا المعطى الهام، وعلى ضوء تحليلاتنا، يمكن تطوير البحث في إشكالية أصل الكتابة الليبية على قاعدة فرضية تسندها الدلائل العلمية التي سقناها، ومفادها أن توصل سكان شمال إفريقيا والصحراء إلى رموز وأشكال من الكتابة بمعزل عن التأثير الفينيقي يبقى أمرا واردا.

2. العلاقة بين الخط البوني والليبي

تأسيسا على خلاصاتنا السابقة ننبه بداية إلى أن دراسة العلاقة بين الخطين البوني والليبي ينبغي أن تتم من زاوية البحث في التفاعلات المحتملة بين كتابتين مستقلتين عن بعضهما البعض. ونظرا للاختلافات التي مازالت مطروحة بين ما يسمى بالكتابة الليبية الغربية والشرقية، والتي ترجع بالأساس إلى عدم إيلاء هذا الموضوع ما يستحقه من الاهتمام في الأبحاث التاريخية والأثرية من ناحية، وتعثر تفكيك حروف الكتابة الليبية الغربية من ناحية أخرى، فإننا سنركز في مقارنتنا بشكل أولي على الليبية الشرقية. ويستمد البحث في العلاقات الممكنة بين حروف الخط البوني وحروف الكتابة الليبية الشرقية[59] أهميته من عامل التجاور المجالي بين الكتابتين.

يلاحظ من خلال المقارنة بين الحروف البونية وحروف الكتابة الليبية الشرقية (انظر الجدول رقم 2) وجود عدة فروق جوهرية بين الكتابتين من أهمها محافظة الكتابة الليبية على الشكل الصغير والهندسي لحروفها لكونها لم تعرف نظام الرسم السريع (Système

(59) يقصد بمصطلح الكتابة الليبية الشرقية الخط المستعمل في كتابة النقائش المكتشفة بتونس وشرق الجزائر.علما بأن هناك من يميز في الكتابة الليبية المكتشفة في الجزء الشرقي من شمال إفريقيا بين كتابة ليبية شرقية وكتابة موقع دقة، والغالب على الظن أن الأمر يتعلق بطراز واحد من الكتابة. كما يتوجب التنبيه إلى المشاكل التي يطرحها تصنيف أنواع الكتابات الليبية بالنظر لصعوبة ربط الكتابة بحدود جغرافية أو بمجموعات بشرية كبرى ما دمنا غير واثقين من وجود نظامين أبجديين مختلفين أحدهما في شرق شمال أفريقيا و الآخر في غربها بسبب عدم توصل الأبحاث إلى معرفة نهائية وحاسمة لعدد حروف الكتابتين الشرقية والغربية ومضمون اللغة المستعملة في تلك النقائش.

cursif)على خلاف الكتابة البونية[60]. ويمكن اعتبار تلك الخاصية بمثابة دليل على تطور قديم في الكتابة الليبية حدث على الأرجح في فترة سابقة على استعمال البونية بالمنطقة، وبالتالي فلا مجال بأنها نسخت أو قلدت حروف الخط البوني[61].

أما بالنسبة للكتابة الليبية الغربية، فتجدر الإشارة إلى أن عدد حروفها لم يحدد بعد بشكل أكيد–حسب الدراسات التي أنجزت لحد الآن– فهناك من أحصى حوالي 33 حرفا، أي أن بها حروفا لم توجد في الكتابة الشرقية[62] التي تتكون من عدد من الحروف يساوي تقريبا عدد حروف الكتابة البونية، أي حوالي 23 حرفا كما نقل لنا فولجونس(Fulgence) منذ القرن 6 م[63].

ويطرح هذا التفاوت في عدد الحروف بنقائش الجزئين الشرقي والغربي لشمال إفريقيا، وتقارب عدد حروف الكتابة الشرقية والكتابة البونية وتجاورهما مجاليا مسألة تأثير الكتابة التي كانت مستعملة بقرطاج وجوارها الإفريقي على نظام الكتابة بالجزء الشرقي لشمال إفريقيا، خصوصا إذا أخذنا في الحسبان أن الكتابتين الشرقية والغربية قد انبثقتا من أصل مشترك[64]، وأن الكتابة الغربية ذات الاتجاه العمودي هي الأقدم[65]. وتبعا لذلك يمكن الافتراض بأن التأثير البوني في الكتابة الليبية الشرقية قد تمثل بالأساس على مستوى تقليص عدد حروف الكتابة التي استعملها الليبيون التابعون لقرطاج، أو أولئك الذين يقع مجالهم في دائرة إشعاع الحضارة البونية.

(60) HACHID M., (2000, p. 173).
(61) CAMPS G., (1961, p. 38).
(62) HACHID M., (2000, p. 179).
(63) GSELL S., *HAAN*, T. VI, p. 99
(64) GALAND L., (1989, p. 69).
(65) FÉVRIER J.-G., (1984, p. 322).

المصدر بتصرف عن:

- GHAKI M., Recherches…, p. 48 ; FÉVRIER J.-G., Histoire de l'écriture, fig. 87, p. 324 ; BATES O., The Eastern Libyan, p. 87

ملاحظة: الحرف الليبي(☰) يقابل في بعض النقائش حروف الهاء والحاء والعين وأحيانا الألف في النص البوني. وهي حروف حلقية كان نطقها ضعيفا في الليبية. كما أن المقابل السمعي للحروف الواردة في الجدول تمثل فقط مقابلا صوتيا تقريبيا للحروف تم التوصل إليه من خلال النقائش المزدوجة .

جدول رقم 2. *اختلاف الحروف البونية عن حروف الكتابة الليبية الشرقية*

غير أنه ينبغي الإقرار بمحدودية هذه الفرضية طالما أنها لا تحسم الإشكاليات المرتبطة بعلاقة البونية بالليبية، فهي تتأسس في جانب منها على نظرة اختزالية لتاريخ شمال إفريقيا القديم من منطلق أنه ظل ثابتا لا حراك فيه، أو أنه لا يتغير إلا بتأثير خارجي. ومن هنا لا

نستبعد أن يكون تقلص عدد حروف الكتابة الليبية قد تم نتيجة لتطور داخلي مس نظام الكتابة وفق خصوصيات محلية. كما أننا لا نعرف على وجه التحديد متى حدث التفاعل المفترض بين الليبية الشرقية والكتابة البونية، ما دمنا لا نستطيع اعتبار نقائش دقة (139 ق.م) بمثابة أقدم آثار الكتابة الشرقية.

أما بالنسبة لاتجاه الكتابة الليبية، فيستفاد من خلال دراسة النقائش الليبية بشمال إفريقيا أن هناك أربعة طرق لانتظام الخط الليبي، فهناك انتظام أفقي باتجاه من اليمين نحو اليسار أو من اليسار نحو اليمين، ثم هناك انتظام عمودي باتجاه من الأسفل نحو الأعلى أو العكس[66]. ويعتبر الانتظام العمودي للحروف في الكتابة الليبية الأقدم زمنيا والأكثر انتشارا مجاليا. فقد كتبت أقدم النقائش المكتشفة بالصحراء بهذه الطريقة[67]، ونفس الشيء في نقيشة عزيب نكيس بالأطلس الكبير بالمغرب[68]، وبمعظم النقائش التي عثر عليها بأنحاء شمال إفريقيا، ولاسيما على الأنصاب الجنائزية[69]. أما فيما يخص الاتجاه الأفقي من اليسار نحو اليمين، فنستطيع التأكيد من خلال ملاحظة التطور الكرونولوجي لاتجاه الكتابة الليبية بدءاً بنقائش الصحراء، ومرورا بنقائش الليبية الشرقية على أن هذا الشكل من الانتظام يعد تطورا لحق الكتابة الليبية الشرقية في فترة متأخرة، كما هو واضح في النقائش المؤرخة بما بعد سقوط قرطاج، والنقائش المزدوجة النيوبونية–اللاتينية والليبية–اللاتينية. لذلك يجمع الباحثون على ربط هذا الانتظام بتأثير استعمال الكتابة اللاتينية بالمنطقة[70].

أما الانتظام الأفقي من اليمين نحو اليسار، فيتركز بالخصوص في نقائش دقة[71] شمال غرب تونس[72]، ويعد نادرا في نقائش باقي أنحاء شمال إفريقيا إذا استثنينا نقيشة جزر الكناري التي عثر عليها في ظروف غامضة[73]، ونقيشة أخرى عثر عليها بدرعة بالمغرب تحمل رموزا بعضها يشبه الحروف الليبية[74].

(66) MARCY, G., (1936, p. 67).

(67) HACHID M., (2000, p. 186).

(68) GALAND L., (1960, p. 418).

(69) GHAKI M., (1997, p. 390).

(70) Ibidem

(71) CHABOT J.-B., (1921, p. 68).

(72) يبعد موقع دقة، حيث اكتشفت النقائش المزدوجة البونية-الليبية، بحوالي 106 كلم عن تونس العاصمة.

(73) FAIDHERBE (Le général), (1873, p. 34).

(74) SKOUNTI A., et NAMI M., 2000, p. 176).

فسر انتظام الكتابة الشرقية من اليمين إلى اليسار بتأثير الكتابة البونية في اتجاه الكتابة الليبية بمناطق المجال البوني والبلاد النوميدية بحكم أصالة ذلك الانتظام في الكتابة البونية[75] والفينيقية. ورغم وجاهة الفكرة وسلامة الأساس التاريخي والمعطى الجغرافي الذي يسندها، فإن ذلك التأثير كان على الأرجح محدودا مجاليا، ولم يتجاوز–انطلاقا من المعطيات الحالية–منطقة دقة[76]. علما أن سكان دقة قد استمروا في التدوين باتباع الانتظام العمودي أيضا كما يستفاد من النقائش المؤرخة بما بعد سقوط قرطاج مثل النقيشة المزدوجة النيوبونية–الليبية[77] عثر عليها بالموقع، ويلاحظ نفس الشيء في مكثر[78] على الحدود بين شمال غرب ووسط غرب تونس. كما استمر هذا الانتظام في مناطق أخرى من المجال البوني الإفريقي كما تدل على ذلك نقائش ليبية بجنوب وشمال غرب تونس[79]، وأخرى ليبية–لاتينية بتونس أيضا[80]، وفي مناطق أخرى من شمال إفريقيا كالجزائر(بالقرب من موقع بون)[81] والمغرب(ليكسوس)[82].

تضعنا المعطيات المشار إليها سابقا أمام احتمالين، فإما أن الليبيين الواقعين تحت التأثير القرطاجي المباشر قد استمروا في التدوين باتباع كلا من الانتظامين الأفقي والعمودي، أو أنهم تبنوا الاتجاه الأفقي من اليمين نحو اليسار الذي كان معتمدا في قرطاج، ثم تخلوا عنه في فترات ضعف قرطاج، وبعد سقوطها. وهذا أمر مرجح بالنظر لانتشار الاتجاه العمودي–الأصيل في الليبية–في النقائش المؤرخة بما بعد سقوط قرطاج.

(75) FÉVRIER J.-G., (1984, p. 322) ; GHAKI M., (1997, p. 388).

(76) Ibid., p. 391

(77) MARCY G., (1936, p. 67).

(78) CHABOT J.-B., (1918, p. 281).

(79) Ibid., p. 293 et 299 ; POINSSOT L., (1933, p. 30); GHAKI M., (1997, p. 387).

(80) FÉVRIER J.-G., (1984, p. 327).

(81) CHABOT J.-B., (1918, p. 299).

(82) MARCY, G., (1936, p. 94).

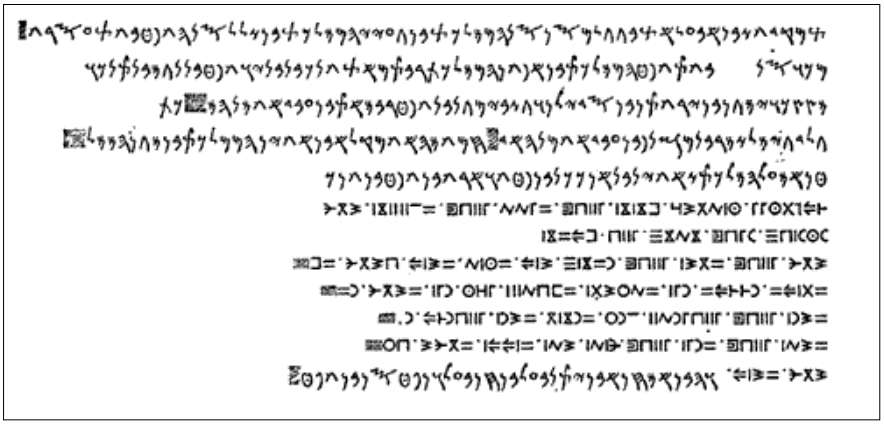

شكل 1. *اتجاه الكتابة من اليمين إلى اليسار في نقيشة دقة (تونس) البونية–الليبية (139 ق.م)*

وبناء عليه، يمكن أن نستنتج من خلال ملاحظة انتظام الكتابة بمجموع مناطق شمال إفريقيا بأن الكتابة الليبية قد حافظت على استقلالها من حيث المحافظة على الانتظام العمودي للخط رغم التأثير البوني المتمثل في اتباع الانتظام الأفقي من اليمين نحو اليسار[83] الذي يمكن اعتباره طارئا على الخط الليبي، كما يتضح من غيابه في أقدم النقائش الليبية، مما يعني أن الخط الليبي قد اتبع الانتظام الأفقي منذ فترات سابقة على انتشار التأثير البوني. ذلك أن النقيشة الليبية الوحيدة التي ربما أظهرت العكس والتي عثر عليها في موقع إنوفنان(Inoufnane)[84] وأرجعت إلى الفترة الكرامنتية[85] تنتمي في الواقع إلى مرحلة الجمل بالرسوم والنقوش الصخرية، أي إلى كتابة تيفيناغ الحديثة وليس إلى الكتابة الليبية القديمة[86].

تباينت آراء المختصين في الكتابات القديمة حول وظيفة النقط الموجودة في النص الليبي بالنقيشة المزدوجة بدقة، بين من يعتبرها حرفا ليبيا مستقلا، ومن لا يرى فيها سوى علامة للفصل بين مفردات النص الليبي[87]. فهناك من اعتبرها حرف "الفاء" في الكتابة الليبية

(83) أسمهر المحفوظ، (2003، ص. 302).

(84) HACHID M., (2000, fig. 263, p. 171).

(85) أسمهر(محفوظ) ، (2003، ص. 303).

(86) HACHID M., (2000, fig. 263, p. 171).

(87) FÉVRIER J.-G., (1956, p. 264).

الشرقية، وأنكر بالتالي استعمال الفواصل في الكتابة الليبية[88]. لكن اتضح في ما بعد بأنها فواصل تقع بأعلى السطر[89].

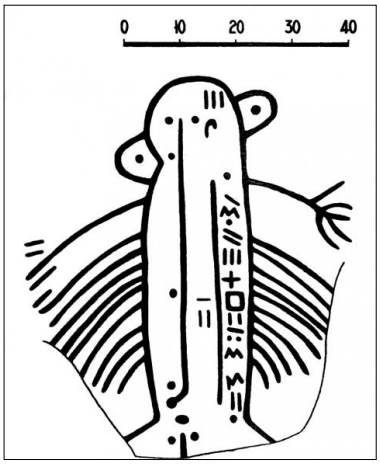

شكل2 . *إحدى أقدم بقايا الكتابة الليبية ذات الإتجاه العمودي بنقيشة عزيب نكيس بالأطلس الكبير (المغرب)*

إذا صح هذا الأمر، فإن استعمال الفواصل في الكتابة الليبية الشرقية يعد مستجدا على نظام الكتابة بالجزء الشرقي لشمال إفريقيا، طالما أنه لم يثبت لحد الآن وجودها في أقدم النقائش الليبية[90]. ومن هذا المنطلق رُبط استعمال الفواصل في الكتابة الليبية الشرقية بتأثير الخط البوني[91]. غير أنه يصعب الحسم في مثل هذا الاستنتاج العام لأنه إذا استثنينا النص البوني في النقيشة المزدوجة بدقة، فإن النصوص البونية سواء بقرطاج، أو بباقي المواقع الأخرى لم تعرف بدورها استعمال الفواصل. كما أن الفينيقيين أنفسهم كانوا قد تخلوا عن رسم الفواصل في كتابتهم منذ تاريخ مبكر. ينضاف إلى ذلك بالطبع أن استعمال الفواصل لم يكن

(88) MARCY G., (1936, p. 64).

(89) CHABOT J.-B., (1940, p. 3).

(90) أسمهر، المحفوظ، (2003، ص. 301).

(91) CHAKER S., (1984, pp. 233-234).

حكرا على الكتابة الليبية الشرقية، بل وجدت النقط كذلك في نقائش الكتابة الليبية الغربية[92]، وإن لم يُحسم بعد في وظيفة النقط بها[93].

إذا كانت فرضية التأثير البوني تدعمها قرينة غياب الفواصل في أقدم النقائش الليبية، فلا شيء يمنع من افتراض استعمال الفواصل في الكتابتين الليبية والبونية خلال مرحلة متأخرة وذلك ربما استجابة لحاجات عملية مرتبطة بتطور داخلي للخط الليبي والبوني بغية تسهيل قراءة النقائش التذكارية. وبذلك يبقى التأثير البوني في الكتابة الليبية الشرقية على هذا المستوى مجرد فرضية تفتقر إلى القرائن بسبب قلة وغموض النقائش المتوفرة لحد الآن من ناحية، وصعوبة التوصل إلى تاريخ مضبوط لتطور الخط وتقنيات الكتابة في شمال إفريقيا القديم من ناحية أخرى.

لقد اتضح من خلال تقدم الأبحاث في الكتابة بشمال إفريقيا والصحراء بأن سكان المنطقة ربما استعملوا أشكالا من الكتابة منذ فترات جد قديمة، مما يعني ضرورة إخضاع الفرضية التي تنسب للفينيقيين فضلا على الأمازيغ في موضوع إدخال الكتابة للمزيد من التمحيص. بيد أن ذلك لا يعني إلغاء التأثير الفينيقيي، فقد أدخل الفينيقيون بلا شك الخط الفينيقي إلى شمال إفريقيا كما تؤكد ذلك الوثائق المادية. كما ينبغي استحضار عامل تأثير البيئة الإفريقية من خلال التطورات المحلية التي لحقت الكتابة الفينيقية في المجال البوني الإفريقي. لقد خلصت الأبحاث التي اهتمت بدراسة تطور شكل الكتابة الفينيقية بشمال إفريقيا القديم إلى أن الخط الذي استقدمه أوائل الفينيقيين قد خضع لتغييرات هامة بإفريقيا مست طريقة كتابة عدد من الحروف. ويبدو أن هذه التحولات قد مست أيضا الكتابة الليبية المستعملة خلال الفترة البونية وما بعدها، خاصة في بعض النواحي الشكلية(اتجاه الكتابة مثلا).

وعلى سبيل الختم، يمكن تقديم بعض الاستنتاجات الأولية في شأن علاقة الكتابتين البونية والليبية الشرقية[94]. فالراجح أن الليبيين الأفارقة من سكان المجال الإفريقي الذي خضع للسيطرة القرطاجية قد استعملوا أشكالا أصيلة من الكتابة خاصة بهم، دلت الوثائق المادية على استعمالها من طرف الليبيين في أنحاء أخرى من شمال إفريقيا والصحراء، وذلك منذ

(92) CHAKER S., (1989, p. 36).

(93) Ibid., p. 34

(94) نستحضر هنا المحاذير التي يطرحها الاستنتاج في مثل هذا الموضوع اعتمادا على النزر اليسير من الوثائق المتوفرة بما يعتريها من غموض، ولا يستبعد أن ما ضاع من الشواهد الأثرية، أو مازال مطمورا في الأرض، ربما يكفي لتغيير الكثير مما يرقي عند البعض درجة القناعات العلمية الراسخة.

فترات سابقة جدا على تأسيس قرطاج وانبثاق الكتابة المسماة "بونية" بالجزء الشرقي لشمال إفريقيا بسماتها المتميزة عن الكتابة الفينيقية في الشرق. ولهذا حري بالأبحاث المستقبلية أن تستبعد مسألة الأصل في دراسة العلاقة بين الكتابتين البونية والليبية، وتعويضها بمسألة التفاعل الذي حصل بفضل التأثيرات التي تمخض عنها العيش المشترك على الأرض الإفريقية بين ذوي الأصول الفينيقية والسكان الليبيين الأصلاء. وتأسيسا على ذلك يبدو أن الليبيين قد تفاعلوا مع تأثيرات فينيقية–بونية على مستوى التدوين من خلال استعمال الكتابة البونية، إلا أنهم طوروا تلك الاقتباسات وفق خصوصياتهم المحلية، وتمسكوا بموازاة ذلك بتراثهم القديم متمثلا في الخط الليبي الذي سرعان ما عاد ليتبوأ مكانة متميزة في حضارة المنطقة، لاسيما بعد سقوط قرطاج، وخضوع جزء من مجالها الإفريقي لسيطرة الملوك النوميديين.

بيبليوغرافيا

BATES O., (1970), *The Eastern Libyan*, Frank Cass et Co, LTD.

BERTHOLON L., et CHANTRE, E., (1913), *Recherches anthropologiques dans la Berbérie orientale*, 1ère partie, A. Rey, Imprimeur-Editeur, Lyon.

CAMPS G., (1961), *Aux origines de la Berbérie, monuments et rites funéraires protohistoriques*, AMG, Paris.

CAMPS G., (1977), « Recherches sur les plus anciennes inscriptions libyques de l'Afrique du Nord et du Sahara » dans *BCTH*, n.s, n°10-11, fasc. A, pp. 143-166.

CAMPS G., (1987), *Les Berbères, mémoire et identité*, Editions Errance, Paris.

CHABOT J.-B., (1921), « Les inscriptions libyques de Dougga » dans *Journal asiatique*, T. XVII, n°1, Janvier-mars, pp. 67-96.

CHABOT J.-B., (1918), « Punica » dans *Journal asiatique*, T. XI, Mars-Avril, pp. 249-302.

CHABOT J.-B., (1940), *Recueil des inscriptions libyques*, 1er fascule ; Imprimerie nationale, Paris.

CHAKER S., (1984) *Textes en linguistique berbère*, CNRS, Paris, 1984

CHAKER S., (1989), « L'inscription libyque de Sidi Naamane » *CTHS*, n.s., fasc. 25, pp. 33-39

COLIN F., (1999), « Le vieux libyque dans les sources égyptiennes (de la nouvelle empire à l'époque romaine) et l'histoire des peuples libyco-phones dans le Nord de l'Afrique » *BCTH*, n.s, 25, pp. 13-18

CONTENAU G., (1927), *Manuel d'archéologie orientale*, T. I, Éditions Auguste Picard, Paris.

DIODORE DE SICILE, (1912), *Bibliothèque historique*, T. II, liv. V-XIII, traduit du grec par Hoefer, F., Librairie Hachette et Cie, Paris.

FÉVRIER J.-G., (1956), « Que savons-nous du libyque » dans *Rev. Afr.*, T. C , pp. 263-273.

FÉVRIER J.-G., (1984), *Histoire de l'écriture*, Payot, Paris.

GALAND L., (1960) « L'inscription d'Azib n'Ikkis » dans *BAM*, T. IV, pp. 418-421

GALAND L., (1989) « Les alphabets libyques » dans *Ant. Afr.*, T. 25, pp. 69-81.

GALAND L.,(2001), « Épigraphie libyco-berbère, la lettre du RIL b, répertoire des inscriptions libyco-berbères » dans *EPHE*- IV section, n° 7, pp. 1-2.

GHAKI M., (2004), « l'apport des inscriptions libyques » dans *Débuts de l'écriture au Maghreb*, Actes des colloques organisés à Casablanca par la Fondation Al Saoud, pp. 19-24.

GHAKI M., (1987), « Le cas de la stèle libyque Borj Hellal 3 : note sur l'orientation de l'écriture libyque » *Extrait dell Instituto Archeologico Germanico*, Sezione romana, Vol. 104, pp. 387-39.

GSELL S., (1929), *Histoire ancienne de l'Afrique du Nord*, T. VI, 2è éd., Librairie Hachette, Paris.

HACHID M., (1992), *Les pierres écrites de l'Atlas saharien*, El-Hadjra El-Mektouba, T. I, ENAG/Éditions.

HACHID M., (2000), *Les premiers berbères*, Ina-Yas, Édisud, Paris.

LITTMAN M.-E., (1904), « L'origine de l'alphabet libyque » dans *Journal Asiatique*, pp. 423-442.

MALHOMME J., (1960), « L'homme à l'inscription des Azibs n'Ikkis, Yagour » dans *BAM*, T. IV, pp. 411-417

MARCY, G., (1936), *Les inscriptions libyques bilingues de l'Afrique du Nord*, Cahiers de la société asiatique, V, Imprimerie nationale, Paris.

PERROT G., et CHIPIEZ Ch., (1882), *Histoire de l'art dans l'antiquité (l'Égypte)*, T. I, Librairie Hachette et Cie, Paris.

PICARD G.-Ch., et PICARD C., (1958), *La vie quotidienne à Carthage au temps d'Hannibal*, Hachette, Paris.

POINSSOT L., (1933), « Inscriptions libyques de Tunisie », *Revue Tunisienne*, n° 13-14, 1er et 2è Trimestre, pp. 19-30.

REBUFFAT R., (2004), « Le libyque de Bu Njem et le libyque », dans *Débuts de l'écriture au Maghreb*, Actes des colloques organisés à Casablanca par la Fondation Al Saoud, pp. 55-83.

SKOUNTI A., et NAMI M., (2000), « Une inscription rupestre libyco-berbère peinte d'Ifrane-n-Taska (Sud marocain) » dans *Sahara*, T. 12, pp. 174-176

SOLIGNAC M., (1928), *Les pierres écrites de la Berberie orientale (Est costantinois et Tunisie)*, Imprimerie J. Barlier et Cie, Tunis.

VUILLEMOT G., (1955), « La nécropole du phare dans l'île de Rachgoun (Oran) » dans *Libyca* (Arch.-Épig.), T. III, pp. 7-76

- أسمهر(المحفوظ)، (2003)، *جوانب من حضارة شمال إفريقيا القديم والصحراء من خلال الرسوم والنقوش الصخرية*، أطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، ص. 302 (مرقونة).

الاختزالات

Ant. Afr. : Antiquités africaines.

BAM : Bulletin d'Archéologie Marocaine

BCTH : Bulletin archéologique du comité des travaux historiques et scientifiques.

CNRS : Centre National des Recherches Scientifiques.

Rev. Afr. : Revue Africaine.

مجلة أسيناگ- □□□□□□، العدد الحادي عشر، 2016، ص 37-53

وظيفة الكتابة بالأمازيغية عبر التاريخ

أسمهري المحفوظ

المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية

Le présent article envisage d'approcher l'histoire du multilinguisme en Afrique du Nord à travers l'étude des fonctions réservées à l'écriture amazighe, depuis l'antiquité jusqu'à la fin du 18ème siècle. Le passage de l'amazighe de l'oral à l'écrit est attesté par les inscriptions dites libyques (l'amazighe de l'antiquité) présentes uniquement dans les stèles funéraires et les dédicaces dédiées aux morts, et par conséquent, liées au domaine religieux. Durant l'antiquité, le Moyen-Age et l'époque contemporaine, les disciplines de la religion étaient le champ privilégié de la littérature amazighe écrite. Ce rattachement fort de la pratique scripturaire amazighe au spirituel a permis aux langues qui le concurrençaient sur son propre territoire, pendant différentes périodes historiques, d'affaiblir la fonction de l'écrit pour la langue amazighe et d'en réduire le domaine d'emploi.

لا يمكن استيعاب تاريخ التعدد اللغوي بشمال إفريقيا دون الوقوف على ما كُتب باللغة الأمازيغية، أو لنقل بالفروع اللغوية الأمازيغية، وذلك لأهمية الكتابة بالنسبة للوظائف المجتمعية لأي لغة، ومن تمَّ لإشعاعها ولتطورها. لمقاربة الموضوع من هذه الزاوية، نعتقد أنه ينبغي التذكير بمعطيين اثنين أثبتتهما الدراسات الأركيولوجية والتاريخية واللغوية؛ أولهما أن الأمازيغية من أقدم لغات الحوض المتوسطي مثلها مثل المصرية القديمة والفينيقية وغيرهما من الفروع اللغوية المكونة للأسرة اللغوية المسماة الأفرو- أسيوية (Afro-asiatique) أو الحامية - السامية (Chamito-Sémitique). والمعطى الثاني الذي لا شك فيه أيضا هو أن الأبجدية الأمازيغية القديمة (أو الليبية " le Libyque" بمصطلح العصر القديم) هي أول ما كُتِبَت به اللغة الأمازيغية منذ أواخر الألف الأولى قبل الميلاد. لا شك أنه باستحضار المعطيين التاريخيين السالفين تتبادر إلى الذهن أسئلة عديدة، منها: إذا كانت الكتابة بالأمازيغية تقليداً عريقاً في التاريخ، فما نصيب هذه اللغة من التراث الشمال إفريقي المكتوب؟ ما هي المجالات التي استعملت فيها هذه الكتابة ؟ وما هي وظائفها التواصلية؟ هل كان لهذا التراث المكتوب

تأثير على المشهد اللغوي بشمال إفريقيا حيث كانت المنافسة بين الأمازيغية ولغات أخرى وافدة على المنطقة؟

سنقتصر في هذا المقال على رصد وظائف الكتابة بالأمازيغية من ماقبل الإسلام إلى أواخر القرن التاسع عشر. وقد استبعدنا ما كتب بعد ذلك لأنه يشكل مرحلة جديدة في تاريخ التأليف باللغة الأمازيغية، لأنها تميزت باستعمال الحرف اللاتيني من طرف الباحثين الغربيين لكتابة هذه اللغة، وبظهور متخصصين في الدراسات الأمازيغية (Les Berbérisants). كما تميزت بإدراج الأمازيغية، ولو على نطاق محدود، في النظام التعليمي للفترة الاستعمارية (بن الطالب، 2010). وهكذا فنحن أمام مرحلة جديدة لها خصوصيات، ربما ينبغي دراستها ومقارنتها بالوضعية الراهنة للتأليف بالأمازيغية، خاصة مع ظهور مؤسسات رسمية تهتم بهذا المجال[1].

بينت العديد من الدراسات أن ما كتب بالليبية (الأمازيغية القديمة) في فترة ماقبل الإسلام[2]، كله كتابات على لوحات حجرية، أو ما يسمى في قاموس البحث الأثري بالنقائش (les Inscriptions). فقد أحصت المصنفات (Recueils) ما يقرب من ألف وثلاثمائة نقيشة، نشر أغلبها منذ مطلع الأربعينيات من القرن الماضي (Chabot ,J.B,1940)، وتتركز بالمجال الترابي التونسي والجزائري. أما نصيب المكتشفة منها بالمغرب فما يزال قليلا (Galond L., 1966)، وكذلك الأمر بالنسبة لليبيا (Rebuffat R.,2004).

وبالرغم من أننا لم نستطع بعد قراءة نصوص هذه الكتابة بشكل كامل، فالملاحظ أن جلها له علاقة بالحقل الجنائزي، لأن غالبيتها العظمى شواهد قبور (Stèles) وبعضها إهداءات، منها ما هو منقوش على بنايات جنائزية كالأضرحة. ألم يكن للكتابة الأمازيغية في العصر القديم وظيفة أخرى غير التي لها علاقة بالمقدس أو المعتقد؟ في حدود المعطيات الحالية يمكن أن نقول إنها الوظيفة الأساسية لهذه الكتابة. وربما يعضد هذا الرأي كون الملوك الأمازيغ الذين كتبوا في بعض المجالات المعرفية ألفوا بلغات أخرى (البونية والإغريقية)، رغم أن الأبجدية الليبيةكانت معروفة في عهدهم. ونخص بالذكر هنا الملك النوميدي

[1] نقصد تأسيس كل من المندوبية السامية للأمازيغية بالجزائر (1995) والمعهد الملكي للثقافة الأمازيغية بالمغرب (2001).

[2] فضلنا استعمال "ما قبل الإسلام" لتأريخ تطور الكتابة بالأمازيغية، لأن دخول الإسلام، ومعه اللغة العربية، إلى شمال إفريقيا شكل محطة تاريخية مفصلية بالنسبة للغة الأمازيغية، فمن جهة ستكتب بالحرف العربي، ومن جهة أخرى سيتم تعريب عدة مجالات أمازيغية.

يَمْبْصَالْ(Victor J.Matthwes, 1972) ويُوبَا الثاني الملقب بالملك العلامة (Gsell, 1927).

هناك نوع من "النصوص الليبية" يطرح أسئلة أخرى، ونقصد هنا النقائش المزدوجة الكتابة (Inscriptions bilingues)، والتي نجدها إما نقائش ليبية بونية (Libyco-Puniques) أو نقائش ليبية-لاتينية (Libyco-Latines). إن اكتشافها في مواقع قديمة بكل من تونس والجزائر والمغرب، وكذا تأريخها بفترات زمنية مختلفة (Rebuffat. R, 2007)، يبين أن الأمر لا يتعلق بظاهرة معزولة في الزمان والمكان، بل إننا أمام تقليد دأب على كتابة الليبية (الأمازيغية القديمة) جنبا إلى جنب مع لغات أخرى كان لها إشعاع كبير في الحوض المتوسطي القديم مثل البونية واللاتينية. يطرح علينا هذه الصنف من النقائش أسئلة عدة حول وظيفة الكتابة بالأمازيغية في العصر القديم، ومنها: هل الفئة أو الفئات الاجتماعية التي تخاطبها هذه النقائش المزدوجة كانت تتقن الأمازيغية واللغة التي كتبت معها؟ هل يتعلق الأمر بترجمة أمازيغية لنص أصلي كتب بالبونية أو باللاتينية؟ هل كتبها شخص يتقن الكتابة بالأمازيغية ولغة أخرى؟ هذه الأسئلة وغيرها لا نملك لها إجابات بسبب شح المعطيات المتوفرة حاليا. أما من الناحية الشكلية، فالملاحظ أن عددا من هذه النصوص المزدوجة يكون فيها النص الليبي (الأمازيغي) أسفل النص البوني أو اللاتيني. فهل يعكس ذلك التراتبية التي كانت للأمازيغية بين لغات الكتابة المتداولة في شمال إفريقيا القديم؟ المؤكد تاريخيا هو انتشار اللغة البونية وتراثها المكتوب بين السكان المحليين الناطقين بالأمازيغية، الأمر الذي جعل الأمراء النوميديين يرثون خزانات الكتب البونية بعد تدمير مدينة قرطاج سنة 146 ق.م (Pline L'Ancien, XVIII,V,22). أما إبان الاحتلال الروماني فنلاحظ التمكين التدريجي للاتينية، خاصة مع انتشار المسيحية بمناطق شمال إفريقيا، وهو ما نتج عنه تدوين تراث إفريقي مسيحي غزير (Monceaux P., 1894). وبالمقابل، لم يعثر لحد الآن على نقائش ليبية-إغريقية، رغم وجود جاليات إغريقية في بعض المدن (Euzenat M., 1971)، وخاصة الموجودة بالقورينائية الليبية (Cyrénaique)، والتي ارتبط تاريخها بهجرات إغريقية (Hérodote, Histoires, II, 120-135).

أطلق باحثون أثريون على بعض النقائش الليبية اسم " النصوص الرسمية" (Textes officiels)، لأنها اكتشفت في موقع مدينة دوكا القديمة (في الشمال الغربي لتونس) إحدى عواصم المملكة النوميدية الشرقية، وأيضا لأنها تخص ملوكا من الأسرة الماسلية (Masyle) الحاكمة. هل كانت بالفعل للكتابة الأمازيغية القديمة وظيفة رسمية في عهد الممالك النوميدية؟ هناك من نقائش دوكا من تسمح بهذا الرأي، خاصة إهداء الملك مِكِبْسَا (Micipsa)لأبيه

الملك مَسِينِسَا (Massinissa) في السنة العاشرة لحكمه (148 ق.م) والإهداء الآخر المنقوش على ضريح أتبان "Atban" (RIL, 1-2)، لكن مرة أخرى لم تتجاوز وظيفة هذه الكتابة المجال الجنائزي. وما يرجح الارتباط الوثيق للكتابة الليبية بهذا المجال هو عدم استعمالها حتى في كتابة أسماء الملوك الأمازيغ على النقود، الذين ظلوا يفضلون كتابتها باللغة البونية، ثم البونية الجديدة (Néo-punique) واللاتينية في ما بعد. ففي الوقت الذي كان فيه هؤلاء الملوك يسكّون نقودهم وينقشون عليها أسماءهم ولقب الملك باللغة البونية، كانت أسماء الملوك تكتب بالأمازيغية على النقائش الحجرية؛ فما الذي منع هؤلاء الملوك من نقش أسمائهم بلغتهم على النقود؟ أليس ذلك راجعاً إلى كونهم كانوا يفضلون الكتابات المتداولة على نطاق واسع في الحوض المتوسطي القديم؟ ألم تكن القوة الاقتصادية لقرطاج وراء اعتماد لغتها في عملات الملوك الأمازيغ؟

لا تسمح معطيات النقائش الليبية السالفة الذكر بفهم واضح لإشارة فريدة سجلتها المصادر التاريخية المكتوبة حول الكتابة الأمازيغية. يتعلق الأمر بإشارة فيلجونس (Fulgence)، في القرن السادس للميلاد، ورد فيها أن عدد حروف الكتابة الليبية هو 23 حرفا (Rebuffat R., 2004:63-64). يبدو أن السياق الذي وردت فيه هذه الإشارة له دلالة، لأنها جاءت في معرض مقارنة الكاتب بين عدد حروف أبجديات لغات متوسطية[3]. لم يشر فيلجونس إلى اختفاء هذه الكتابة في عهده، وهو ما لا يعضد الرأي الذي يرجح اندثار الكتابة الأمازيغية في مجالها المتوسطي قبل القرن السادس للميلاد.

يستخلص مما تقدم أنه لما أشرف العصر القديم على النهاية في القرن الثامن للميلاد كان ما كتب بالأمازيغية جد محدود، رغم أنها بدأت مشوار الانتقال من الشفاهي إلى الكتابي على الأقل منذ القرن الثاني قبل الميلاد[4]. فلم يحفظ لنا التاريخ طيلة هذه القرون أي تأليف بالأمازيغية، رغم أن الأمازيغ كتبوا بعدة لغات متوسطية (البونية، والإغريقية، واللاتينية). ويبقى احتمال وحيد، لكنه جد ضئيل، وهو أن تكون كتابات بالأمازيغية في الخزانات العلمية للملوك المحليين[5] أو في خزانات قرطاج، وكلها فُقدت أو أُحرقت ولم يصلنا

[3] قارن فيها بين الأبجدية الإغريقية ذات 24 حرفا، والعبرية التي لها 22 حرفا، بينما لكل من اللاتينية والليبية (الأمازيغية القديمة) 23 حرفا.

[4] إذا أخذنا فقط بتاريخ نقيشة دوگا المؤرخة بالسنة العاشرة من حكم الملك الأمازيغي مكيبسا، أي 138 قبل الميلاد. أما بداية ظهور الأبجدية الليبية، فالباحثون لم يتفقوا على رأي واحد، فمنهم من يدافع عن تاريخ قديم لهذه البداية ويقدره بحوالي 1000 قبل الميلاد، بينما آخرون لا تتجاوز تقديراتهم بين القرن 6 والقرن الثالث قبل الميلاد.

[5] أشارت المصادر القديمة إلى مكتبة لملك المغرب القديم يوبا الثاني، وإلى أمراء نوميديين آلت إليهم كتب خزانات قرطاج

منها شيء. يبقى السؤال الذي لا نملك الآن معطيات للإجابة عنه، كيف عرف فيلجونس عدد حروف الكتابة الليبية إذا كانت نصوصها حجرية فقط واختفت من المجال المتوسطي قبل القرن السادس كما يرجح ذلك جل الباحثين؟

بينت كل الأبحاث التي اهتمت بتاريخ الكتابة الأمازيغية أن الطوارق، أمازيغ الصحراء، هم وحدهم الذين حافظوا على استعمال أبجدية أمازيغية منذ العصر القديم، مرورا بالعصر الوسيط والحديث، إلى اليوم. ومع ذلك، فوظيفة هذه الكتابة بالوسط الصحراوي كان لها بعد رمزي محدود جدا (Aghali-Zakara Mohamed, 1993 :142). وعندما نقارن ما خلفته ساكنة المجال الصحراوي من كتابات صخرية (Inscriptions Rupestres) بالنقائش الليبية المكتشفة بمجال الممالك الأمازيغية القديمة، يظهر جليا أن وظيفة الكتابة بالأمازيغية القديمة في كلا المجالين كانت جد محدودة. ألم يكن طغيان حياة الترحال على نمط عيش طوارق الصحراء هو ما حال دون تطور وظائف الكتابة رغم استمرارهم في استعمال الأبجدية منذ العصر القديم؟

مما لا جدال فيه أن دخول الإسلام إلى شمال إفريقيا كان له أثر عميق على المشهد اللغوي، بفعل العلاقة الوطيدة بين الدين الجديد واللغة العربية، ولكن بالخصوص بسبب الهجرات العربية إلى المنطقة. وينبغي التذكير هنا أنه لما أوشك العصر القديم على النهاية تكاد اللغة البونية وكتابتها تختفيان من هذا المشهد اللغوي، بسبب منافسة اللاتينية لها على الأرجح، خاصة وأن هذه الأخيرة هي لغة الدين المسيحي الذي كان له انتشار واسع في شمال إفريقيا القديم. ومن المعلوم أن سكان المنطقة ساهموا بشكل واضح في إغناء التراث الديني اللاتيني المكتوب[6]. ويبدو أن الانتشار السريع للإسلام سرعان ما جعل العربية تقوم بالأدوار التي كانت للاتينية، لتبقى العربية والأمازيغية تتنافسان على المشهد اللغوي، ونتج عن احتكاكهما ظهور العاميات المغاربية، وهو ما جعل محمد شفيق يصف الدارجة المغربية بأنها مجال توارد بين الأمازيغية والعربية (شفيق محمد، 1999).

استأثر موضوع الكتابة عند سكان شمال إفريقيا قبل الإسلام باهتمام مؤرخي العصر الوسيط. وحسب الحسن الوزان (ليون الإفريقي)، فالمؤرخون العرب منقسمون بين من يعتقد أن الأفارقة كانت لهم كتابة خاصة بهم قبل الإسلام، وبين من ينفي ذلك. وحتى أصحاب

بعد تدميرها من طرف الرومان.

[6] يمكن القول إن كل ما كتبه سكان شمال إفريقيا، وكثير منهم أمازيغ أو من أصول أمازيغية، باللاتينية مابين القرن الرابع والخامس للميلاد يكاد يقتصر على الجانب الديني المسيحي.

الرأي الأخير فإنهم " يعترفون بأن للأفارقة لغتهم الخاصة، لكنهم يستعملون عادة في كتابتها الحروف اللاتينية"(الحسن بن محمد الوزّان الفاسي، ج 1، 1983: 69). ليس هناك أي دليل تاريخي أو أركيولوجي يثبت أن الأمازيغية كتبت بالأبجدية اللاتينية قبل الإسلام، وعدم ذكر الحسن الوزان لأسماء المؤرخين المدافعين عن هذا الرأي يجعلنا غير قادرين على فهم دوافع اعتقادهم لذلك. وعموما، فالمصادر العربية التي أرخت لشمال إفريقيا قبل الإسلام غالبية معطياتها غير دقيقة أو يطغى عليها الطابع الأسطوري، لأن مؤلفيها لم يطلعوا على المصادر الإغريقية واللاتينية التي أرخت للمنطقة (Ghazi Halima, 2000). وعكس هذا الرأي، يخبرنا صاحب كتاب وصف إفريقيا أنه "يذهب فريق من مؤرخينا إلى أنه كانت للأفارقة لغة مكتوبة خاصة بهم، لكنهم افتقدوا هذه الكتابة من جراء احتلال الرومان لبلاد البربر"(الحسن بن محمد الوزّان الفاسي، ج 1، 1983: 69-70). ونعتقد أن هذا الرأي هو الأقرب إلى الصواب وتؤيده الأدلة الأثرية والمعطيات التاريخية. أما الاعتقاد بأن كُتُب الأفارقة التي ذكرها الحسن الوزان أُلِّفت بالأمازيغية (جهادي الحسين،2014: 106) فليس له أي دليل تاريخي، والراجح أن الأمر يتعلق بمؤلفاتهم اللاتينية حول المسيحية، وهي غزيرة، أو بكتب باللغة البونية.

استُعملت الأبجدية العربية لكتابة الأمازيغية[7] منذ مطلع العصر الوسيط. ومن أولى الاستعمالات التي حفظتها التاريخ ما أشارت إليه المصادر من أن زعيم البورغواطين وضع لأتباعه قرآنا بالأمازيغية من ثمانين سورة (ابن أبي زرع، الروض القرطاس:166) يرجح أنه كتب بالحرف العربي، مادام أن المصادر الوسيطية ترجمت بعض جمله، كما لم تشر إلى أنه كتب بخط آخر أو أنه غير مُدَوَّن.

تبقى التجربة الموحدية في مجال توظيف اللغة الأمازيغية هي الفريدة طيلة العصر الوسيط (Mehdi Ghouirgate , 2014). ورغم هذه الأهمية، فما أَلَّفَه المهدي ابن تومرت، الزعيم الروحي، بالأمازيغية لم يصلنا إلا من خلال الترجمة العربية لبعض متونه. يبدو أن الاهتمام بالأمازيغية ارتبط بالمشروع الديني الموحدي، ويشهد على ذلك جملة الإجراءات التي اتخذها الموحدون في بداية حكمهم من قبيل أذان الصلاة بالأمازيغية وإلقاء خطب الجمعة

[7] سميت الأمازيغية في المصادر العربية لهده الفترة بعدة تسميات منها اللسان الغربي والعجمي والبربري. ونظرا للاختلاف الحاصل بين النظام الصياتي (Phonétique) العربي والأمازيغي، فقد اجتهد في ملائمة الأبجدية العربية للحروف الأمازيغية مثل الزاي المفخمة والكَاف.

بها، حتى بالمدن الكبرى مثل مسجد القرويين (رحيمة تويراس،2015: 217-224). والغالب على الضن أن هذا المشروع مرتبط بفترة الزعيم المؤسس، أو ما يسمى بالمرحلة المهدوية، لأننا لم نلمس تناميه في مرحلة الأوج التي وصلت إليها الإمبراطورية الموحدية.

إذا قارنا بين كل من وظيفة التأليف بالأمازيغية عند البورغواطيين والموحدين من جهة، وبين وظيفة الكتابات الليبية (أو أمازيغية العصر القديم) من جهة أخرى، يتبين بشكل جلي أنها في مجملها مرتبطة بالمجال العقدي أو المقدس: ففي ما قبل الإسلام تكاد تكون الكتابة مقتصرة على الجانب الجنائزي، أما مع الإسلام فركز التأليف على موضوعات دينية تتوخى تقريب مبادئ الإسلام إلى فهم العوام من الناطقين بالأمازيغية. الاختلاف الواضح بين ما قبل الإسلام وما بعده أنه طيلة العصر القديم كتبت اللغة الأمازيغية فقط بالحرف الليبي الأصلي ولم تستعمل أيا من الأبجديات المتداولة على نطاق واسع في شمال إفريقيا والحوض المتوسطي بكامله مثل الفينيقية والبونية والإغريقية واللاتينية، بينما في العصر الوسيط استُعملت الأبجدية العربية وحدها لكتابة الأمازيغية.

سيتأكد من جديد طغيان الوظيفة الدينية للتأليف بالأمازيغية مع المخطوطات التي ظهرت بالمناطق الجنوبية من المغرب (بلاد سوس) ما بين القرن السادس عشر والتاسع عشر للميلاد. تناول علي أمهان في دراسة له سنة 1992 دواعي ظهور التأليف بأمازيغية الجنوب المغربي (تاشلحيت) في هذه الفترة، وتساءل في بداية مقاله عن الدوافع الحقيقية التي جعلت كُتَّاب هذه المنطقة يُؤلِّفون بلغتهم المحلية، فهل هي تعليم أصول الدين الإسلامي أم الرغبة في التعبير كتابة بلغتهم الأم؟ (Ali Amahan,1992 : 437). ولاحظ الباحث بعد تتبعه لظروف تأليف هذه المخطوطات إلى أن غالبية الكتب التي ألفت بتاشلحيت لها طبيعة دينية وألفت خلال فترات الأزمة التي مرت بها بعض الزوايا.وخلص إلى أن " الكتابة بتاشلحيت لم تمُلها فقط، كما نعتقده دائما، الرغبة في تعليم البربر أصول الإسلام، بل كانت تندرج غالبا في إطار استراتجية سياسية واضحة لزوايا المنطقة، سواء عن وعي أو غيره، من أجل تجاوز الأزمات التي كانت تهدد مستقبلها"(Ali Amahan,1992: 443).

تبين الإحصائيات المتوفرة أن المخطوطات الأمازيغية المكتوبة بالحرف العربي تطغى عليها الموضوعات الدينية، وأهمها تلك الموجودة في الخزانات المغربية الخاصة منها والعامة (الگنساني، 2003)، أو التي توجد في مكتبات أوروبية على رأسها مكتبة ليدن بهولندا (المنادي أحمد، 2015) ومكتبة معهد الدراسات والأبحاث حول العالم العربي والإسلامي (IREMAM) بإكس أون بروفانس (Aix-en-Provence) بفرنسا (Nico van Den

Boogert, 1995). ويلخص أحمد المنادي مجالات هذه المخطوطات بقوله: " ارتبطت معظم النصوص والمخطوطات التي ألفها المغاربة الأمازيغ، والتي وصلتنا، بمجالات الدين الإسلامي. ذلك أن النخبة العالمة [...] كانت من صميم المؤسسات الدينية [...] من هذا المنطلق كان التأليف في عمومه يتجه نحو خدمة الأغراض والقضايا الموصولة بتثقيف الناس في حياتهم الدينية [...] ومع أن عملية التأليف لم تتجاوز الإطار الديني، مع بعض الاستثناءات، فإنها تميزت بالتنوع من حيث مجالاتها وقضاياها، وأساليبها" (المنادي أحمد، 2015: 93).

تسمح لنا وثائق أخرى تهم تاريخ الجنوب المغربي، وتحديدا الأطلس الصغير، ما بين القرن 16 للميلاد وبداية القرن الماضي بفهم وظيفة الكتابة في هذه المجالات الأمازيغية، ويتعلق الأمر بالقوانين المكتوبة المنظمة لمؤسسة أكَادير[8]. أقدم هذه القوانين (الألواح) تعود إلى القرن التاسع الهجري وكتبت بلغة عربية ركيكة، لأنها في كثير من الأحيان ترجمة حرفية لمعاني أو مفردات أمازيغية. لكن المهم بالنسبة لموضوعنا هذا أنها تعطي أولوية للشفاهي على الكتابي، لأنها تنص غالبا – وبصيغ مختلقة- على أن " **كل مسألة ليست في هذا اللوح فهي في رأس العمال**" [9] (أنظر الوثيقة 1)، بعبارة أخرى" ما ليس مدونا في هذا القانون، فهو محفوظ في ذاكرة المسؤولين عن تدبير الحصن". في أبحاثنا الميدانية[10] حول مؤسسة أكَادير غالبا ما يستدل مَنْ استجوبناهم بهذا النص في صيغته الأمازيغية الأصلية " **أيْنَّ أُورْ إيلّنْ غْ الُّوحْ هَاتِنْ غْ إكَويَّا نْ إنْفْلاَسْ** "[11]، وذلك لتبيان أهمية الذاكرة في حفظ قانون أكَادير.

استمر التنصيص على هذه العبارة لقرون من الزمن، ومن الصيغ التي وردت به في لوح مؤرخ بالقرن الثالث عشر للهجرة: " **وعقدوا[أهل الحصن] أن ما لم يكن في اللوح كان في رؤوس العمال من مصالح الحصن**". ومعنى هذا أن المكتوب يأتي في درجة أقل مقارنة مع الذاكرة الجماعية الشفوية، فهذه الأخيرة هي المرجع المعتمد رغم أن منطق المجال القانوني يعطي الأولوية للمكتوب. ومما يزيد من أهمية الشفاهي أن الاطلاع على القانون المكتوب

---

[8] أكَادير (ج.إكَودار)، وهي المعروفة بالمخازن الجماعية.كانت القبائل الأمازيغية تخزن فيها ممتلكاتها النفيسة وأقواتها وتخضع لحراسة أمنية مشددة. وهو مؤسسة جماعية تنظمها قوانين، ويعين مجلس تدبير يشرف على تسييرها.

[9] العمال في لغة قانون أكَادير تعني المسؤولين عن تدبيره، ويسمون بالأمازيغية إنْفْلاَسْ، ومفردها أنْفْلُوسْ.

[10] كل هذه الأبحاث كانت في إطار مجموعة بحث حول إكَودار الجنوب المغربي بدأت عملها الميداني منذ 2009. وتضم كل من أيت عدي مبارك وأسمهري المحفوظ ورامو حسن، هذا الأخير ظل مستمرا مع المجموعة رغم مغادرته للمعهد الملكي للثقافة الأمازيغية والتحاقه بمعهد الدراسات الإفريقية.

[11] "□□□□□ □□ □□□□□ □ □□□ □□□□□ □ □□□ □ □□□□□□"

مسألة جد معقدة تتطلب إجراءات خاصة، ومخالفتها تترتب عنه عقوبات مالية. وتنص الألواح أحيانا أنه إذا تشبث شخص بالرجوع إلى الصيغة المكتوبة من القانون بدل الرواية الشفوية للحسم في نازلة ما، فالمطلوب منه أن يؤدي مسبقا غرامة مالية، وبطبيعة الحال فالهدف هو ثني الناس عن المطالبة بالإطلاع على الوثيقة المكتوب، ولهذا نص لوح أكادير إغرم[12] مثلا على أن " العمال [المسؤولون عن تطبيق القانون] من جملة اللوح في الحصن"، أي أن قولهم جزء من اللوح المكتوب. ونعتقد أن هذه الوثائق التاريخية لا تسمح فقط بتتبع وظيفة الكتابة في هذه المناطق الأمازيغية، بل تعكس منظور الثقافة الأمازيغية للكتابة[13]، والذي قد يصل إلى مستوى تقديس كل ما هو مسطور[14]. كما نصت بعض هذه القوانين العرفية أن من شتم اللوح (الكتاب) أو سبه أو سقط من يديه أرضا فعليه غرامة (أنظر الوثيقة 2). صحيح أن التحذير من التعامل مع القانون المكتوب بهذه الطريقة إنما ينم عن تمرد على قانون الجماعة، لكنه لا تخلو أيضا من دلالات حتى بالنسبة لدور المكتوب في الثقافة الأمازيغية.

بوأت الدراسات للمغرب مركز الصدارة من حيث عدد المخطوطات الأمازيغية المكتوبة بالحرف العربي المكتشفة به. ومع ذلك فوضعية التأليف بالأمازيغية بهذه الأبجدية في مناطق أخرى من شمال إفريقيا والصحراء لا ينبغي تجاهلها؛ أولى الكتابات ظهرت منذ القرن الثالث الهجري في مجال انتشار المذهب الإباضي، خاصة الجنوب الجزائري (لمزاب) وتونس، وجلها لها علاقة بالجانب الديني، والخروج عنه يشكل استثناءا (Djamel Aïssani, 1998). وحتى التآليف الأمازيغية التي ظهرت بمنطقة القبائل بالجزائر نهاية القرن التاسع عشر، فغالبية

---

[12] المقصود هو إغرم الأطلس الصغير الأوسط القريب من مدينة تارودانت.

[13] أحيل هنا على تجربتي الشخصية، والتي أعتقد أنها تعبر بوضوح عن دور الكتاب في الثقافة الأمازيغية. فقد ورثت جدتي من أمي كتابا من ابنها البكر الذي توفي في بداية السبعينيات من القرن الماضي، وكان رحمه الله تلميذا بالمعهد العلمي بمدينة تارودانت. وقامت الجدة بحفظ الكتاب وتعليقه في سقف غرفتها، وكلما طلبت منها الاطلاع عليه وأنا آنذاك تلميذ في السلك الإعدادي تجيبني رحمها الله أنني لم أبلغ بعد مستواه العلمي لأنه كبير الحجم، وفي الأخير ضاع الكتاب ولا أعرف مصيره.

[14] هناك رأي شائع مفاده أن تقديس المكتوب في الثقافة الأمازيغية جاء بفعل تأثير الثقافة الإسلامية العربية. ونعتقد أننا في حاجة إلى دراسة أنتربولوجية عميقة لهذا الموضوع. في الوسط الأسري الذي تربيت فيه كنا نتلقى تربية تحثنا على تقديس كل ما هو مكتوب وتجنب دَوْسِه أو تخطيه بالأقدام ، حتى و لو كان ورقة كتب بلغة غير العربية. كما أن الكثير من الثقب الموجودة بجدران المنزل نجد بها أوراق مكتوبة، كان الكبار يحرصون على وضعها فيه كلما صادفوها مخافة دوسها. كما كانت أمي تحرص على حرق الأوراق والدفاتر المدرسية التي لم تعد لنا حاجة إليها، وذلك مخافة أن يصيبنا مكروه إن لم نحترمها.

مواضيعها لم تخرج عن الحقل الديني (Djamel Aïssani et Mechehed, D-E., 2010).

إذا تركنا جانبا التأليف في المجال الديني، نجد أن من الجوانب التي نالت نوعا من الاهتمام هي وضع القواميس الأمازيغية العربية. تعود أولى هذه المعاجم إلى القرن السادس الهجري "معجم ابن تونارت"، تم بعدها في القرن السابع والثامن عشر للميلاد " معجم المارتيني" و"معجم الهلالي" و"المجموع اللائق على مشكل الوثائق" وغيرها (عمر أفا، 2007: 9-11). أما أسباب ظهورها ووظيفتها فيوضحها عمر أفا بقوله"بينما كانت اللغة الأمازيغية –عمليا- هي لغة التدريس والشرح والتعليق لفهم النصوص العربية دونما حاجة إلى استعمال معاجم أمازيغية، وكان الفقهاء والموثقون وممارسو الطب الشعبي قد تشبثوا بالنصوص العربية حفظا واستظهارا في مجال المعاملات، اعتمادا على المعاجم المذكورة [...] وفي هذا السياق ظهرت بعض التآلف المتواضعة بلغة مزدوجة تجمع بين العربية والأمازيغية لسد هذه الحاجة دون التصريح بالجهة التي تقدم إليها هذه التآليف، باستثناء تلك الموجهة للعدول بالتحديد لتوظيفها في كتابة الوثائق العدلية..." (عمر أفا، 2007: 8). هذا الاستنتاج قد لا ينطبق على معجم ابن تونارت الذي ظهر في العصر الموحدي، والذي يبدو أنه يعكس الاهتمام الرسمي الذي حظيت به اللغة الأمازيغية. ويفسر هذا الاهتمام أيضا سبب اعتماد صاحبه على اللسان المصمودي[15] باعتباره لسان القبيلة المؤسسة للدولة، إذا جاز التعبير. والخلاصة أن المعاجم الأمازيغية المعروفة يلاحظ أنها تكاد تخص أمازيغية الجنوب المغربي، وإن اختلفت الأسباب التي كانت وراء هذه الظاهرة.

في نهاية القرن التاسع عشر سنلاحظ أن التأليف بالأمازيغية بدأ يهتم بمجالات معرفية غير مألوفة من ذي قبل في مقدمتها التاريخ والجغرافيا، لكنها كانت تحت الطلب في إطار المشروع الفكري الإمبريالي الذي كان يتوخى جمع المعطيات عن المجالات الأمازيغية النائية تمهيدا للاحتلال العسكري. يتدرج في هذا الإطار كتاب "أخبار سيدي ابراهيم الماسي" الذي ألّفه فقيه ينحدر من منطقة ماسة بالجنوب المغربي سنة 1834م، بطلب من أحد الدبلوماسيين الأمريكيين المقيمين بمدينة طنجة حيث التقى بالمؤلِّف. والكتاب تطرق فيه صاحبه بإيجاز شديد إلى جوانب من تاريخ سوس خلال القرن التاسع عشر (أفا عمر ،

[15] جاءت هذه الفكرة في المحاضرة التي ألقاها الأستاذ مهدي اغويركات، من جامعة بوردو بفرنسا، بالمعهد الملكي للثقافة الأمازيغية يوم الأربعاء 7 يناير 2015 حول موضوع " استعمال اللغة الأمازيغية في العصر الموحدي " (المحاضرة ألقيت باللغة الفرنسية).

2004). نفس الظاهرة ستتكرر في مناطق أمازيغية أخرى، ففي 1885م كلف أحد المستعربين الفرنسيين بالجزائر طالبا فقيها من بلاد نفوسة بليبيا، واسمه إبراهيم أوسلمان أشماخي، بتأليف كتاب بالأمازيغية عن المنطقة التي ينتمي إليها، وسماه " يغاسرا– د– يبريدن – د– يدرارن ينفوسن ماموملت — س — تمازيغت "[16]، أي "قصور ومسالك جبل نفوسة". ورغم أن الكتاب لا يتعد ثمانية وأربعون صفحة من الحجم الصغير، إلا أنه مصدر مهم للمهتم بالتاريخ السياسي والاجتماعي والاقتصادي لجبل نفوسة خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر. (حمام محمد ، 2004: 5-6)

خلاصة

يمكن أن نميز في تاريخ الكتابة بالأمازيغية، أو بالفروع اللغوية الأمازيغية بمفهوم أدق، قبل الفترة الاستعمارية المعاصرة بين مرحلتين أساسيتين، لكل منهما خصائصها :

– المرحلة الأولى تمثلها فترة ما قبل الإسلام، وخلالها كتبت اللغة الليبية (الأمازيغية القديمة) بأبجديتها الأصلية، ولم يُستعمل في تدوينها أيا من الأبجديات المتوسطية المتداولة في مجالها الترابي. وقد ظلت وظيفة الكتابة بهذه الأبجدية طيلة هذه المرحلة مقتصرة على الجانب الجنائزي (الكتابة على شواهد قبور). والمثير للانتباه أن نقود الممالك النوميدية أو المورية التي حكمت بشمال إفريقيا لقرون عديدة لم تنقش عليها حروف هذه الكتابة. كما فضل الناطقون بالليبية التأليف بلغات متوسطية قديمة، مثل البونية والإغريقية واللاتينية، في مجالات علمية حضيت باهتمامهم.

– المرحلة الثانية بدأت مع الإسلام، وكُتبت فيها الفروع اللغوية الأمازيغية بالحرف العربي، وظلت الوظيفة الأساسية للكتابة هي الموضوعات الدينية ذات العلاقة بمبادئ الدين الإسلامي بهدف تقريبها من فهم الناطقين بالأمازيغية. أما التأليف خارج المجال الديني فكان ضئيلا جدا، ولم يحصل فيه تراكم ملحوظ. ولم يظهر التأليف بالأمازيغية في مجالات علمية أخرى (التاريخ مثلا) غير مألوف الكتابة فيها بهذه اللغة إلا بطلب من باحثين أوربيين خلال القرن التاسع عشر.

يظهر جليا أنه منذ العصر القديم إلى بداية الفترة المعاصرة، ظلت الوظيفة الأساسية للكتابة باللغة الأمازيغية مرتبطة بالمقدس والدين. تثير هذه الخصوصية العديد من الأسئلة، من قبيل: ألم يساعد هذا الارتباط الوثيق بين المعتقد والكتابة على التمكين في شمال إفريقيا

[16] "□□□□□ □ □□□□□ □ □□□□□□ □□□□□□ □□□□ □□□□ □ □□□□□□□"

للغات وافدة باعتبارها لغات الدين مثل اللاتينية والعربية؟ هل لهذا الارتباط علاقة بتقديس الكتابة الذي ما زلنا نلمس تجلياته في الثقافة الأمازيغية؟ لماذا لم تنتج الأمازيغية إرثا مكتوبا يشمل المجالات المعرفية التي استعملت فيها الكتابات المتوسطية القديمة، رغم أن لها أبجدية قديمة؟

ما هو واضح أن التأليف بالأمازيغية ظل لقرون عديدة، في عمومه، لصيقا بالمقدس والدين، وهو ما كان له تأثير على المشهد اللغوي بشمال إفريقيا. فمن جهة فتح المجال للناطقين بالأمازيغية للتأليف بلغات غير لغتهم الأم، ومن جهة أخرى يبدو أنه ساعد لغات أخرى على التغلغل في المجالات الأمازيغية، إما باعتبارها لغة الدين أو المستعْمِر. غير أن عوامل أخرى ساهمت بدورها في تنوع المشهد اللغوي بالمنطقة، وفي مقدمتها الهجرات الجماعية التي استقبلتها في عدة فترات من تاريخيها العريق.

البيبلوغرافيا

أفا، عمر (نشر)، 2004، أخبار سيدي ابراهيم الماسي، سلسلة نصوص ووثائق رقم 3 (مركز الدراسات التاريخية والبيئية) منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط.

بنطالب، علي (2009)، أضواء على مؤسسات التعليم الفرنسية–الأمازيغية خلال مرحلة الحماية، مجلة أسيناكَ ، العدد 2، ص ص 33-40.

تويراس، رحيمة (2015) ، تعريب الدولة والمجتمع خلال العصر الموحدي، منشورات مؤسسة الإدريسي الفكرية للأبحاث والدراسات، الدار البيضاء.

جهادي، الحسين (2014)، نموذج المقاومة المغربية في دولة بورغواطة الأمازيغية، مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الأولى، الدار البيضاء.

الوزّان الفاسي، الحسن بن محمد (1983) وصف إفريقيا، الجزء الأول، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية ، بيروت.

حمام، محمد (نشر وتعريب)، 2004، قصور ومسالك جبال نفوسة، سلسلة نصوص ووثائق رقم 1 (مركز الدراسات التاريخية والبيئية) منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط.

الگنساني، أبو زيد أحمد (2003)، "التأليف بالأمازيغية: بيبلوغرافيا انتقائية لمؤلفات أمازيغية بالحرف العربي في منطقة سوس"، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، عدد 25، ص ص: 211-230.

المنادي، أحمد (2015)، المخطوط الأمازيغي بمكتبة جامعة ليدن، مجلة أسناگ، العدد 10، ص ص : 89-100.

شفيق، محمد (1999)، الدارجة المغربية مجال توارد بين الأمازيغية والعربية، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط.

Amahan, Ali (1993), « l'écriture en Taslhyt est-elle une stratégie des Zawaya », In A la croisée des études Libyco-berbères, Méllanges offerts à Paulette Galland-Pernet et Lionel galand, éd.Geuthner, Paris PP 437- 450

Aghali-Zakara, Mohamed (1993), « les lettres et les chiffres : écrire en berbère », In A la croisée des études Libyco-berbères, Méllanges offerts à Paulette Galland-Pernet et Lionel galand, éd.Geuthner, Paris, PP 141-157

Chabot, J.-B. (1940), *Recueil des inscriptions libyques*, Paris, 1940. (= RIL)

Djamel, Aissani (1998), « les écrits de langue berbère de la collection de manuscrits Ulahbib (Bedjaia) », In Études et Documents Berbères**,** N° 15-16, pp.81-99

Djamel Aïssani et Mechehed, D-E.(2010), Manuscrits de Kabyle : catalogue de la collection Ulahbib, Publication du CNRPAH, Nouvelle série N° 4, Alger.

Euzenat, M. (1971), « Grecs et orientaux en Maurétanie tingitane », Antiquités Africaines 5, PP 161-178.

Ghouirgate, Mehdi (2014), L'ordre almohade (1120-1269). Une nouvelle lecture anthropologique**,** Toulouse.

Ghazi, Halima, Ben Maïssa (2000), « Image ou mirage de la Tingitane à travers les sources arabes médiévales », *Africa Romana, 14, p. 2185-2266.*

Galand, L. (1966), « Inscriptions libyques », in *Inscriptions antiques du Maroc*, Paris, CNRS.

Gsell, S. (1927), «Juba II, savant et écrivain», In Revue Africaine, 68, 1927, pp : 169-197

Hérodote (1850), Histoires, Livre II, Trad. du grec par Larcher ; avec des notes de Bochard, Wesseling, Scaliger [et al.], Charpentier, Paris.

(http://remacle.org/bloodwolf/historiens/herodote/euterpe.htm: février 2015)

Monceaux, P. (1894), les Africains : étude sur la littérature latine d'Afrique : les païens, Paris : Lecène, Oudin.

Nico Van Den Boogert(1995), Catalogue des manuscrits arabes et berbères du fonds Roux, IREMAM, Aix-en-Provence

Pline, l'ancien, (1972), Histoire Naturelle, Livre XVIII, texte établi et traduit et commenté par Henri Le Bonniec, les Belles Lettres, Paris.

Rebuffat, R. (2004), « Le Libyque de bu Njem et le libyque, In début de l'écriture au Maghreb », Publications fondation du roi Abdul-Aziz Al Saoud, Casablanca, PP 55-83.

Rebuffat, R. (1912), *Recueil des inscriptions libyques1940-2012* Supplément à J.B Chabot, (http ://halshs.archives-ouvertes.fr/halshs-00841800).Paris.

Rebuffat, R.(2007), « Pour un corpus de bilingues punico-libyques et latino-libyques », dans *Osmose ethno-culturelle en Méditerranée*, Tunis, 2007, p. 183-242.

وثائق

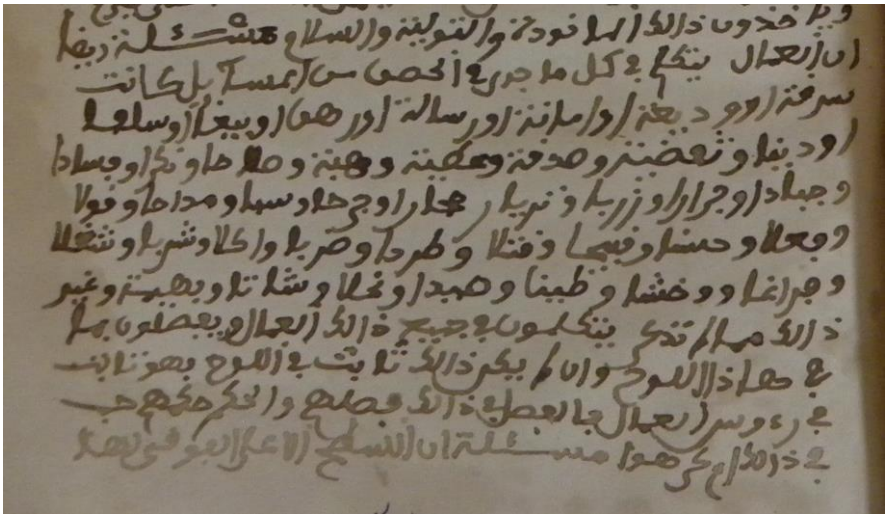

الوثيقة 1. *نموذج من ألواح حصون الأطلس الصغير: أهمية ذاكرة المسؤولين عن التدبير (العُمّالُ) في حفظ القانون.*

"... مسئلة أيضا إن العمال يتكلم [كذا] في كل ما جرى في الحصن من المسائل(...) بما في هاذا [كذا] اللوح وإن لم يكن ذالك [كذا] ثابت في اللوح فهو تابت في رؤوس العمال فالفصل في ذالك[كذا] فصلهم والحكم حكمهم حب في ذالك [كذا] أم كرهوا"

الوثيقة 2. *مقتضيات تنظم الاطلاع على اللوح المكتوب المنظم للحصن*

"... فنبتد إن شاء الله بوضع العقائد ما يفهم منه نصه من خرج هذا اللوح لبعض الأمناء دون بعض ينصف بخمسين دينارا والخدمة كررت هذا في أول اللوح وكذالك[كذا] من أخرجه وأبرزه للعامة سواء كانوا من أهل الحصن وغيرهم بلا مشورة الأمناء كلهم ينصف بخمسين دينارا ومن وقف ابنه من العمال يقوم مقامه مع العمال ويخرج عليه اللوح وهو في مقام أبيه بلا وكالة ولا امارة..."

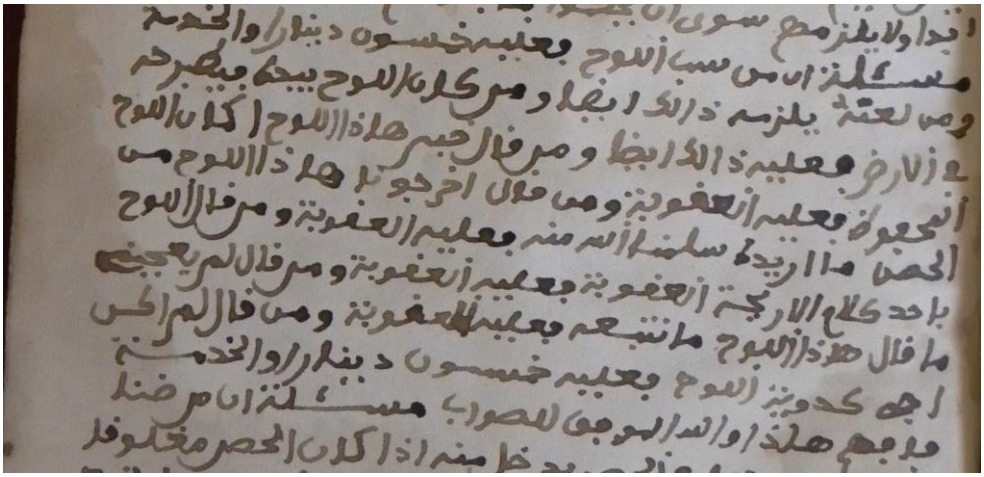

الوثيقة 3. *عقوبات من لم يحترم اللوح المكتوب*

" مسئلة إن من سَبَّ اللوح فعليه خمسون دينارا والخدمة ومن لعنه يلزمه ذلك أيضا ومن كان اللوح بيده فيطرحه في الأرض فعليه ذلك أيضا ومن قال خبر هاذا [هذا] اللوح أكان اللوح المحفوظ[17] فعليه العقوبة ومن قال اخرجونا [كذا]هذا اللوح من الحصن ما أريده سلمنا الله منه فعليه العقوبة ومن قال اللوح باحد كلام الاريحة العقوبة فعليه العقوبة ومن قال لم يعجبني ما قاله هاذا [هذا] اللوح ما نتبعه فعليه العقوبة ومن قال لم أكن اجي كدوبة اللوح فعليه خمسون دينارا والخدمة فافهم هاذا[هذا] والله الموفق للصواب."

[17] ربما معنى الجملة أن من قلل من قيمة اللوح وقال استفهاما " هل هذا اللوح مثل اللوح المحفوظ ".

مجلة أسيناگ- □□□□□□، العدد الحادي عشر، 2016، ص 55-74

السياق الاستعماري وتأثيراته على الوضع اللغوي بالمغرب

علي بنطالب

المعهد الملكي للثقافة الامازيغية

Étant au carrefour de diverses civilisations de par sa situation géographique, notamment son appartenance au pourtour méditerranéen et à l'Afrique, le Maroc a connu moult civilisations et populations venues de différents horizons, ce qui a créé, au fil des siècles, une culture diversifiée, fécondée par l'apport d'affluents de multiples horizons et profondément marqué par l'amazighité.

Le Maroc est un pays dont la diversité linguistique et culturelle constitue une caractéristique fondamentale, en même temps, un atout majeur. La diversité était source de richesse, de créativité et d'épanouissement. La diversité linguistique et culturelle du Maroc traverse son histoire. C'est ainsi que la langue et la culture amazighes, qui remontent à la préhistoire, se sont enrichies, depuis l'Antiquité jusqu'à nos jours, de divers apports civilisationnels.

Pendant la période contemporaine, le protectorat a engendré d'importantes mutations socioculturelles et linguistiques. La situation linguistique et culturelle au Maroc a connu des transformations fondamentales dans le contexte colonial, influencé par le protectorat. Cette situation avait aussi des répercussions différentes après l'indépendance.

La problématique générale qu'on souhaite développer dans le présent texte porte sur le contenu de la politique linguistique et culturelle de la France et de l'Espagne pendant la période coloniale, en se focalisant notamment sur les effets de l'enseignement et de l'apprentissage des langues sur la situation linguistique au Maroc, durant et après la colonisation. Cet article vise aussi à analyser le statut des langues dans tout le pays, en se basant principalement sur le contexte de l'ingérence étrangère et ses conséquences sur la situation linguistique au Maroc, pendant le protectorat et après l'indépendance

مقدمة

تميز الوضع اللغوي بالمغرب عبر تاريخه الطويل بالتنوع والتعدد، مع اختلاف في حجمه ومظاهره من عصر لآخر. وقد تداخلت في تشكيله عوامل ومؤثرات كثيرة، بفعل احتكاكه المستمر مع حضارات وشعوب وأقليات مختلفة.

وقد عرف الوضع اللغوي والثقافي بالمغرب تحولات جوهرية في إطار السياق الاستعماري المعاصر، متأثرا بالاحتلال الذي فرضته قوتان استعماريتان على البلاد، مع ما ترتب عن ذلك من انتشار لغات جديدة في أوساط المجتمع المغربي. كما كان لهذا الوضع تداعيات مختلفة خلال مرحلة الاستقلال.

يهدف هذا المقال إلى الوقوف عند تأثيرات السياق الاستعماري على واقع التعدد اللغوي بالمغرب خلال فترة الحماية، ورصد آثار المرحلة الاستعمارية على الوضع اللغوي بالمغرب. ويسعى إلى تحليل وضعية اللغات المنتشرة بالبلاد، والمكانة التي كانت تحتلها، وفق مقاربة تاريخية تركز أساسا على سياق التدخل الأجنبي وتداعياته على الوضع اللغوي بالمغرب، سواء خلال فترة الحماية أو بعد الحصول على الاستقلال.

1. تراكمات التعدد اللغوي بالمغرب

شكّل المغرب مجالا لالتقاء حضارات مختلفة، كما تعرض لاحتلال إمبراطوريات ودول متعددة. وترتبت عن ذلك آثار بارزة في المجالين الثقافي واللغوي. وقد شكلت التعددية اللغوية ظاهرة مغربية بامتياز، إذ أن هذا المعطى ارتبط بالمجال المغربي منذ القديم. وظلت هذه التعددية لازمة بالنظر إلى أن المجال المغربي شهد عبر تاريخيه الطويل توارد لغات وثقافات متعددة وتعايشها فوق أرضه وبين قاطنيه.

ويظهر من خلال تتبع المشهد الثقافي واللغوي بالمغرب القديم أن البعد الأمازيغي، الذي شكل اللبنة الأساسية لهذا المشهد، ظل يتفاعل مع التيارات الثقافية التي كان الحوض المتوسطي مسرحا لها. وذلك ما تجسد في تفاعله، بدرجات متفاوتة، مع مؤثرات خارجية حملتها معها العناصر الوافدة: الفينيقيون والوندال والرومان والبيزنطيون.

تأثر الوضع اللغوي بعد ذلك بشكل كبير بقدوم العرب إلى بلاد المغرب، حاملين معهم الدين الإسلامي الذي غيّر مجرى تاريخ البلاد، ذلك بأن "الإسلام أعاد صوغ المغرب وغير مجرى الحياة فيه، وفي بوتقته اعتمد العنصر البشري. فلم يترك للنزوع العرقي أي ظهور متميز

أو خصوصية بارزة، بعد أن وقع الاندماج على مر الحقب والأزمان...". (العروي، 1992، 115).

وهكذا دخلت اللغة العربية إلى المغرب مع مجيء الإسلام، وبدأت تنتشر شيئا فشيئا، وأضعفت وضع اللغات التي كانت موجودة في المغرب، مثل الإغريقية واللاتينية والفينيقية والعبرية وغيرها. وأصبحت لغة التأليف الرئيسة، ولغة تدريس العلوم وتلقينها. وقد تأثرت الأمازيغية بهذه التحولات، وقلّ التدوين بها، لكنها استمرت محافظة على مكانة متميزة في التواصل بين السكان.

وإذا كانت اللغة العربية قد تحركت على مستويات متعددة، في مجال الاستعمال الفصيح وفي المجالات الرسمية والأدبية والدينية والعلمية، فإن العربية العامية في المغرب لم تكن موحدة بالشكل الذي يسمح أن يفرض سيطرة نسق لغوي على غيره، وذلك لتنوع القبائل الوافدة إلى المغرب وتنوع أصولها ولهجاتها من جهة، ولوجود مؤثرات مختلفة تكيف مجال تأثرها، مثل الأثر الأندلسي في شمال المغرب، وأثر بني عبد الواد في الشرق، وأثر القبائل الأمازيغية في الوسط، إضافة إلى الأثر الصحراوي وأثر أفريقيا السوداء في الجنوب. (دنياجي، 2002، 33-34).

وإلى جانب الوجود الأمازيغي والعربي في المغرب، اللذين شكّلا ثوابت التعدد اللغوي بالبلاد، كان للوجود الإيبيري والأندلسي تأثير كبير في هذا المجال. فقد عملت الدولة الإسبانية على تهجير الموريسكيين وطردهم من شبه الجزيرة الإيبيرية، حيث قام فيليب الثالث، ابتداء من سنة 1609م، بطرد عدد كبير منهم (رزوق، 2013). وقد ذكر ابن خلدون أن حظ كل من المغرب وتونس كان قويا في استقطاب الأندلسيين، حيث "شاركوا أهل العمران مما لديهم من الصنائع، وتعلقوا بأذيال الدولة..." (ابن خلدون، المقدمة، 330). وقد توزعت أعدادهم على مجموع المغرب الكبير، وقصد العديد منهم مدن المغرب الأقصى، خاصة تطوان وفاس وسلا والرباط. وكان لهجرة هؤلاء إلى المدن المذكورة الأثر البالغ على الجانبين اللغوي والثقافي، حيث نقلوا معهم إرثهم الحضاري، واستمر العديد منهم في استعمال الإسبانية كلغة للتواصل.

وتبدو مظاهر الثقافة الأندلسية في مجالات مختلفة. وقد أشار ابن خلدون إلى جوانب منها في مجال الخط المغربي وفي الإدارة المغربية (ابن خلدون، المقدمة، 367). يضاف إلى ذلك تداول العديد من الأمثال الأندلسية في المغرب، كما أن كلمات كثيرة تضمنتها الكتابات الأندلسية لازالت مستعملة إلى اليوم (ابن شريفة، 1975، 123).

كما برز التأثير الإسباني في المغرب بعد طرد اليهود من إسبانيا. وعلى الرغم من قلة المعلومات التي تدفع إلى الاعتقاد بأنهم كانوا يجهلون العربية في معضمهم، فإن اللغة الإسبانية كانت هي لغتهم المستعملة، حيث استمر غالبيتهم في التواصل بها. ويظهر هذا من خلال النصوص المتبقية بخصوص يهود فاس، فقد كانت المعاملات التي تتم بينهم تحرر بالإسبانية (Zafrani, 1983).

وكان لاحتلال الإسبان والبرتغال، خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، عدة مدن على الساحلين المتوسطي والأطلسي بالغ الآثار. فبعد احتلال سبتة ومليلية هاجموا الشواطئ المغربية وأسسوا بها مراكز في كل من طنجة وأصيلا والعرائش والمعمورة وأنفا وأزمور وأسفي وأكادير. وكانت هذه المستعمرات عبارة عن حصون عسكرية ومراكز تجارية تتم عن طريقها المبادلات بين الأجانب وسكان المناطق المجاورة من المغاربة، واستمر هذا الاحتلال مدة طويلة، كانت له تأثيرات مختلفة في المجال اللغوي.

وتميزت الفترة الممتدة من القرن السابع عشر إلى حدود النصف الأول من القرن التاسع عشر بحدوث تحولات مجالية أثرت على واقع الخريطة اللغوية بالمغرب. فقد تحركت العديد من القبائل في اتجاهات مختلفة وغيرت من مواقعها، كما هو الحال بالنسبة لقبائل صنهاجة التي انتقلت من الأطلس الكبير الشرقي في اتجاه السهول خاصة الساحلية. (Boukous, 2006, 71-112).

وبذلك تكون هذه الفترة قد اتسمت بسيادة الثقافتين الأمازيغية والعربية داخل المجتمع المغربي، على الرغم مما تسرب إليهما من التأثيرات الإسبانية والبرتغالية. يضاف إلى ذلك وجود عدد من الأفارقة الذين قدموا من السودان مع حملة أحمد المنصور السعدي للعمل خصوصا بمعامل السكر التي أنشأها السلطان المذكور، حيث ساهموا في إغناء التنوع الثقافي واللغوي. بالإضافة إلى الدور الذي لعبه اليهود في إغناء هذا التعدد.

وقد دفع وجود هذه العناصر المختلفة والمتعايشة بالمجال الجغرافي المغربي إلى وجود ما يمكن تسميته بالخليط اللغوي، حيث تتحدث المعطيات التاريخية والاجتماعية عن وجود تجمعات مختلطة، أفرزت جزرا لغوية داخل إطار لغوي كبير، كما هو الحال في المغرب بنواحي الصويرة وبلاد السوس (دنياجي، 2002، 33).

ومنذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر أصبحت البلاد معرضة لتأثيرات خارجية في جميع المجالات، فالاحتلال الفرنسي للجزائر سنة 1830 حتّم على المغرب نوعا من التعامل مع الوضع الجديد (Brignon, 1967, 284). وأدت المعاهدات الموقعة مع كل من

بريطانيا سنة 1856، وإسبانيا سنتي 1860–1861، وفرنسا سنة 1863، بالإضافة إلى نتائج مؤتمر مدريد سنة 1880، إلى تزايد عدد الأجانب بالبلاد. كما تزايد عدد المحميين والمخالطين والسماسرة الذين كان لهم ارتباط بالأجانب (Miége, 1963). بالإضافة إلى ذلك أوفدت الدولة خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر مجموعة من الشبان المغاربة إلى بعض الأقطار الأوربية للتعلم والتشبع بالتقنيات العصرية في شتى الميادين، مع ما حمله ذلك من الانفتاح على لغات أجنبية، خاصة وأن هؤلاء الشبان كانوا يعودون إلى المغرب بعد استكمال تكوينهم بالخارج.

شكل القرن العشرون منعطفا كبيرا في تاريخ المغرب، حيث شهدت كل الأنظمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية تحولات كبيرة (بوطالب، 2006، 22). وسيشهد الوضع اللغوي دخول لغات جديدة مع وقوع المغرب تحت سيطرة الاستعمارين الفرنسي والإسباني، مكرسا بذلك واقع التعدد اللغوي بالبلاد.

2. واقع التعدد اللغوي بالمغرب خلال فترة الحماية

فرضت فرنسا حمايتها على البلاد في 30 مارس 1912، واتفقت مع إسبانيا بموجب معاهدة 27 نونبر 1912 على أن تحتل هذه الأخيرة القسمين الشمالي والجنوبي، الأمر الذي أدى إلى حدوث تحولات في الوضع اللغوي بالبلاد. وقد ركزت السياسة اللغوية للمستعمرين الفرنسي والإسباني بالمغرب على دعم لغتيهما، في إطار السياق الاستعماري العام في تلك الفترة، على الرغم من اختلاف السياسة اللغوية لكل معمر من بلد لآخر ومن منطقة لأخرى.

- **فرض اللغة الفرنسية ودعمها**

سعى الاستعمار الفرنسي لترسيخ اللغة الفرنسية لتصبح في ما بعد اللغة الأجنبية التي تحظى بحق الأفضلية في المستعمرات المتحررة، كما سعت السلطات الاستعمارية الفرنسية لتحويل هذه اللغة إلى جزء من كيان المستعمرات. وفي هذا الصدد يقول عبد الهادي التازي: *"الفرنسية دخلت إلينا في المغرب عن طريق مستعمر ذكي جدا، عرف كيف يغرس لغته داخل البيوت، وهو ليس مثل الاستعمار الإنجليزي الذي كان يكتفي بالوقوف عند البوابات بالخارج ليحصل على الإيرادات والجمارك والبترول"* (التازي، 2000، 505).

وفي السياق نفسه، أشار مارك بلانبان Blancpain إلى أهمية اللغة الفرنسية بالنسبة لسكان المستعمرات، وحاجتهم إليها بقوله: *"إن الأمر لا يتعلق هنا بتعويض لغة بأخرى أو توفير آلية ثقافية إضافية، أو انفتاح جديد على العالم أو إغناء للروح، ولا حتى بمساعدة خارجية، فالمسألة تخص مساهمة يطلبها في غالب الأحيان أناس يودون أن يشيدوا عن طريق لغتنا ثقافتهم الخاصة وحضاراتهم الأصلية"* (Blancpain, 1967).

وهكذا اتبع الفرنسيون سياسة لغوية ممنهجة، حيث عمدوا إلى خلق نوع من المواجهة بين اللغة الفرنسية واللغات المحلية، وذهبوا من خلال ذلك إلى اختلاق علاقة بين درجة التقدم الحضاري واللغة المستعملة، حيث كرست فكرة "اللغات المتقدمة" و"اللغات المتخلفة". وكانت تهدف إلى إثبات أنه لم يكن لكل اللغات نفس القيمة، وأن هناك لغات أقل شأنا من أخرى. وبذلك تمت مواجهة اللغات الأوربية بلغات العالم الثالث، وهذه المواجهة لعبت دورا مهما في إطار الإديولوجية الاستعمارية آنذاك". (Calvet, 1987, 75)

ولعل نجاح أي سياسة لغوية مرهون بوضع سياسة تعليمية مواكبة لها تقوم بتنفيذها. ولذلك ركز الحكام الفرنسيون بالمغرب، والأبحاث المرتبطة بالاحتلال الفرنسي، على المكانة الهامة للتعليم في تثبيت السياسة اللغوية الفرنسية وتحقيق الأهداف الاستراتيجية للمحتل. (Paye, 1992).

وفي هذا السياق، عملت فرنسا على تكريس سياستها اللغوية بالمغرب عن طريق التعليم، وقسمته إلى تعليم خاص بالعامة، يتكون من المدارس الحضرية والمدارس المهنية والمدارس القروية والمدارس الجهوية. وتعليم خاص بالنخبة، ويتكون من "مدارس أبناء الأعيان" و"الثانويات الإسلامية". وحظيت اللغة الفرنسية بالنصيب الأوفر من مواد وساعات التدريس. وفي خضم ذلك برز نوع من الصراع بين منظومتين تربويتين، كانت له تداعيات مباشرة على تطبيق السياسة اللغوية الفرنسية ومدى قابلية المغاربة لها، ويتعلق الأمر "بمنظومة 'أهلية' تتميز بتجذرها في المجتمع وبدورها الحفاظي حيث تؤمن التوازن الاجتماعي والاستمرار الثقافي، ومنظومة أجنبية تفرض نفسها بالقوة في إطار عملية احتلال– عصرنة ثقافية". (المروني، 1996، 13).

وكانت السياسة اللغوية الفرنسية تعمل على تلبية الحاجيات، خاصة المستعجلة منها، في المجال اللغوي، فقد كان جهاز الحماية في حاجة إلى مترجمين قادرين على تبليغ مفاهيم العربية والأمازيغية والفرنسية للمغاربة والفرنسيين، ولذلك أنشأ سنة 1912 "مدرسة عليا

للغة العربية واللهجات البربرية"[1] تحولت سنة 1921 إلى "معهد الدراسات المغربية العليا". وكان عليه أن يستجيب للمتطلبات التعليمية لأبناء المعمرين الأوربيين، وهم كثيرون، لذلك أنشأ سنة 1912 مصلحة للتعليم ستتطور فيما بعد إلى "مديرية للتعليم العمومي". وكان أيضا في حاجة إلى أعوان ووسطاء مغاربة يساعدونه على غرس وتوطيد النظام الجديد، ولذلك خلق "مصلحة التعليم الفرنسي الإسلامي" التي أسند إليها مهمة إعداد هؤلاء الأعوان والوسطاء. (المروني، 1996، 15).

وبذلك، فإن إدخال التعليم الاستعماري كان له الأثر العميق على المجال اللغوي بالمغرب، إذ أصبح العديد من المغاربة مقتنعين بضرورة تعلم اللغات الأجنبية للتأقلم مع الوضع الجديد. وهذا ما عبر عنه محمد بن الحسن الحجوي، وزير المعارف سنة 1921 بقوله: *"... لا يتيسر ترقية التجارة والفلاحة والصناعة إلا بمعرفة لغة أجنبية فلا سبيل إلى هذه العلوم التي هي المقصود بالرقي والتمدن، إلا بمعرفة اللغة الأجنبية..."* (الحجوي، 1921). كما نجد الوزير عبد الله الفاسي يولي أهمية كبيرة للغة الفرنسية حيث يقول: *"... ويكفي عنوانا على رفعة قدر هذه اللغة أنها لسان السياسة وعليها المدار عندهم والمعول..."* (اليزيدي، 2005، 455). ذلك بأن الأعيان المغاربة ارتأوا أن مصلحة أطفالهم ومستقبلهم مرتبطة بشكل وطيد بالتكوين والشهادات التي تمنحها المدارس الفرنسية، مع ما يحمله ذلك من الانبهار بثقافة ولغة المستعمر، وتوفير سبل الحصول على مناصب عليا داخل البلاد.

إلى جانب التعليم، دأبت سلطات الحماية على استعمال اللغة الفرنسية في إنجاز مختلف الوثائق والتقارير والمراسلات الإدارية، ومثلت الفرنسية اللغة الرسمية لسلطات الاحتلال طوال فترة تواجدها بالمغرب. ويعكس الأرشيف المغربي بفرنسا الأهمية التي أولتها الإقامة العامة للغة المستعمر على حساب اللغات المتداولة بالبلاد، حيث أن معظمه مكتوب باللغة الفرنسية.

[1] صدر القرار المؤسس للمدرسة العليا للغة العربية وآدابها ودراسة الأمازيغية في 15 نونبر 1912. وقد حددت دوافع هذا التأسيس في اعتبارين اثنين: الأول هو تشجيع الأوربيين المقيمين في الإمبراطورية الشريفة على تعلم اللغتين العربية والأمازيغية. والثاني وهو أن الضرورة صارت تحتم على موظفي إدارة الحماية أن يكونوا على دراية بلهجات وأعراف البلاد. فطبقا لتلك الرؤية، جعل الفرنسيون من دراسة العربية والأمازيغية مدخلا رئيسيا لفهم المجتمع المغربي، وأداة لدراسة مؤسساته الاجتماعية والسياسية والدينية. (حسن، كمال 2002، 109).

- **مكانة اللغة العربية الفصحى**

كانت اللغة العربية الفصحى اللغة الرسمية للبلاد منذ التحولات التي شهدها المغرب مع قدوم العرب حاملين معهم الإسلام إلى بلاد المغرب. وتكريسا لهذا الواقع، أكد أول مشروع دستور شهدته البلاد سنة 1908 على ما يأتي: "لا يجوز أن يتولى أُمّي وظيفة من وظائف المخزن على الإطلاق، فعلى الموظف أن يكون عارفا باللغة العربية قراءة وكتابة حق المعرفة". وبذلك أكد أصحاب هذا المشروع بأن الإلمام باللغة العربية يشكل ضرورة ملحة بالنسبة لشغل الوظائف المخزنية، ولم تتم الإشارة إلى اللغة الأمازيغية في هذا المشروع، ولا إلى أية لغة أجنبية[2].

وعلى الرغم من الأهمية التي منحها أصحاب أول مشروع دستوري بالمغرب للغة العربية، إلا أن مكانتها الوظيفية في المجتمع كانت ضعيفة، فلم تكن تستعمل في التواصل اليومي بين ساكنة البلاد، وكانت اللهجات العربية بفصائلها المختلفة، والأمازيغية بلهجاتها الثلاث (تاريفيت، وتامازيغت، وتاشلحيت)، هي التي تقوم بهذا الدور. وهذه الوضعية، الخاصة بضعف استعمال اللغة العربية الفصحى في التواصل اليومي بين السكان، لم تكن وليدة الوضع اللغوي حينئذ، بل لها جذور تاريخية قديمة، حيث أشار ابن خلدون إلى أن العرب بالمغرب وإفريقية قد *"خالطت البرابرة من العجم بوفور عمرانها بهم... فغلبت العجمة فيها على اللسان العربي الذي كان لهم، وصارت لغة أخرى ممتزجة والعجمة فيها أغلب... فهي على اللسان الأول أبعد..."*. (ابن خلدون، المقدمة، 559)

وفي إطار السياق الاستعماري المعاصر، تضررت اللغة العربية الفصحى بسياسة سلطات الحماية الهادفة إلى دعم وتوطيد اللغة الفرنسية على حساب اللغة العربية، خاصة تقليص عدد ساعات التدريس بها، وإعطاء حيز أكبر للغة الفرنسية (Quitout, 2007, 48–56). وقد نهجت سلطات الاحتلال الإسباني بالشمال سياسة مماثلة.

وظل استعمال اللغة العربية، خلال مرحلة الحماية، محصورا لدى بعض المثقفين وعلماء الدين على الخصوص، إذ شكلت لغة التأليف بالنسبة لبعضهم.

[2] هو أول مشروع دستور شهدته البلاد، أصدرته جماعة لسان المغرب، راجع بخصوصه: (غلاب، 1988، 294). (بنطالب، 2010، 170)

- **وضع اللغة الأمازيغية**

تعتبر اللغة الأمازيغية، بفروعها المختلفة، أقدم لغة موجودة بالمغرب. وكانت لها أهمية وظيفية بالغة خلال فترات مختلفة من تاريخ البلاد، يكفي أن نشير إلى أن الموحدين اشترطوا في خطباء الجمعة أن يتقنوا اللسان الأمازيغي، ليقربوا عقيدة زعيمهم الروحي المهدي بن تومرت، في التوحيد، إلى أذهان المغاربة (أبن أبي زرع، 1999، 87). وعلى الرغم من تعريب مناطق مهمة من البلاد مازالت الأمازيغية لغة حية، حيث يتحدثها عدد كبير من المغاربة ويستعملونها في تواصلهم اليومي.

وهكذا كانت الأمازيغية تنتشر بمعظم مناطق البلاد، بحسب منوعاتها اللسانية الثلاثة. فتاريفيت كانت تسود بشمال المغرب في الريف ما بين الناظور والحسيمة إلى حدود تازة. ومن القبائل المهمة التي تتحدث بها: إبقوين، آيت ورياغل، تمسمان، آيت توزين، اكَزناين، آيت يزناسن...إلخ. كما تسود في مدن الناظور والحسيمة ومليلية وبركان.

أما تامازيغت فكانت تنتشر في المنطقة الوسطى التي تتضمن أغلب مناطق الأطلس المتوسط والأطلس الكبير وفي بعض المناطق شبه الصحراوية، وأهم القبائل الناطقة بها: آيت وراين، وآيت سغروشن، وزمور، وكَروان، وآيت مكَيلد، وزيان، وآيت شخمان، وآيت عطا، كما تهيمن بمجموعة من المناطق الحضرية مثل أزرو وصفرو والحاجب وخنيفرة والخميسات وبولمان والرشيدية وكَولميمة.

وتسود تاشلحيت بالجنوب الشرقي المغربي وخصوصا بالأطلس الكبير الغربي والأطلس الصغير وسهل سوس. ومن القبائل الكبرى الناطقة بها: إحاحان، وإداوتانان، وأشتوكن، وآيت بعمران، وإلبنسيرن وإمتوكَا... وبالجنوب آيت واوزكَيت وإندوزال... وأهم المدن التي تسود فيها: أكَادير وتيزنيت وتارودانت وإنزكَان وورزازات والصويرة.

وعلى الرغم من المكانة التي حاولت السلطات الاستعمارية إعطاءها للغة الفرنسية، واستعمال اللغة العربية الفصحى خاصة في مجال التأليف، إلا أن الأمازيغية كانت لغة تخاطب شرائح كبيرة من المجتمع المغربي خلال فترة الحماية، إلى درجة أن العديد من الضباط الفرنسيين عملوا على تعلمها حتى يسهل عليهم التواصل مع الناطقين بها، كما هو الحال مثلا بالنسبة للقبطان جورج سبيلمان G. Sppilman، أو "القبطان الشلح"، كما يلقب بذلك نظرا لدرايته باللغة الأمازيغية.

ولعل أهم ما ميز سياسة سلطات الحماية على المستوى اللغوي إنشاؤها لمدارس فرنسية أمازيغية خاصة في منطقة الأطلس المتوسط[3]. ذلك أن الصعاب التي واجهها الفرنسيون في احتلال القبائل الأمازيغية، والمقاومة العنيفة التي تميزت بها هذه القبائل، حتمت عليهم التعجيل لإنشاء بعض المدارس، أملا في استمالة السكان الأمازيغ والاهتمام بلغتهم.

وكان من أهم أهداف إنشاء هذه المداس أن يتلقى أبناء الأمازيغ تعليماً تطبيقياً في الفلاحة، وبعض المبادئ الأولية في الحساب، والصحة، واللغة الفرنسية، وقراءة الأمازيغية وكتابتها بالحرف اللاتيني. لكن الأولوية في هذا النوع من التعليم أعطيت لتعليم اللغة الفرنسية التي حظيت بمكانة في غاية الأهمية.

وبعد النجاح المحقق في اعتماد العديد من المدارس على مستوى الابتدائي، ارتقى التفكير بالسلطات الفرنسية إلى إنشاء ''ثانوية أزرو البربرية'' سنة 1930م. حيث استجاب تأسيسها "لرغبة سلطات الحماية في العمل على تسريب التأثير الفرنسي إلى الجبال الأمازيغية التي واجهت الفرنسيين بشراسة، وذلك بالمراهنة، خصوصا، على استقطاب أبناء الأعيان في المناطق الخاضعة حديثا، والمساهمة في تكوين أطر أهلية مستقبلا. وتشير الوثائق الفرنسية إلى الصّعاب التي واجهت التلاميذ في تعلم العربية، لكون لغتهم الأم ولغة التواصل اليومي في وسطهم كانت هي الأمازيغية، وعدم ارتياد معظمهم للكتاتيب القرآنية". (بوكبوط، 2007، 177).

ويمكن القول بأن هذه التجربة فشلت، لأنها عملت بشكل عام على توجيه الأمازيغ نحو التعليم الفرنسي، ولم تعتمد اللغة الأمازيغية في التدريس. وهكذا لم تتمكن السلطات الفرنسية من تحقيق الأهداف التي رسمتها من خلال إنشاء ثانوية أزرو "البربرية". فالسلطات الاستعمارية لم تستند إلى تحليل موضوعي، وارتكبت العديد من الأخطاء المرتبطة أساسا بعدم فهمها العميق للحركية التاريخية للمجتمع المغربي. كما أن الغزو الفرنسي وما رافقه من عنف للمناطق الأمازيغية لم يَنْمَحِ من الذاكرة الجماعية للأمازيغ.

وبالرغم من ذلك، تمكن الفرنسيون من تكوين نخبة أمازيغية، مدنية وعسكرية، كان لها تأثير في العديد من المجالات، بما فيها المجال اللغوي (Benhlal, 2005). وساهم اهتمامهم

[3] تجدر الإشارة إلى أن المدارس الأمازيغية لم تكن مدارس خاصة لتدريس اللغة والثقافة الأمازيغيتين، بل ارتبطت بالمفهوم والأهداف ومحتوى البرامج الدراسية التي حددها الفرنسيون لها، فكانت مدارس فرنسية قبل أن تكون مدارس أمازيغية. إنها باختصار مدارس أمازيغية بالنظر للوسط الذي أنشئت فيه، والتلاميذ المراد تدريسهم، مع اهتمامها ببعض جوانب الثقافة الأمازيغية.

ببعض أوجه الثقافة الأمازيغية في الحفاظ على جوانب من تراثها وثقافتها. ويعكس أرشيف أرسن رُو (A. Roux) الموجود بإكس- إن- بروفانس Aix-en-Provence بفرنسا بعض أوجه الثقافة واللغة الأمازيغيتين اللتين اهتم بهما الفرنسيون بالمغرب[4].

- **العامية المغربية**

تعتبر العامية المغربية لغة تخاطب نسبة كبيرة من المجتمع المغربي. وهي تؤدي دورا وظيفيا فيه، حيث تستعمل بكثرة في التواصل في الحياة اليومية. كما تشكل العامية مجالا لتوارد الأمازيغية والعربية، وذلك باحتوائها على قاموس ينتمي لكلا اللغتين. (شفيق، 1999، 5-14).

وعلى الرغم من واقع التعدد اللغوي الذي ترتب عن توافد وتلاقي حضارات ولغات مختلفة بالمغرب، إلا أن العامية ظلت الأكثر انتشارا بالبلاد، ولا زالت كذلك، إلى جانب اللغة الأمازيغية. ذلك أنها شكلت النقطة التي يلتقي فيها أغلب المغاربة من الناطقين بلغات ولهجات مختلفة، فاللسان العربي الدارج لسان وسط، يجمع بين مجموعة من الاختلافات اللغوية، ويشكل حدا وسطا للتفاهم بين مجموعة من اللغات المنشرة بالمجال المغربي. (Boukous, 1995, 20)

ونظرا لعدم إتقان العديد من المقاومين والمناضلين للغتين العربية والفرنسية خلال مرحلة النضال الوطني ضد الاستعمار، فقد كانوا يستعملونها في تدوين أشعار وقصائد ورسائل متعددة، كما يتجلى ذلك من خلال العديد من الوثائق المحفوظة بالأرشيف المغربي الموجود خارج البلاد.

- **اللغة الإسبانية**

لم ينجح الاستعمار الإسباني في سنّ وبلورة بُعد لغوي عميق في سياسته اللغوية والثقافية، كما كان الشأن بالنسبة للاستعمار الفرنسي. بيد أن طول فترة الاحتلال، وأهمية الإجراءات الثقافية واللغوية المصاحبة له، وهجرة العديد من ساكنة المناطق الريفية، خاصة

[4] يضم هذا الأرشيف معطيات لغوية وتاريخية ومخطوطات وقصائد شعرية هامة ترتبط بالثقافة الأمازيغية، جمعها أرسن رُو (Arsène Roux) خلال فترة اشتغاله الطويلة بالمغرب، وتوليه لمنصب مدير ثانوية أزرو منذ تأسيسها إلى غاية سنة 1935. وقد توفي سنة 1971.

خلال الحرب الأهلية الإسبانية، كل ذلك ساهم في انتشار اللغة الإسبانية في المناطق الشمالية من البلاد.

كما لعبت سلطات "الحماية" الإسبانية دورا عظيما في التأثير على التنوع الثقافي واللغوي بالمغرب. وساهمت بشكل كبير في حدوث تحولات لغوية وثقافية في شمال المغرب وجنوبه، لاسيما مع تعدد إصدار الصحف والمجلات التي كان دورها حاسما في انتشار اللغة الإسبانية بتلك المناطق. ومما يعكس درجة التأثير الذي مارسته اللغة الإسبانية في المناطق الشمالية استعمالها بشكل يومي ومتواصل في بعض المراكز الحضرية على الخصوص، واندماج مفردات ومصطلحات إسبانية ضمن لغة تخاطب وتواصل ساكنة المنطقة، أي الأمازيغية (تاريفيت).

أما بعد الاستقلال، فقد تناقص استعمال اللغة الإسبانية، ولم توليها السياسة اللغوية للمغرب أهمية قصوى، حيث لا يتم تدريسها إلا ابتداء من السنة الأولى من التعليم الثانوي، ولمدة ثلاث سنوات فقط، شأنها في ذلك شأن اللغة الإنجليزية والألمانية والروسية والإيطالية.

غير أن الملاحظ أن الإسبان اهتدوا، في السنوات الأخيرة، إلى رغبة شرائح اجتماعية مغربية كبيرة في تعلم اللغة الإسبانية لغرض الهجرة أو لمتابعة الدراسة. وتبعا لذلك، وسّعت البعثات الثقافية الإسبانية مشاريعها الثقافية واللغوية في عدة مدن، بل ورفعت من وتيرة دعمها للتظاهرات الثقافية والفنية، خاصة بعد أن أحسّت بخطر اللغة الفرنسية التي أصبحت في طريقها إلى الهيمنة على مناطق الشمال، لا سيما بعد إحداث مركزين ثقافيين فرنسيين في كل من مدينتي طنجة وتطوان (كنكاي، 2009، 23).

- **اللغة الحسانية**

تدعو الحاجة لاستكمال الخريطة اللغوية المغربية إلى ضرورة إضافة معطى لغوي آخر وأخذه بعين الاعتبار؛ يتعلق الأمر باللغة الحسانية التي هي مزيج من العربية والأمازيغية وبعض المؤثرات الإفريقية الجنوبية (دنياجي، 2002، 44). وتتميز الحسانية بشساعة الفضاء الذي تشغله، ويتم تداولها –فضلا عن منطقة الرحامنة وأولاد الدليم– في الأقاليم الصحراوية: طانطان، وكَلميم، وسيدي إفني، والعيون، والساقية الحمراء، والداخلة، وبوجدور، ولكَويرة، وتمتد إلى شنكَيط المعروفة حاليا باسم موريتانيا، حيث تتقاطع مع اللغات الإفريقية (الولوف، والآزر، والسنغاي). (كريم الله، 2009، 136).

وهكذا شكلت الحسانية لغة التواصل الرئيسة لسكان المناطق الصحراوية. ونظرا لأن هذا المجال تعرض للاحتلال الإسباني، فقد تأثر قاموسه اللغوي باستعمال بعض المصطلحات ذات الصلة باللغة الإسبانية. إلا أن سكان المنطقة ظلوا على العموم متشبثين باستعمال لغتهم المحلية قبل فترة الاحتلال وخلالها وبعدها.

- **اللغة العبرية**

تظهر آثار الوجود العبري واضحة في صلب تاريخ المغرب (Zafrani, 1983). ذلك أن المجموعات العبرية التي دخلت إلى المغرب لم تحاول الاصطدام بالمغاربة، بل كان جل همّها هو البحث عن بلد آمن.

وعلى الرغم من هجرة اليهود المبكرة إلى المغرب والتي سبقت مجيء العرب إليه، فإن الانغلاق الذي كان يحكم العلاقات اليهودية وباقي سكان المغرب جعل عملية التأثر والتأثير نادرة بين لغة اليهود (عبرية أو عربية كانت أم آرامية) واللغة الأمازيغية. علاوة على هذا، ظل احتكاكهم بالأمازيغ إلى حدود العصر المريني ضعيفا غير قوي. (دنياجي، 2002، 41).

غير أن الاستقرار طويل الأمد لليهود بالمغرب، وطبيعة الأنشطة التي كانوا يزاولونها والتي فرضت عليهم التواصل مع السكان، كان له بالغ التأثير في إغناء التعدد اللغوي بالمغرب، فمنهم من كانت له جذور عريقة في البلاد، وكان يتحدث إما بلغة أهل البلد أو بالعبرية، ومنهم من استوطن المغرب هروبا من الاضطهاد المسيحي في إسبانيا، فتحدث لغة عربية ممزوجة بالإسبانية. من هنا نستنتج أن مظاهر الائتلاف لا تخفي مظاهر التعدد والاختلاف، كما ذهب إلى ذلك بعض الباحثين. (بوطالب، 2006، 21-54).

انصب اهتمام الإقامة العامة خلال مرحلة الحماية على تعليم الأوربيين واليهود المغاربة، إذ خلق لهم النظام الجديد نوعين من التعليم: "تعليم أروبي" على غرار التعليم الموجود بفرنسا آنئذ؛ وتعليم "فرنسي إسرائيلي" مقتبس من التعليم الفرنسي، لكن يحتوي زيادة على ذلك على حصص للغة والثقافة العبريتين. (المروني، 1996، 15).

وتظهر آثار استعمال اللغة العبرية بالملاّح الذي كان يقطنه اليهود في العديد من المدن المغربية. ولازالت الذاكرة الجماعية تحتفظ بعادات اليهود وطقوسهم، بل نتج عن استقرارهم الطويل بالمغرب تراث عبري متميز.

نخلص من كل هذا إلى القول بأن مرحلة الحماية الفرنسية كان لها تأثير كبير على التعدد اللغوي بالمغرب، إذ أصبحت بموجبه اللغة الفرنسية لغة أجنبية مهيمنة على المشهد اللغوي خلال هذه الفترة. كما ساهمت الحماية الإسبانية أيضا في حدوث تحولات لغوية وثقافية في شمال المغرب وجنوبه، حيث انتشرت اللغة الإسبانية في هذه المناطق، خاصة بالمراكز الحضرية.

وساهم في إغناء التنوع اللغوي بالمغرب ظهور صحف ومجلات ناطقة باللغتين الفرنسية والإسبانية، بالإضافة إلى الصحف العربية، بينما استمر وضع الأمازيغية كلغة تواصل لفئات عريضة من المجتمع المغربي. وترتب عن فترة الحماية أيضا دخول مصطلحات فرنسية وإسبانية ضمن منظومتي اللغتين الأمازيغية والعربية. وموازاة مع ذلك، اتسم المشهد اللغوي بالمغرب بوجود لغات ولهجات متعددة، مثل الحسانية والعبرية والعامية المغربية. الأمر الذي أفضى بالوضع اللغوي، الذي ترتب عن السياق الاستعماري، إلى حدوث تداعيات مختلفة به خلال مرحلة الاستقلال.

3. تداعيات السياق الاستعماري على الوضع اللغوي خلال فترة الاستقلال

بعد مسار المقاومة والتحرر من سيطرة الاستعمار، طرحت مسألة اللغة نفسها بحدة، فتضاربت الآراء بين متعصب للغة المستعمر، وبين رافض لها، وبين من حاول أن يوفق بين الموقفين. وقد ذهب بعض المدافعين عن اللغة العربية إلى المطالبة بنبذ كل ما هو آت من خارج النطاق العربي. وكانت التوجهات الإيديولوجية المختلفة تلقي بظلالها على هذا النقاش، ذلك أنه بعد تصفية الاستعمار بدأت معارك إديولوجية سعى فيها كل طرف للانتصار لمذهبه، وكانت مسألة اللغة والثقافة من أهم الجبهات في هذه المعركة ولازالت كذلك. (زروق، 2002، 73).

وكان الفرنسيون قد هيأوا نخبة للدفاع عن مصالحهم بالمغرب، ومن جملتها مسألة اللغة والثقافة الفرنكفونية. وبعد حصول المغرب على الاستقلال أصبح من الضروري تحقيق الوحدة اللغوية والثقافية، والتحرر من الهيمنة الثقافية للاستعمار. وقد أدرك الجميع أن تحقيق هذا المبتغى يتطلب القيام بإصلاح النظام التعليمي الذي خلفه الاستعمار. (غرانغيوم، 2011، 20).

ولم يكن أمر إصلاح النظام التعليمي، وما يرتبط به من إشكال لغوي وثقافي، هينا بعد الاستقلال. فقد كان من أهم نتائج إدخال التعليم الاستعماري بالمغرب ظهور ازدواجية

ثقافية على صعيد المجتمع. حيث انقسمت النخبة المثقفة إلى فئتين مختلفتي التوجه والمواقف من الإشكال اللغوي بالمغرب: فئة تلقت تكوينها بالتعليم الأصيل، وفئة تكونت من نظام التعليم العصري. وقد تولدت عن هذه الوضعية اختلافات وصراعات كان لها أثر ملموس على تطور النظام التعليمي بعد الاستقلال. (المروني، 1996، 29).

وكان من تداعيات مرحلة الاستعمار، وطبيعة النخب التي أفرزتها، أن اللغة الفرنسية أصبحت تحتل مرتبة متميزة في المغرب، إذ أنها تدرس في المراحل الأولى من التعليم الأساسي إلى نهاية التعليم الجامعي، وتستعمل كلغة التدريس في كليات الآداب والعلوم والطب والهندسة وغيرها. كما تستعمل في مجالات مختلفة إدارية واقتصادية وثقافية. وهي بهذا في تنافس دائم مع اللغة العربية. كما أن استعمالاتها تتفاوت من طبقة اجتماعية لأخرى ومن جهة لأخرى، حيث تعرف انتشارا أكثر في المناطق التي كانت تحت سيطرة الاستعمار الفرنسي (غرانغيوم، 2011، 61-68).

وأدى تدريس اللغة الفرنسية في المراحل الأولى من التعليم في أغلب الأحيان إلى ظهور ازدواجية بين اللغة العربية الفصحى والفرنسية من جهة، وبين الأمازيغية والفرنسية وبين العامية المغربية والفرنسية من جهة أخرى، حيث يلاحظ دخيل مهم من هذه اللغة في اللغات واللهجات المغربية، خاصة في المناطق التي كانت خاضعة للنفوذ الفرنسي. (شامي، 2002، 60).

وهكذا، أصبح الواقع اللغوي، بعد حصول المغرب على الاستقلال، مخالفا تماما لما كان عليه الأمر سنة 1912. لقد كان المغرب في مطلع القرن العشرين يعرف سيادة الثقافتين الأمازيغية والعربية، مع طغيان الأمازيغية كلغة شفوية والعربية كلغة كتابية. وبعد الاستقلال انتشرت الفرنسية داخل هياكل الإدارة المغربية، وساعد على ذلك طبيعة التكوين الذي فرضته فرنسا على المغاربة خلال فترة الحماية. هذا في الوقت الذي تقلص فيه مجال الإسبانية بشكل كبير بعد استرجاع المناطق التي كانت محتلة من طرف الإسبان. (بوكوس، 1982، 29-26).

ويمكن القول بأن فترة ما بعد الاستقلال اتسمت باستعمال الأمازيغية والدارجة المغربية كلغتين للتواصل على المستوى الوطني. وفي الوقت الذي تم فيه تهميش اللغة الأمازيغية من طرف الحكومات المتعاقبة بالمغرب (Grandguillaume, 1983)، أصبحت العربية الفصحى لغة رسمية للبلاد، واعتبرت الفرنسية والإنجليزية والإسبانية كلغات الاقتصاد والعلم.

كما ساهمت سياسة التعريب وإقصاء الأمازيغية من التعليم في تقليص مجالاتها وتعريب الناطقين بها، خاصة الأطفال.(بوكوس، 2003، 55-63).

هذا الوضع اللغوي الذي عرفه المغرب أنتج وضعا متسما بالتعددية، خاصة بالنسبة للمتعلمين الذين يدرسون بعدة لغات في المدارس والمعاهد والجامعات. وإذا كان هذا التعدد مصدر غنى للمشهد الثقافي واللغوي بالمغرب، إلا أنه طرح بعض المشاكل التي همت ملاءمة النصوص القانونية بالواقع اللغوي، ومن بينها أن اللغة العربية الفصحى، وإن كانت اللغة الرسمية للبلاد، إلا أنها ظلت لغة يتم تعلمها في المدارس، ولا تستعمل في التواصل اليومي بين السكان، حيث يبقى استعمالها محصورا في التعليم، ووسائل الإعلام، والمساجد، والمنتديات الثقافية، وغيرها من المواقف الرسمية. (شامي، 2002، 58-62).

وعرفت السنوات الأخيرة عدة تحولات أثرت في السياسة اللغوية بالمغرب، بسبب ظهور عدة أفكار وأطروحات سياسية واجتماعية وثقافية بنيت أساسا على المقاربة اللغوية والهوياتية. وفي هذا الإطار، يمكن استحضار النقاش الذي عرفته الساحة المغربية فيما يتعلق بوضع ومستقبل اللغة الأمازيغية، الشيء الذي أسفر عن إنشاء المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، وما تلا ذلك من قرارات تهم تدريسها في كل أسلاك التعليم. كما عرفت الساحة الثقافية والسياسية نقاشا بخصوص وضع اللغة العامية (الدارجة)، وما يجب أن تكون عليه نظرا لمكانتها الاجتماعية باعتبارها أداة للتواصل اليومي الأكثر استعمالا. وموازاة مع كل هذا، أصبح وضع اللغة العربية وضعا خاصا، وكثر الحديث عن محدوديتها في الاتصال، وعما أصابها من ضعف من خلال قلة استعمالها مقارنة بالعربية المغربية (كنكاي، 2009، 22-23).

وعلى الرغم من أن الدستور المغربي الجديد لسنة 2011 أقر بترسيم اللغة الأمازيغية إلى جانب اللغة العربية، فإن تداعيات مرحلة الحماية لازالت تخيم بظلالها على الواقع اللغوي بالمغرب في الوقت الراهن، فالقوانين شيء والواقع شيء آخر. ذلك أن الفرنسية لازالت تحتفظ بمكانة متميزة في التعليم والإدارة المغربيتين، وهو الأمر نفسه بالنسبة للغة العربية، بينما لازالت العامية المغربية والأمازيغية لغة تواصل معظم سكان المجتمع المغربي، في الوقت الذي تستمر فيه جهود إدماج اللغة الأمازيغية في المنظومة التعليمية، تنفيذا لمقتضيات الدستور الجديد، الذي شكل نقطة تحول هامة في المشهد الثقافي واللغوي من خلال تكريسه لواقع التعدد اللغوي بالبلاد.

الخلاصة

سمح تتبع الخطوط العريضة للوضع اللغوي بالمغرب عبر التاريخ بالتأكيد على أن الطابع التعددي معطى يخترق تاريخ المغرب، إذ تشكل على أرضه، عبر القرون، تنوع ثقافي ولغوي أخصبته حمولات حضارية مختلفة. فالمغرب كان بحكم موقعه الجغرافي ملتقى حضارات مختلفة، ومركزا تجاريا وثقافيا متميزا. وعرف في تاريخه المعاصر غزوا لغويا مع دخول الاستعمارين الفرنسي والإسباني.

ويمكن القول بأن واقع التعدد اللغوي بالمغرب كان مصدر غنى وتعايش بين عدة خصوصيات ومقومات لغوية. وقد شكلت المقومات المحلية الثوابت الرئيسة للتنوع اللغوي بالمغرب، بينما أخصبته المؤثرات الخارجية والاستعمار الأجنبي بعناصر جديدة.

وقد أدى السياق الاستعماري المعاصر إلى حدوث تحولات عديدة بالمشهد اللغوي بالمغرب. حيث أصبح العديد من المغاربة مقتنعين بضرورة تعلم اللغات الأجنبية لمسايرة الأوضاع الجديدة المتجهة نحو مزيد من الانفتاح على الآخر. كما أسفر الوضع اللغوي المترتب عن السياق الاستعماري عن ازدواجية لغوية بالمغرب ونظامه التعليمي، وعن بعض التناقضات بين النصوص القانونية والواقع اللغوي بالبلاد.

البيبلوغرافيا

ابن أبي زرع الفاسي، علي (1999)، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، تحقيق عبد الوهاب بنمنصور، الطبعة الثانية، المطبعة الملكية الرباط.

ابن خلدون، عبد الرحمان، *المقدمة*، (بدون تاريخ)، دار الكتاب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى.

ابن شريفة، محمد (1975)، *أمثال العوام في الأندلس لأبي يحيى الزجالي*، مطبعة محمد الخامس، فاس، ج 1.

بوكوس، أحمد، (1982)، "اللغة والثقافة الشعبية كممتلكات رمزية"، مجلة *آفاق*، يصدرها اتحاد كتاب المغرب، العدد 9، ص 26-29.

بوكوس، أحمد، (2003)، *الأمازيغية والسياسة اللغوية والثقافية بالمغرب*، منشورات مركز طارق بن زياد، الرباط، الطبعة الأولى.

بوطالب، إبراهيم، (2006)، "مغرب القرن العشرين"، ملتقيات التاريخ، الرباط 30 مارس- 1 أبريل 2006، حول موضوع *المغرب الكبير المعاصر، ثوابت وتحولات*، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط. ص 21-54.

بوكبوط، محمد (2007)، "خلفيات سياسة التعليم خلال عهد الحماية، مؤسسات أبناء الأعيان، ثانوية أزرو نموذجا". ضمن أعمال ندوة *التعليم والحركة الوطنية بالأطلس المتوسط خلال فترة الحماية*، أزرو 24 ماي 2007، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، ص 173-180.

بنطالب، علي، (2010)، "التحولات الوطنية والدولية والانتظارات الدستورية"، ضمن *الدستور والدستورانية بالمغرب* 1908-2008، المجلة المغربية للاقتصاد والاجتماع، منشورات المعهد الجامعي للبحث العلمي، عدد 167. ص 163-180.

التازي، عبد الهادي، (2000)، مجلة *العربي*، العدد 505. نقلا عن: زروق، مراد، (2002)، "الترجمة في عصر الانفتاح على اللغات"، ضمن *مستقبل اللغات بالمغرب*، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالمحمدية. ص 72.

الحجوي، محمد بن الحسن، (1921)، *محاضرة في إصلاح التعليم العربي*، مخطوط بالخزانة الوطنية للمملكة المغربية، الخزانة العامة سابقا، الرباط، رقم ح 152.

حسن، كمال، (2002)، *مؤسسات التعليم والبحث بالمغرب خلال فترة الحماية، مقاربة تاريخية*، أطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ، كلية الآداب بالرباط، مرقون.

جلبير غرانغيوم، (2011)، اللغة والسلطة والمجتمع في المغرب العربي، ترجمة: محمد أسليم، أفريقيا الشرق، المغرب.

دنياجي، نور الدين محمد (2002)، "ماضي اللغات بالمغرب أو الأصول لتشكيل الهوية والشخصية المغربية من زاوية لغوية"، ضمن *مستقبل اللغات بالمغرب*، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالمحمدية. ص 27-46.

العروي، عبد الله (1992)، *مجمل تاريخ المغرب*، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الثانية.

غلاب، عبد الكريم، (1988)، *"التطور الدستوري والنيابي بالمغرب 1908-1988"*، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء.

المروني، المكي، (1996)، *الإصلاح التعليمي بالمغرب، 1956-1994*، منشورات كلية الآداب بالرباط، سلسلة رسائل وأطروحات، رقم 17.

كريم الله، كبور، (2009)، "الإمالة في الحسانية"، ضمن *التعدد اللغوي بالمغرب*، مجلة *بصمات*، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بنمسيك، الدار البيضاء، الطبعة الأولى. ص 135-153.

كنكاي، عبد القادر، (2009)، "واقع التعدد اللغوي بالمغرب، إشكالية حاضر ومستقبل المغرب"، ضمن *التعدد اللغوي بالمغرب*، مجلة *بصمات*، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بنمسيك، الدار البيضاء، الطبعة الأولى. ص 21-34.

رزوق، محمد، (2013) *الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب وإفريقية خلال القرنين 16-17*، منشورات أفريقيا الشرق.

زروق، مراد، (2002)، "الترجمة في عصر الانفتاح على اللغات"، ضمن *مستقبل اللغات بالمغرب*، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالمحمدية. ص 69-78.

اليزيدي، محمد، (2005)، "مقاومة المغاربة للمد اللغوي والثقافي الفرنسي"، ضمن أعمال ندوة *المقاومة المغربية عبر التاريخ أو مغرب المقاومات*، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، ص 443-471.

شامي، نزيهة، (2002)، "التعدد اللغوي وأبعاده التربوية"، ضمن *مستقبل اللغات بالمغرب*، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالمحمدية، سلسلة الندوات رقم 14، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء. ص 57-67.

شفيق، محمد (1999)، *الدارجة المغربية مجال توارد بين الأمازيغية والعربية*، الرباط، أكاديمية المملكة المغربية.

Aourid, Hassan. Hafidi Alaoui, Hassan, (2010), *Diversité culturelle, questions et modes d'expression et de gestion*. 1ere édition, imprimerie Najah Aljadida, Casablanca. (Collectif).

Benhlal, M. (2005), *Le collège d'Azrou : une élite berbère civile et militaire au Maroc (1927-1959),* Ed Karthala. IREMAM.

Brignon, J. et, al. (1967*), Histoire du Maroc*, Ed, Hatier, Casablanca.

Boukous, A, (2006), *Dynamique d'une situation linguistique : le marché linguistique au Maroc*, 50 ans de développement humain et perspective 2025, pp 71-112.

Boukous, A, *Société, langues et cultures au Maroc*, FLSH, Rabat, 1995.

Blancpain, Marc, (1967), *Lumières de la France*, Cité par Morad Zerrouk, (2002), in *L'avenir des langues au Maroc*. Publications de la FLSH de Mohammedia, Série colloques n° 14. p 72.

Calvet, Louis Jean, (1987), *La guerre des langues et les politiques linguistiques*, Paris, Payot.

Grandguillaume, G. (1983), *Arabisation et politique linguistique au Maghreb,* Paris, Maisonneuve-Larose.

Miége, J.L, (1961-1963), *Le Maroc et l'Europe (1830-1894)*, PUF, Paris, 4 Tomes.

Paye, L, (1992), *Introduction et Evolution de l'enseignement moderne au Maroc, (Des origines Jusqu'à 1956)*. Edition, introduction et notes par Mohamed Benchakroun, Rabat, Imprimerie Arrissala.

Quitout, M. (2007), *Paysage linguistique et enseignement des langues au Maghreb des origines à nos jours, L'amazighe, l'arabe et le français au Maroc, en Algérie, en Tunisie et en Libye*. L'Harmatan, Paris.

Vermeren, P. (2002), *La formation des élites marocaines et tunisiennes. Des nationalistes aux islamistes, 1920-2000,* Paris, la découverte.

Zafrani, H., (1983), *Mille ans de vie juive au Maroc*. Paris, Maisonneuve et Larose.

مجلة أسيناگ- □□□□□□، العدد الحادي عشر، 2016، ص 75-80

لغات الكتابة عند ملوك شمال إفريقيا القديم

خديجة قمش

كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقنيطرة

تعد المسألة اللغوية من بين القضايا التي لم تنل اهتماما علميا كافيا في تاريخ شمال إفريقيا. وإذا كان تدبير التنوع اللغوي إحدى الإشكالات الكبرى التي تواجه المنطقة اليوم، فإن تجربتها التاريخية في هذا المجال تفرض علينا أن نُلم بكل جوانبها متوخين أخذ العبرة منها لاستشراف مستقبل أفضل لهذا التدبير، وهذا بالضبط هو المقصد الأسمى من علم التاريخ. نعتقد أن الخصوصية اللغوية للمنطقة، والتي اتسمت بالتعدد منذ النصف الأول للألفية الأخيرة قبل الميلاد، تستوجب التفكير في مقاربات تنطلق من الوظائف الحقيقية للغات عند ساكنة شمال إفريقيا، بدل أن نبقى رهائن التصنيف المعتاد الذي يقسم الثقافات إلى ثقافة شفوية وأخرى عالمة مكتوبة. فإذا كانت الساكنة الليبية (أمازيغ العصر القديم) لم تُخلف تراثا مكتوبا غزيرا بلغتها الأم رغم أن لها أبجدية خاصة بها (Galand lionel :1996)، فإنه من الصعب أن نحكم على حضارة شمال إفريقيا القديم بأنها حضارة شفوية بامتياز.

تروم هذه الورقة الوقوف عند استعمال الليبيين للغات متوسطية قديمة في التأليف العلمي، وبالضبط من طرف ملوكهم الذين زاوجوا بين الحكم والعلم. وإذا كانت هذه الازدواجية في حد ذاتها تستحق مزيدا من الدراسة والبحث، فإن استعمال لغات أجنبية من لدن من تربعوا على هرم السلطة في عهد الممالك الأمازيغية القديمة لا شك أنه سينير لنا موضوع التعدد اللغوي ووظائف اللغات في تاريخ شمال إفريقيا القديم. ففي حالة أولئك الملوك، فنحن أمام ثنائية لغوية: لغة ممارسة الحكم، إن جاز التعبير، ولغة التأليف العلمي.

ينبغي التذكير أولا بأن ظروفا تاريخية مختلفة جعلت ساكنة المنطقة – خاصة في الشريط الساحلي- تتأثر بلغات متوسطية، إن على مستوى الكتابة أو التخاطب، مثل الفينيقية والإغريقية، وكذا البونية واللاتينية. وفي هذا الإطار فإن أغلب الإنتاج الفكري لساكنة المنطقة دُوِّن باللغات المتوسطية القديمة التي فرضت نفسها على الساحة العلمية لتلك الفترة. فكما نتحدث اليوم عن " الآداب المغاربية بالتعبير الفرنسي "، يمكن الحديث في العصر القديم عن

" التراث الليبي- الإفريقي[1] بالتعبير البوني" أو " التراث الليبي- الإفريقي بالتعبير اليوناني" أو " التراث الإفريقي بالتعبير اللاتيني "[2].

تسمح المعطيات التاريخية، رغم شحها، بالحديث عن الإنتاج الفكري لملوك شمال إفريقيا القديم ، خاصة مكيبسا (Micipsa) (148-118 ق.م) ويمبصال الثاني (Iampsal II) (88-50 ق.م) ويوبا الثاني (Iuba II) (25 ق.م/23م). لا نتوفر حول الاهتمامات العلمية للملك مكيبسا إلا على ما أورده المؤرخ الإغريقي ديودوروس الصقلي (Diodore de Sicile) الذي أشار إلى أن هذا الملك النوميدي استقدم إلى قصره العديد من المثقفين الإغريق، فتأثر بهم؛ وبذلك زاوج بين ممارسة الحكم ودراسة الفلسفة، واستمر على هذا المنوال حتى شاب عليه (Diodore de Sicile, livre 34). ورغم أننا نجهل ما إن كانت له مؤلفات، فإننا نستنتج من إشارة المؤرخ الصقلي أن هذا الملك تأثر بثقافة الإغريق، وربما ألَّف بلغتهم.

أما الملك يمبصال الثاني، فقد نسبت له المصادر القديمة كُتبا باللغة البونية (Punique)، اعتمد عليها المؤرخ اللاتيني سالوستوس (Salluste) عندما تحدث عن أصول ساكنة شمال إفريقيا القديم (Salluste, B.J., 17-19). انتقدت حليمة غازي الرأي الذي انتقص من القيمة العلمية للكتب البونية التي نسبت ليمبصال الثاني، وقدمت العديد من الأدلة التي ترجح برأيها أن هذا الملك النوميدي كانت له اهتمامات علمية بتاريخ بلاده وأصول ساكنته. ولا تستبعد أن يكون هذا الملك قد رحل إلى بلاد الإغريق لتلقي العلم هناك (Ghazi H. 1992 : 109-111). كما يبدو من الإهداء الذي أقامه على شرفه أهل جزيرة رودس أن له ثقافة إغريقية، وعارفا بميثولوجيتها (Kontorinis Vassa N.,1975 :99).

كان الملك النوميدي مستنبعل (Mastinbal) (139-148ق.م)، ابن الملك ماسينسا(Massinissa) (148-203 ق.م) ، بدوره من الملوك المثقفين وضليعا في اللغة الإغريقية حسب المؤرخ اللاتيني تيتوس ليويوس (Tite Live)[3]. واستنادا إلى الإهداء الذي

---

[1] استعملنا مصطلح " الليبي-الإفريقي " لما تحدثنا عن ما كتب بالبونية والإغريقية لأنه ظهر في فترتين تاريخيتين: الأولى كانت ساكنة شمال إفريقيا تسمى فيها بالليبيين، وفي الثانية أصحبت تسمى بالأفارقة. أما ما كتب باللاتينية فقد ظهر في الفترة الأخيرة التي تزامنت مع احتلال الرومان للشريط الشمالي من المنطقة.

[2] استعمل Paul Monceaux في نهاية القرن التاسع عشر مصطلح (La Littérature Latine d'Afrique).

[3] Tite-Live, Epit. l. L : « ... Mastanabalem, qui etiam Graecis litteris eruditus erat. », cité par Gsell S., HAAN, tome VI, p 91.

أقامه أهل جزيرة رودس الإغريقية على شرفه (Kontorinis Vassa N.,1975)، نستنتج أنه كان ذا ثقافة إغريقية. وقد يبدو هذا بديهيا إذا علمنا أن أباه استهوته هذه الثقافة بدوره وكانت له علاقات متنوعة مع العالم الإغريقي(Camps G., 1960). فمستبعل ربما لا يشكل استثناءا داخل العائلة المالكة الماسيلية، بل الراجح أن أمرائها تشبعوا بالثقافة الإغريقية وأتقنوا لغتها.

أشار بلينيوس الشيخ (Pline l'Ancien) أنه لما قام الرومان بتدمير قرطاج سنة 146 ق.م، وافق مجلس الشيوخ الروماني على تسليم خزانات المدينة للأمراء النوميديين (Pline l'Ancien, H.N., XVIII,22,). يستشف من هذه الإشارة أن قصور الأسر المالكة بنوميديا ربما كانت بها خزانات خاصة تضم مؤلفات بلغات متوسطية خاصة البونية والإغريقية، لأن اللغة اللاتينية لم يكن لها حضور قوي في المشهد اللغوي الشمال إفريقي إلا بعد انهيار قرطاج. وكيفما كان الأمر، فإن تداول مجلس الشيوخ الروماني في قرار يخص مصير الخزانات القرطاجية، يبين دور قرطاج باعتبارها مركزا علميا كان له تأثير على المشهد اللغوي الشمال إفريقي. والدليل على ذلك حضور اللغة البونية في هذا المشهد حتى في عهد القديس أوغسطينوس (S^t. Augustin) خلال القرن الخامس للميلاد (Lepelley C., 2005).

يعتبر الملك يوبا الثاني من الشخصيات العلمية البارزة بالحوض المتوسطي القديم. فبالإضافة إلى غزارة مؤلفاته، سجل التاريخ قيامه برحلات علمية، ولذلك استحق أن يكون ضمن العلماء الموسوعيين الذين عرفتهم البشرية في تاريخها القديم (Richard Goulet, 2000 : 940-954). يختزل الطبيعاني (Naturaliste) (بلينوس الشيخ) شخصية ملك المغرب القديم هذا بقوله" فاقت شهرته العلمية شهرته كملك" (Pline l'ancien, H.N., V,16)، بينما يراه بلوتاركوس "أحسن المؤرخين من الملوك" (Plutarque, vie de Sertorius, 9-10)، بل "ويعد من أعلم المؤرخين الإغريق" (Plutarque, vie de César, 55)، وبطبيعة الحال فتعداده ضمن المؤرخين الإغريق راجع إلى اللغة التي كان يكتب بها.

كرس هذا الملك الذي حكم موريطانيا لمدة ما يقرب من نصف قرن (25 ق.م /23م) حياته للتحصيل العلمي ودراسة الآداب، سيما أنه عاش طفولته وجزء من شبابه بالبلاط الروماني حيث كان منفاه قبل أن يتربع على العرش . لقد ألف هذا الملك العلامة في شتى فروع المعرفة من تاريخ وجغرافيا وشعر ونحو وفقه اللغة. وامتلك خزانة كانت تزخر بأعداد

مهمة من المؤلفات الإغريقية والمخطوطات البونية واللاتينية. وربما ضمت هذه الكتب شيئا من إرث جده يمبصال الثاني الذي ورثه من الخزانات القرطاجية التي آلت لملوك نوميديا بموافقة من مجلس الشيوخ الروماني، كما أسلفنا القول. ولهذا كان من الطبيعي أن يتقن اللغة البونية حسب شهادة كل من أميانوس مرسولانوس (Ammien Marcellin, XXII, 15,8) و صولينوس (Solin, XXXII,2).

ألّف يوبا الثاني كل إنتاجاته العلمية باللغة الإغريقية (Gsell, HAAN, VIII :296-297,) إلا أنها ضاعت ولم يتبق منها إلا شذرات مبعثرة في مؤلفات بعض الكتاب القدامى، خاصة بلينيوس الشيخ وبلوتاركوس. ويعتبر كتاب "الليبيات" (Libyca) من أهم مؤلفات يوبا الثاني، لأنه شمل مواد مختلفة تناولت الجغرافيا والتاريخ الطبيعي والميثولوجيا، كما دون به أخبارا ومعلومات حول الليبيين وبلادهم (Pline l'Ancien, V, 16).

ذكر عالم اللغة إثيان البيزنطي مؤلفا آخر ليوبا الثاني بعنوانين مختلفين: الأول تاريخ روما، والثاني الماضي الروماني . أما كتابه المعنون ب " المرادفات" (Similitudes) الذي اشتمل على خمسة عشر جزءا فقد خصصه للمقارنة بين المفردات الإغريقية ونظيراتها الرومانية (Muller, Frag. : 5, 7, 8, 9, 10, 12, 13)، وهذا ما يعكس تضلعه في هاتين اللغتين.

أفرد كتابا آخر للأشوريين عنونه ب "البابليات" (babylonica)، ذكر فيه حملات نبوخذ نصر على الفينيقيين واليهود (Muller, Frag 11-21,22). أما مؤلفه "العربيات" (Arabica)، الذي أهداه لقيصر فقد خص به وصف بلاد العرب وسواحل الهند والبحر الأحمر والخليج الفارسي، كما تحدث فيه عن أصول ساكنة المنطقة وعاداتها وعن حيواناتها ونباتاتها وأحجارها الكريمة.

كان يوبا الثاني موهوبا ومولعا بالمعرفة والتعلم، وسجل التاريخ بعض رحلاته العلمية، منها تلك التي قادته إلى الجنوب المغربي الحالي بحثا عن منابع النيل[4] وعن جزر الكناریاس. (Pline l'ancien, H.N, V,51). وساهم هذا الملك العلامة بشكل كبير في انتشار الثقافة الإغريقية بشمال إفريقيا، رغم بداية تراجعها لصالح اللاتينية التي استفادت من السيطرة الرومانية. ويعتقد البعض أن تفضيل يوبا الثاني اللغة الإغريقية في مشروعه العلمي على اللغة اللاتينية التي تشبع بها في روما راجع إلى حقد دفين كان يكنه للرومان الذين قتلوا أباه وقادوه

[4] كان القدامى يعتقدون أن منابع النيل توجد في جبال الأطلس جهة المحيط الأطلسي. ويبدو أن يوبا الثاني كان يريد أن يتحقق من مدى صحة وجود هذه المنابع جنوب مملكته، لكن ضياع كتبه لم يسمح لنا بمعرفة رأيه في هذا الموضوع.

أسيرا وهو صبي في موكب نصر قيصر بروما (Ghazi, H.,1992 :513-514). إن التعدد اللغوي في شخصية يوبا الثاني يجد تفسيره في كونه نوميدي المولد (أمازيغي) وبوني (Punique) التكوين بحكم تأثير قرطاج على قومه لعدة قرون، وروماني الثقافة بفعل سنوات طفولته وشبابه التي قضاها بروما، وإغريقي الذوق والثقافة، ومصريا بحكم زواجه من كليوبترا الصغرى (Gsell, VIII :236) .

رغم شح المعطيات حول الإنتاج العلمي لهؤلاء الملوك، يتضح جليا أنهم كتبوا باللغات العالمة (Langues Savantes) التي فرضت نفسها في الحوض المتوسطي كالإغريقية والبونية واللاتينية. أما غياب الكتابة باللغة الليبية (Le Libyque) عند هؤلاء الملوك العلماء فلا يمكن فهمه في سياق يخصهم وحدهم، بل مرده إلى السياق العام الذي عاشته هذه اللغة في العصر القديم. فمن المعلوم أن الليبية اصطدمت بمنافسة شديدة من طرف لغات متوسطية لها قوة علمية واقتصادية وسياسية ودينية، دون أن ننسى أنها لغات قوى استعمارية سيطرت على شمال إفريقيا لقرون من الزمن. وهكذا فرغم أن الأبجدية الليبية استعملت على الأقل منذ القرن الثاني قبل الميلاد من قِبَل الملوك أنفسهم لنقش بعض الإهداءات الرسمية (Galand lionel,1996 : 83-86)، فإن اقتصارها على هذا الجانب لوحده يجعلنا أمام مفارقة لم نفهم بعد كل أسرارها.

البيبليوغرافيا

Ammien Marcellin, Histoires, Tome III: Livres XX-XXII, Texte établi, traduit et annoté par J. Fontaine, avec la collaboration de E. Frézouls et J.-D. Berger ; Ed. Les Belles lettres, Paris, 1996.

Camps, G., 1960, *Massinissa ou les débuts de l'histoire*, Libyca, VIII.

Diodore de Sicile, Tome troisième: Livre XXXIV-XXXV (fragments), Texte traduit par Ferd. Hoefer, librairie Hachette, Paris, 1865

Galand L., 1996, Du Berbère au Libyque : une remontée difficile, In LALIES, 16, pp76-98.

Ghazi H, 1992, Les chefs berbères dans l'histoire des mondes antiques, thèse de doctorat d'état, Université de Bordeaux 3, 2 Tomes, (dactylographie).

Gsell. S, 1927, *Juba II, savant et écrivain*, In Revue africaine, 68, 3e semestre, p. 169-197

Gsell S., 1928, Histoire Ancienne de l'Afrique du Nord, tome VIII

Kontorinis Vassa N., 1975, Le roi Hiempsal II de Numidie et Rhodes. In: L'antiquité classique, Tome 44, fasc. 1, 1975. pp. 89-99

Lepelley C., 2005, *Témoignages de saint Augustin sur l'ampleur et les limites de l'usage de la langue punique In l'Afrique de son temps*, dans *Identités et cultures dans l'Algérie Antique*, Braind-Ponsart Cl. éd., Rouen, p. 127-153.

Matthews V. J., 1972, The Libri punici of King Hiempsal, In American Journal of Philology, 93, pp 330-335.

Müller, Fragmenta Historicorum Graecorum, cité Par Gsell, S., 1928, HAAN, T: VIII, Librairie Hachette, Paris.

PLINE L'ANCIEN, *Histoire naturelle*, liv. V, texte établi, traduit et commenté par J.DESANGES, Ed. Les Belles lettres, Paris, 1980.

PLUTARQUE, *Vies des hommes illustrés*, tome I, texte établi et traduit par R. FLACELIERE et E.CHAMBRY et M. JUNEAUX, Ed. les "Belles lettres", Paris, 1993

Richard Goulet (direction), 2000, Dictionnaire des philosophes antiques, tome III, Paris, C.N.R.S.-Éditions, pp 940-954.

SALLUSTE, Guerre de Jugurtha, texte établi et traduit par A. ERNOUT, Ed. Les "Belles lettres", Paris, 1964.

حوار حول الوضع اللغوي بشمال إفريقيا في العصر الوسيط

أجري هذا الحوار من قِبَل لجنة تحرير أسيناگ مع ذ. محمد القبلي، أستاذ التاريخ الوسيط، ومدير المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب.

كيف تعاطت المصادر الوسيطية مع الوضعية اللغوية بشمال إفريقيا قبل الإسلام؟

المصادر الوسيطية بالنسبة للوضعية المشار إليها في السؤال تنقسم قسمين أولهما سابق على دخول الإسلام، والثاني متأخر عليه.

أما المصادر قبل-الإسلامية فتشمل أعداداً هائلةً من النقائش الموزعة عبر المنطقة المغاربية كلها انطلاقا من المحيط إلى أقصى الشرق بطرابلس الغرب (Tripolitaine). بالإضافة إلى هذه النقائش، هنالك مجموعة من الإشارات الواردة هنا وهناك في الأدبيات اللاتينية وعلى رأسها كتابات القديس أغوستين (Saint Augustin) المتوفى بعنابة بالقطر الجزائري الحالي سنة 430 للميلاد. وما يمكن الاحتفاظ به بالنسبة لهذه الآثار أنها تحيل على وضع يتسم بالتعدد اللغوي واستعمال الساكنة المقيمة بالسواحل على الأخص لكل من اللغتين البونية واللاتينية ثم الإغريقية والعبرية بجانب اللغة المحلية المسماة آنئذ باللغة الليبية، أي الأمازيغية الأم. وبعيدا عن السواحل وداخل المنطقة، يبدو أن هنالك شبه استفراد مطلق للأهالي بنفس هذه اللغة الليبية على اختلاف تفرعاتها مع حضور نسبي للغة البونية في بعض الجهات.

والملاحظ أن المصادر التي وصلتنا مما دوّن بعد دخول الإسلام لم تتطرق بتاتاً لهذا الوضع اللغوي اللافت في حد ذاته. والملاحظ من جهة أخرى أن الأمر يتعلق هنا بنصوص حرر جلها بالمشرق كما أنها موضوعة باللغة العربية بما في ذلك القلة القليلة المدونة بالشمال الإفريقي. ولِتمثُّل الخطوط العريضة لهذا الوضع، سوف نحيل هنا على أبرز جوانبه المؤطِّرة من خلال معطيين اثنين أولهما يتعلق بالمسافة الزمنية التي تفصل بين دخول الإسلام وبين التدوين المتصل بالفترة كلها وبالمجال المعني مبدئيا بهذا التدوين. هذه المسافة الزمنية تقدر بما يقرب من قرنين اثنين بالنسبة لأقدم ما وصلنا من الكتابات المشرقية وتفوق القرنين بالنسبة

لأقدم ما بين أيدينا مما حرر ببلاد المغرب. ذلك أن كلا من ''**فتوح إفريقية**'' للواقدي و''**فتوح مصر وإفريقية**'' لابن عبد الحكم يمثلان أول المؤلفات التي وصلتنا من المشرق حول الشمال الإفريقي بعد أن حررا في غضون القرن الثاني أو بداية القرن الثالث للهجرة أي خلال منتصف القرن الثامن أو مطلع القرن التاسع للميلاد، وذلك بعد أن كانت الجيوش الإسلامية قد انطلقت نحو إفريقية وبقية بلاد المغرب في أوائل القرن الأول الهجري أو السابع الميلادي. أما أقدم الكتابات المحلية المتوفرة حتى اليوم، فالواقع أنها تؤول إلى مؤلَّف وضع في نهاية القرن الثالث الهجري بتاهرت، بجنوب الجزائر، وخصص من قِبَل صاحبه المعروف بابن سلاَّم الإباضي للتعريف بمسار المذهب الخارجي عبر تتبع مراحل انتشاره بالجنوب الصحراوي. ولنسجل بالمناسبة أن هذا المؤلف قد وضع هو الآخر باللغة العربية وأن كل ما وصلنا حول الفترة عبر هذه الروايات أو بعدها في المصادر المتأخرة لا يعدو أن يركز في الغالب على الأحداث المتصلة بالمعارك والوقائع الناتجة عن المقاومات المحلية المتعاقبة وما قد يرتبط بها أحيانا من قضايا العقيدة والانتماء المذهبي.

بجانب المسافة الزمنية وتبعا لها، هنالك إغفال واضح من قِبَل المصادر الإسلامية للأوضاع الاجتماعية بالمنطقة وبالتالي إلى الوضعية اللغوية السائدة بين الأهالي خلال فترة الاستقرار العسكري ودخول الإسلام. ولربما رُدَّت هذه الظاهرة من جهة أخرى إلى أن عملية التدوين بالمجال الإسلامي قد تأثرت إلى حد بعيد بما مفاده أن «الإسلام يجُبُّ ما قبله»، بمعنى أن الوضع الإسلامي يمحو الواقع المتقدم كوضع لا يُعتَدُّ به، خصوصا وأن التصنيف الكرونولوجي المعتمد من قِبَل الإسطريوغرافية التي تهمنا قد ميَّز إجمالا بين ما هو إسلامي وما هو أزَلي؛ وبما أن كل أزَلي لا بداية له على الإطلاق، فالنتيجة أنه يقع عمليا خارج الزمن أو خارج التاريخ إن نحن أحلنا على لغة اليوم.

كيف كانت الوضعية اللغوية ببلاد المغرب خلال القرون الهجرية الأولى؟

بالرجوع إلى الفترة الواصلة بين ظهور الدعوة الإسلامية بالمنطقة كلها وبين قيام الحركة المرابطية وتقدمها نحو شمال المغرب الأقصى –أي بين منتصف القرنين الأول والخامس للهجرة أو السابع والحادي عشر للميلاد–، يلاحظ أن الوضعية اللغوية ببلاد المغارب عموما وما سوف يعرف بالمغرب الأقصى على الخصوص قد وضعت في الغالب –إن صح التعبير– بين قوسين. كل ما هنالك أن المصادر لا تتحدث طوال هذه الفترة كلها عن انتشار اللغة العربية ولا عن وضعها كلغة تواصل بين الأهالي. وعلى الرغم من ندرة الإشارات المتصلة ضمن هذه

المصادر بالموضوع، إلا أننا نسجل بعضها كمعطيات من شأنها أن تؤشر لهذه الوضعية وما يكتنفها من تدخُّل أو تشويش على مستوى الرواية والتدوين. ودون أن نتعرض إلى الجوانب المتصلة بدرجة مصداقية هذه الإشارات، ربما كان من الأنسب أن نكتفي بعرض نماذج مصنَّفة من بينها تصنيفا كرونولوجيا قدر الإمكان.

ولعل أقدم هذه الإشارات قد ورد بصدد ما روي حول قدوم «رجال رگراگة» السبعة إلى مكة وإسلامهم على يد الرسول «وتحدثهم إليه بالبربرية»، خاصة وأن هنالك صدى لهذا النوع من الاتصال عبر عدة إشارات منها ما أثبته ابن سلام الإباضي الآنف الذكر حول تردد رجل من «البربر» على مجلس الرسول قبل أن يقف عند استقبال «قوم من البربر» بالمدينة من قِبَل الخليفة عمر بن الخطاب «وكان قد أوفدهم إليه [...] عمرو بن العاص وأرسل معهم ترجمانا يترجم كلامهم [...]».

يلي هذا النوع من الإشارات ويناقضها في الواقع من حيث المحتوى تلك الخطبة البليغة التي تنسب لطارق بن زياد عند اعتزامه الجواز إلى الأندلس أواخر القرن الأول الهجري. ومعلوم أن الخطبة المشار إليها قد قدمت بأسلوبها العربي المحبوك كخطاب مرتجل صادر عن متحدث أمازيغي يروم تعبئة جيش مكون أساسا من الأمازيغ وكأن الغاية تقتضي الإيحاء باستبدال لغة بأخرى منذ وقت باكر من قبل الأهالي.

وارتباطا بالمضاعفات المترتبة على التعامل الإقصائي لمجمل الأعوان من بين المغاربة كما تبين من خلال موقف موسى بن نصير من منجزات طارق بن زياد، ستذكر المصادر ضمن أحداث العقد الثالث من القرن الثاني للهجرة قضية التآم وفد من الأمازيغ برئاسة ميسرة المطغري كما تقف عند انطلاق هذا الأخير بمعية صحبه من شمال المغرب في اتجاه دمشق برسم التظلم إلى الخليفة الأموي « فقدموا على هشام فلم يؤذن لهم [...] فطال بهم المقام ونفذت نفقاتهم فكتبوا أسماءهم ورفعوها إلى وزرائه [...]»، مما قد يفهم منه تداول الخط العربي آنئذ لدى النخب الأمازيغية على الأقل.

ومن أبرز ما نتج عن عدم استقبال هذا الوفد أن رجع أعضاؤه إلى بلاد المغرب «فخرجوا على عامل هشام فقتلوه» وانفجرت بذلك ثورة عارمة حكمت بانفصال مجمل الشمال الإفريقي نهائيا عن الخلافة المشرقية وتأسيس كيانات محلية هنا وهناك عبر غرب المغارب من بينها إمارتان اثنتان تميزتا باعتماد اللغة الأمازيغية أداة للتوعية الدينية والتبليغ، ونقصد هنا كلا من إمارة برغواطة بأواسط المغرب وإمارة غمارة بالشمال.

أما بلاد غمارة فتنبأ بها رجل يدعى حاميم بن من الله «وأجابه بشر كثير [...] ووضع لهم قرآنا بلسانهم» نجد بعض''آياته''مترجمة إلى اللغة العربية في **مسالك** أبي عبيد البكري حيث سجَّل المؤلِّف كمعاصر للأحداث أبرز الطقوس والتقاليد المؤطِّرة لهذا الوضع بين قبائل المنطقة.

وأما إمارة برغواطة فأشهر من أن نذكِّر بخصوصيتها ضمن بقية الكيانات المجاورة. يكفي أن نَنُص على أن مؤسسها رجل يدعى طريف «من ولد شمعون بن يعقوب بن إسحاق» وأنه شارك بجانب ميسرة المطغري في الثورة الحاسمة المذكورة من قبل. وبمجرد ما خَلَفه ابنه صالح على رأس قبائل برغواطة ببلاد تامسنا، لم يتردد في الإعلان عن تنبؤه «وشرع لهم الديانة التي هم عليها [...] وادعى أنه نزل عليه قرآنهم الذي يقرؤونه إلى اليوم [...] وزعم أن اسمه في العربي صالح وفي السرياني مالك [...] وفي البربرية ورياورى، أي الذي ليس بعده شيء» كما ورد ذلك في نفس مؤلَّف البكري مع إضافة بعض التفاصيل المتصلة بالطقوس السائدة بين الأتباع وتطعيمها بجملة من''الآيات'' المترجمة من «قرآنهم الذي وضعه صالح بن طريف» بلسانهم كما يؤكد ذلك ابن خلدون من جهته.

ماذا يمكن أن يستنتج من مثل هذه المعطيات بالنسبة للوضعية اللغوية ببلاد المغرب في القرون الهجرية الأولى؟ الظاهر أن شح المصادر لن يحول دون القول بحضور اللغة الأمازيغية حضورا واسعا إلى حد بعيد بين عامة الأهالي طَوالَ هذه الفترة كلها وأن هذه اللغة قد استعملت في سائر الأغراض الثقافية والحياتية بينما تم الشروع في ممارسة اللغة العربية من قبل النخب والأعوان المعرَّبين بطبيعة الحال.

ماذا كانت وظائف اللسان الغربي (الأمازيغية) خلال العصر الوسيط؟

باعتبار النتائج المستخلصة مما سبق، قد يكون من المتوقع ومما يدخل في حكم طبيعة الأشياء أن تظل الوظائف التواصلية بالنسبة للغة الأمازيغية خلال بقية هذا العصر على ما كانت عليه خلال القرون الهجرية الأولى، وذلك نظرا لغياب أي أثر للإكراه أو التعسف في هذا المجال من قبل الدول المركزية المتعاقبة على الحكم بالمغرب. ولعل من المفيد أن نشدد بالمناسبة على أن التحكم في هذا اللسان قد صار شرطا من شروط تولي الإمامة بمسجد القرويين بفاس أيام الموحدين. ومعلوم أن هذا الاحتياط قد يُرَدَّ من بعض النواحي إلى المكانة الخاصة التي تحتلها الوظيفة الدعائية ضمن المنظومة الموحدية. ومما يبرز الأهمية التاريخية لهذا

التوجه أنه اعتُمِد في فترة تحَوُّلية على المستوى اللغوي حيث شَهِد المغرب آنئذ قدوم العرب الهلاليين ونزولهم بمعية بني سليم بالأراضي الواطئة بعد إخلائها على إثر استئصال الساكنة البرغواطية من قِبَل الموحدين الأوائل كما هو مشهور. وبالتالي فإن الرغبة في الإقناع والتواصل قد أملت هذا الشرط بمبادرة من أصحاب القرار حسبما يبدو؛ أما الوظيفة الثقافية للسان الغربي وما يتبعها من تجليات دينية وشعائر، فيمكن التساؤل عن مآلها بعد ذهاب الكيانات المحلية وقيام الدولة المركزية علي يد المرابطين قبل أن تتَرَسَّخ على يد كل من الدولة الموحدية والنظام المريني. والظاهر بالنسبة لهذه الوظائف التثقيفية والتعبدية أنها قد انسحبت أمام حركات سياسية تقوم على الهيمنة وتروم التوحيد باسم مذهب أو عقيدة لا سبيل إليهما إلا بالتحكم في لغة القرآن أولا وأخيرا. صحيح أن إمكانية اللجوء إلى الممارسات السرية أمر وارد؛ ومع أننا نستشم حضورها عبر بعض الشعائر المقَنَّعة هنا وهناك ضمن بقية الفترة، إلا أننا نكاد نجهل كل شيء عن العمق والروافد بوجه عام.

ومن جهة أخرى، فلعل مما يلفت النظر هنا أن الدول المركزية على اختلاف أسرها لم تعتمد بتاتا اللسان الأمازيغي –وإن كان هو لسانها الأول –كأداة دبلوماسية تصل بينها وبين غيرها من الدول المغاربية المماثلة فبالأحرى بينها وبين الدول المشرقية أو دول الشمال. ترى أيمكن الحديث بالنسبة لهذه الوظيفة عن تراجع أو انتكاس بالنسبة لما يمكن أن تكون قد عرفته بعض الكيانات اللامركزية من قبل؟ الواقع أن ليس لدينا أي سند من شأنه أن يسمح بالفصل في الموضوع. كل ما يتبين بالنسبة لهذه الكيانات الأخيرة أنها لم تُعِرْ الموضوع أي اهتمام أو أسبقية خاصة تذكر. وما يتبين بجانب هذا أن الإمارة الإدريسية قد اعتمدت اللغة العربية من جهتها عن وعي كامل كأداة للتبليغ والتراسل. أما بقية الكيانات المعاصرة الأخرى، فلربما لجأ بعضها على الأقل إلى استعمال إحدى اللغتين العربية والأمازيغية أو كليهما حسب الْمُحاوِر واعتبارا لما يعرف بواقع الحال.

لماذا، في رأيكم، لم يتمكن اللسان الغربي من أن يحظى بموقع مؤثر في النظام السياسي ببلاد المغرب خلال العصر الوسيط؟

مما يلاحظ بصدد هذا الجانب أن لوضع اللسان الغربي ما يماثله من حيث التعامل مع لغات أخرى ببقية البلاد التي دخلت في حكم المنظومة الإسلامية كما هو الشأن بالنسبة لبعض اللغات الشرقية القديمة ومنها الآرامية بمختلف تفرعاتها فضلا عن اللغات الفينيقية

والبونية والقبطية وكذا الفارسية في البداية على الأقل. وعلى الرغم من تنوع الأسباب بتنوع الظرفيات التي أدت إلى انسحاب هذه اللغات أمام النظام السياسي بوجه عام، إلا أن هنالك عاملا مشتركا يجمع بينها ويتلخص في أهمية العلاقة القائمة بين المجتمعات الوسيطية وسُلَّم القِيم السائدة بينها. ومعلوم أن القيم الدينية قد احتلت مقام الصدارة ضمن هذا السلم طوال الفترة كلها سواء بجنوب البحر الأبيض المتوسط أو شماله؛ بمعنى أن الهوية قد حُدِّدَت في هذه الفترة بالديانة قبل اللغة إن لم يكن قبل الانتساب الإثني في بعض الأحيان. وسبق أن أشرنا إلى أن النسق السياسي الرامي إلى الهيمنة وتوحيد التراب قد اقتضى من الدولة المركزية على الخصوص أن تقيم مشروعية حكمها على المذهب والعقيدة، أي على ''الكتاب والسنة'' وبالتالي على لغة المقدَّس الحاملة للمرجعية الدينية، وبذلك أصبحت اللغة العربية لسان الحكم وإن لم تكن بالضرورة لغة الحكام.

ويبقى بعد هذا، ومع هذا، أنه لم يكن لهذا الحكم أن يتجاهل الواقع اللِّسْني لعامة الأهالي سواء قبل قدوم العرب مِن بني هلال وبني سليم أو بعد نزولهم بالسهول الأطلنتية. والظاهر أنه تمَّ تغييب هذا الواقع رسميا لأسباب تؤول في النهاية إلى منطق المشروعية ومقتضيات القيم المسَوِّغَة لها على الأرجح لدى العناصر الفاعلة والجبهات المؤثرة.

متنوعات

مجلة أسيناگ- □□□□□□، العدد الحادي عشر، 2016، ص 89-116

نمْذجة القصيدة في الشعر الأمازيغي
بنية الاستهلال

أحمد المنادي

باحث بالمعهد الملكي للثقافة الأمازيغية

Les incipits de toute production littéraire représentent un objet de la poétique universelle et de la critique littéraire. Bien que les études menées sur ledit objet soient nombreuses depuis la rhétorique d'Aristote, en passant par les travaux arabes médiévaux et jusqu'a nos jours, les incipits dans la création amazighe n'ont jamais été un sujet d'investigation de la part des chercheurs. Cet article vise à présenter un point de vue analytique sur l'incipit dans la poésie traditionnelle amazighe, en tant que composante essentielle dans la construction du texte poétique oral. L'analyse se portera sur deux axes :

- *l'identification de l'incipit et son importance dans le discours littéraire, notamment la tradition poétique amazighe;*
- *la signification des incipits, leur fonction rituelle, psychique et pragmatique et leur dimension socioculturelle et esthétique.*

تمهيد

دلت تقاليد قرض الشعر في مختلف الألسن واللغات، على أن النص الابداعي يولَد فيكتمل ثم يصير بنية متآلفة الأجزاء منسجمة المقاطع، مع تفاوت في مستويات التعبير عن هذا التآلف بين نص ظاهره كذلك، وآخر يحتاج إلى تأويل للاستدلال على انسجامه وتكامله. وبالرغم من كون العمل الإبداعي وحدة متكاملة، فإن إجرائية التحليل وفعاليته اقتضت من الدرس الأدبي والنقدي عموما، أن يتعامل معه بكونه أجزاء منفصلة داخل إطار

كلّي يطلق عليه النص، وذلك تمكينا للدارس من الإمساك بتفاصيل العمل وتضاريسه المختلفة بنائيا ودلاليا وجماليا. ومن المؤكد أن الممارسة التحليلية أثبتت جدوى المعرفة الدقيقة بمفاصل الابداع وأجزائه في البحث عن خصائص النص وقيمه وأبعاده. ومن هذا المنطلق تمثل الدارسون النص الأدبي منذ القديم بوصفه هيئة لا تخلو من ثلاثة مكونات: المطلع والوسط والنهاية؛ يصح هذا في النثر كما يصح في الشعر. ويتضح من خلال النقود والدراسات الكثيرة التي تراكمت حول بناء النص الإبداعي عبر مسار تاريخ الأدب، أن البحث في المكونات الشكلية للعمل الفني تستمد قوتها النظرية من كونها تكشف عن النمذجة أو الأنموذج الذي يتأسس عليه الإبداع. فالخطاب النقدي منذ الإغريق إلى اليوم، ما فتئ يبحث في البُنى الفنية الثاوية في جسد النص الإبداعي، وما يتعلق بذلك من القوانين المتحكمة في مكوناته وأجزائه، ومظاهر الاتصال والانفصال في بُنيانه. وبذلك تبلورت تصورات ومفاهيم خاصة بالموضوع، نجدها مبثوثة في ثنايا كتب تاريخ الأدب والنقد في مختلف الثقافات.

والشعر الأمازيغي كغيره في ثقافات الشعوب الأخرى، لا يشذ عن هذا الإطار، إذ إن قصيدته تخضع بدورها لنمذجة بنائية، تواترت عبر أجيال الشعراء الشفاهيين، متأثرة بعوامل وتحولات اجتماعية وثقافية من جهة، وبإكراهات الرواية الشفوية من جهة أخرى. وتتأسس نمذجة القصيدة الأمازيغية بشكل عام على ثلاثة عناصر، الاستهلال فالموضوع ثم الخاتمة، بغض النظر عن الاستثناءات المتعلقة ببعض الأنواع الفرعية للشعر، والتي لا تسمح بُناها لمثل هذا الإجراء التوزيعي، إما لطبيعتها أو لخصوصية موضوعاتها[1]. واقتناعا منا بأهمية دراسة بناء النص ومعرفة أحواله، ودور ذلك في تعميق الوعي النقدي بالعمل الإبداعي، سنُقصر القول في هذا المقال على العنصر الأول[2]، منطلقين من فرضية مفادها وجود "نموذج إرشادي" لبناء الاستهلالات في الشعر الأمازيغي. ولاختبار هذه الفرضية سنعمد إلى تفكيك بعض النماذج الشعرية[3] التي نراها مناسِبة للتمثيل، مركزين، بعد تحديد مفهوم الاستهلال وأهميته، على بيان تجلياته في القصيدة الأمازيغية، وكيفية تمثل الشعراء له، بالإضافة إلى ما يستبطنه على مستوى البنية والدلالة والوظيفة والتداول. وإذا كان البحث في مثل هذه القضايا يتأسس في أصله

[1] نشير هنا إلى أن بعض الأنواع الشعرية التي لا تخضع للتوزيع المشار إليه، مثل شعر ئزلان الذي بطبيعته الشكلية قصير لا يتجاوز بيتين من الشعر، أو الأنواع المتصلة بالمناسبات الاجتماعية أو الفلاحية كالأشعار المأثورة في العقيقة والزواج.

[2] ينصب اهتمامنا في هذا المقال على الاستهلال، توسيعا لفكرة أشرنا إليها في عمل سابق مفادها أن ثمة حاجة إلى دراسة موسعة للاستهلالات في الشعر الأمازيغي قصد الوقوف على قوالبها الفنية وما تختص به من مميزات دلالية وجمالية (الإلهام والتلقي في الشعر الأمازيغي، ص 36). أما بقية العناصر الأخرى فستكون موضوعا لمقالات قادمة.

[3] قمنا بتعريب معاني هذه النماذج الشعرية المعتمدة في التحليل لتقريبها إلى القاريء الذي لا يلمّ بالأمازيغية.

على العودة إلى النصوص الشعرية الأولى التي نشأتْ في تاريخ لغة مّا، فإن ذلك يتعذر في حالة اللغة الأمازيغية، باعتبار النصوص الأولى المؤسسة غير موجودة[4]، وأن ما بلغنا ليس سوى مقطوعات وأجزاء لا يستقيم اعتمادها لبناء نموذج أو تصور كلي للنص الشعري[5]. ولذلك سنبني مقاربتنا على استهلالات لنصوص شعرية أمازيغية مكتملة، وإن كان زمن ولادتها لا يتناسب مع تاريخ هذا الشعر العريق.

1. في أهمية الاستهلال

الاستهلال مصطلح فني أدبي يدل على أول الكلام وبدايته، سواء تعلق الأمر بالنثر أم بالشعر. وتستعمل للدلالة على معنى الاستهلال مصطلحات وألفاظ أخرى، من قبيل المقدمة والمطلع والافتتاح والابتداء أو البداية... وكلها مصطلحات تشكل حقلا معجميا، تدور معانيه اللغوية والاصطلاحية حول نواة دلالية واحدة، تحيل على بداية الكلام. وإذا كان من المعلوم أن تفضية الاستهلال في النص الشعري الأمازيغي، كما في غيره، تتحدد من خلال الحيز الفضائي أو المكاني الذي يحتله داخل النص، فإنه يلزم أن نشير إلى أن له حدودا تتخذ أشكالا مختلفة، مابين حد بصري يعتمد المساحات البيضاء في الفصل بين الاستهلال وبقية النص، ويكون في النصوص المكتوبة؛ ثم حد إيقاعي، يتم بتغيير الوزن أو الانتقال من قانون إيقاعي إلى آخر، وأخيرا حدّ دلالي ينتقل فيه المبدع من مقام دلالي أو من موضوع إلى آخر.

وقد فُتن القدماء بالاستهلال فألفوا فيه مقالات وتعريفات تُظهر أهميته ومكانته في الخطاب بأنواعه المختلفة، إلى أن أصبح لدينا اليوم تراث مفهومي ونظري في الموضوع، تراكمت فيه اجتهادات الفلاسفة والنقاد واللغويين منذ العهد اليوناني. فهذا أرسطو يُفرد في كتابه الخطابة فصلا خاصا للاستهلال، معرفا إياه ومبرزا أساسه النفسي بقوله "الاستهلال هو إذن بدْء الكلام، ويناظره في الشعر المطلعُ، وفي فن العزف على الناي الافتتاحيةُ. فتلك كلها بدايات كأنها تفتح السبيل لما يتلو. والافتتاحية شبيهة بالاستهلال في النوع البرهاني، ذلك أن عازفي الناي إذا عرفوا لحنا جميلا، وضعوه في افتتاح المعزوفة كأنه لحنُها. وينبغي في

[4] من المؤكد أن تراثا هائلا من الشعر الشفوي الأمازيغي ضاع بفعل التحديات التي تواجه الرواية الشفوية. كما أن عملية جمع هذا الشعر وتدوينه لم تبدأ إلا في مرحلة متأخرة، وتحديدا في القرن العشرين.

[5] نشير هنا إلى أن أقدم المقطوعات الشعرية التي بلغتْنا تعود إلى القرن الثامن عشر للميلاد، للشاعر سيدي حمّو الطالب، إذا استثنينا المنظومات الشعرية التعليمية في المجال الديني، والتي ألفها الفقهاء والعلماء بالأمازيغية. يُنظر كتاب عمر أمرير، الشعر الأمازيغي المنسوب إلى سيدي حمو الطالب.

الأقوال البرهانية أن يجري التأليف هكذا: نبدأ بالتعبير عما نقصد إليه ثم نسترسل. وكل الخطباء يلتزمون هذه القاعدة"[6]. يحدد أرسطو في هذا التعريف أمرين أساسيين، يتعلق الأول بتفضية الاستهلال، أي تحديد موقعه في فضاء الكلام أو الخطاب، باعتبار هذا الموقع مصدرا من مصادر "القوة" التي يكتسبها سواء كان في الشعر أم في الخطابة أم في فنون العزف. والأمر الثاني يتصل بالأساس النفسي الذي يقوم عليه الاستهلال، من خلال مقاصد المتكلم وما ينبغي مراعاته من قوانين بناء المعنى في مستهل الخطاب. أما النقاد العرب القدامى، فأكدوا على أهمية المطالع، في خضم تناولهم للمقدمات الطللية والغزلية، وبرهنوا على أصالة هذا الجزء في عمود القصيدة العربية ونظامها. ولذلك أكثروا من الإلحاح على العناية بالاستهلالات، واعتبروها مفاتيح القصائد[7]، ودليلا على البيان كما جاء في كتاب الصناعتين "أحسنوا معاشر الكتّاب الابتداءات فإنهن دلائل البيان"[8].

وقد سلك الشعراء الأمازيغ المسلك نفسَه، لما أكدوا في مقدمات إبداعاتهم على أهمية اختيار الاستهلالات المناسبة التي تمهد للكلام وتؤسس له، وذلك بتوظيف المعاني النبيلة، والعبارات التي تسمو بالمتكلم إلى مقامات الجد، أو استحضار مصادر انتهال الشعر واستلهامه، أو استثمار أدبيات الاستفتاح الدينية كالبسملة والسلام والتصلية، وغيرها مما سنعرج عليه في ما سيأتي من هذا المقال.

2. في أبعاد الاستهلال

يمكن اعتبار الاستهلال بمثابة وحدة نصية داخل العمل الإبداعي، تقوم على مقومات بنيوية ودلالية وتداولية، تأخذ أحيانا أبعادا سيميائية تحيل على ممارسة ثقافية في المجتمع الذي يمثل المبدعُ لسانَه. ولذلك فإن تحليل ظاهرة الاستهلال في الشعر الأمازيغي، يقتضي تفكيكه إلى جملة من المكونات قصد استجلاء مجمل الأبعاد والمسارات التي يتخذها على المستويات الدلالية والجمالية والتداولية.

---

[6] أرسطو طاليس، الخطابة، ص 230.

[7] يقول ابن رشيق في هذا الصدد: "وكانت العرب تعدّ القصيدة قفلا أوله مفتاحه"، ينظر ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ج 1 ص 217.

[8] أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، ص 431.

1.2. البعد الدلالي

من خلال استقراء نماذج تجربة الاستهلال في الشعر الأمازيغي[9] في مناطق سوس ووسط المغرب، يتضح أن ثمة اتجاها عاما يحكم بناء استهلالاته، عبر تواتر بنيات لسانية ودلالية تحيل على الفضاء الديني. يتعلق الأمر هنا بالحضور القوي للمعطى الديني بوصفه من ضرورات الابتداء، متجسدا في ثلاث نُوى دلالية:

- التوسّل بالبسملة أو التسليم، مع ما يرافق ذلك من التضرع إلى الله والدعاء للنفس بالتوفيق؛
- التوسّل بالصلحاء والشيوخ والأنبياء[10] وتذكّر بركاتهم على الشاعر بما هم مصدر الإلهام ومنبع سرّ الإبداع وسلطته؛
- التوسّل بالعلم أو بالمعرفة الدينية.

إن تواتر الاستهلال الديني في تجارب الشعراء الأمازيغ، يؤكد وجود اقتناع لديهم بضرورة تبني أسلوب موحد على مستوى التأسيس للكلام الشعري، تفاعلاً مع المزاج العام لثقافة المجتمع الأمازيغي وممارساته الحاملة لقيم مؤصلة دينيا. ويمكن القول بأن من مميزات القصيدة الأمازيغية "التزامها باستهلال ذي مضمون ديني توسّلي، يتبرك فيه بذكر الله والرسول والأولياء والصالحين"[11]. ولعل النماذج التي سنضرب بها المثل، وفقا للنوى السابق ذكرها، تعكس بوضوح هذا النزوع الديني، أحيانا بشكل مباشر وأحيانا بطرق غير مباشرة، عبر الإحالة على ما له علاقة بالفضاء أو بالمؤسسة الدينية.

1.1.2. التوسّل بالبسملة

مِن صيَغ البسملة التي ترِدُ على ألسنة الشعراء وهم يفتتحون قصائدهم، نجد النماذج الآتية:

1. *ئدا بيسمي الله ؤرّاحمان أد ساولغ*[12]
(باسم الله الرحمان أبدأ الكلام)

[9] المقصود هنا الشعر التقليدي الشفوي الغنائي، ولا نقصد مطلق الشعر الأمازيغي.

[10] شيوخ الزوايا والأولياء الصالحون. عن دورهم في مسارات الشعراء الأمازيغ، ينظر: الإلهام والتلقي في الشعر الأمازيغي، ص 18 وما بعدها.

[11] الحسين المجاهد، معلمة المغرب، ج 2، مادة "أماركَ"، ص 669.

[12] محمد بودراع، مدونات أحمد بوزيد، أرشيف المتون الأدبية بالمعهد الملكي للثقافة الأمازيغية.

2. *أ بيسمي الله أ تاوالا نو*[13]
(باسم الله جاء دوري)
3. *بيسمي الله ؤرّاحمان ئگا صّاواب*[14]
(باسم الله الرحمان من أدب الكلام)
4. بيسمي الله ؤرّاحمان ؤرّاحيم نبدا سرس
ئگا لاصل ن واوال، ئگا سّونت ئغ ئبدا يان[15]
(باسم الله الرحمان الرحيم بدأنا به
هو أصل الكلام، ومن السنة البدء به)
5. ئدا بيسمي الله اد داغ يارم يان أوال[16]
(سأبدأ بذكر اسم الله ثم أنْظِم)
6. *أ بيسمي الله أ سرس بدوغ نبدو نارم*
أوّولّو غ ئضرفان أ غ نكّرز ئگيلالن[17]
(باسم الله أبدأ به ثم أختبر
المحراث، كي أحرث الحقول)
7. *أ بيسمي الله أ نارم أوال ئغ رخان*[18]
(باسم الله أشرع في الكلام سهلا)
8. *بيسمي الله أ راسول الله ريغ أد ساولغ*
أوال زوند تامّنت، ئميم غ ئمي ن كويان
بيسمي الله أد داغ ئعدل ربي زّناد ؤبوري
أ سرسن ؤتغ ليشارت گر ملّن أياد غ لّيغ[19]
(باسم الله يارسول الله أرغب في الكلام
كلاما كالعسل، حلوٌ في كل الأفواه
باسمك اللهم أصلحْ زناد بندقيتي

---

[13] الرايس محمد، م ن.

[14] محمد لبصير، م ن.

[15] محمد بن إحيا ؤتزناخت، م ن.

[16] مولاي سعيد، م ن.

[17] حماد بيزماون، م ن.

[18] عثمان ؤبلعيد، مدونات أحمد المنادي، أرشيف المتون الأدبية بالمعهد الملكي للثقافة الأمازيغية.

[19] بوبكر أنشاد، قصيدة صّبر، تسجيل بيضافون، رقم 502. 98. ب، مدونات أحمد بوزيد، م س.

كى أسددها وأصيب هدفي أمام الملأ)

9. *أ ك ّزوح أ والّي دار تيسورا ن لخير*[20]

(أستفتح بك يا من عنده مفاتيح الخير)

10. *أ ّكنت أ ّسّميت ن ربّي سماساغ ئ واوال*[21]

(أردد اسم الله من أجل الكلام)

11. *أ يا بيسمي الله ئكا لفوتوح ن واوال*
ئكا باهرا صّاواب ئمي تّا ت ئّنان[22]

(باسم الله مُفتَتَح الكلام
ودليل على صواب كل من نطق به)

12. *أوا بيسمي الله نوسي لقلم غ ئفاسّن*[23]

(باسم الله نحمل اليراع في الأيدي)

13. *السلام ؤعليكم أ طّالب ن لمدرست*[24]

(سلام الله عليك يا فقيه المدرسة)

14. *ئوا بيسمي ريغ أد داغ نكرز نمگر صّابت*
ئغ ئلاّ لخير أ ئزر كيوان تادلا تلكم[25]

(باسم الله أحرث ثم أحصد
إذا جاد الخير، كل يفرح بمحصوله)

15. *أ ك ّأ بيسمي الله نّزوور أر ساوالخ*
ئنيخ أس ضيف الله ئ ما ئساوالن[26]

(باسمك اللهم أفتتح نظم الكلام
ثم أنزل ضيفا على المتكلمين (الشعراء))

16. *بيسمى الله نبدا سرسى*

---

[20] الحاج بلعيد، مدونات الحسين بن إحيا، أرشيف المتون الأدبية بالمعهد الملكي للثقافة الأمازيغية.

[21] مبارك بن زيدا، مدونات محمد أفقير، أرشيف المتون الأدبية بالمعهد الملكي للثقافة الأمازيغية.

[22] الحسين بن أحمد، قصيدة "لباز"، تسجيل فيستا، رقم 4304، أ/78، مدونات أحمد بوزيد، م س.

[23] محمد بن إحيا ؤتزناخت، م ن.

[24] الحسين أمزيل، مدونات أحمد بوزيد، م س.

[25] محمد بودراع، أركّاز د تمغارت، تسجيل بيضافون، رقم 99/ 097200. أ ب. م ن.

[26] لحسن أجماع في افتتاح محاورة شعرية بينه وبين عثمان أزوليض وإحيا بوقدير وأحمد عصيد، بتاريخ 20 مارس 2000. ينظر مدونات خالد المديدي، أرشيف المتون الأدبية بالمعهد الملكي للثقافة الأمازيغية.

ريخ أ سرس بنوخ لاخبار عدلنين[27]
(باسم الله بدأنا به
أنشيء به طيب الأخبار)

تشكل البسلمة في هذه العينات من الجمل الاستهلالية البنية البارزة والمهيمنة في مجمل النصوص الشعرية الشفوية، بوصفها مصدر قوة الشعر وضمانا لولادة طبيعية للعمل الإبداعي. والبسملة هنا ترِدُ بصيغتين: إما مقترضة، بحيث يدمج الشاعر البسملة بلغتها الأصلية في تعبيره الشعري، كما هو الحال في معظم الأمثلة السابقة. أو مترجمة، بحيث يستعمل الشاعر المعاني الدالة عليها باللغة الأمازيغية، بما يفيد أن الشاعر يفتتح كلامه بذكر اسم الله أولا (النموذجان 9 و10). وقد جاءت صيغة البسملة في الاستهلالات ملازمة لجملة من البنيات اللسانية الأخرى التي تحيل على القول الشعري، إنشاءً أو مقصدا أو ممارسة أو أسلوبا. يتضح ذلك من ورود دلائل لغوية تسوّغ استصحاب الشاعر البسملة في استهلالاته، وتفسّر الجانب الغائي في هذا الاختيار. ويمكننا أن نعيد صياغة هذه القضية من خلال السؤال: لماذا يلجأ الشاعر إلى استهلال عمله الشعري بالبسملة أو ما يحل محلّها من العبارات اللغوية؟ والجواب نجده في الاستهلالات السابقة عبر توظيف مجموعة من الدلائل التي تحوّلت إلى كلمات شعرية غنية بالرمز والإيحاء، وذلك بسبب تشاكلها عبر نصوص شعرية كثيرة، فصارت بمثابة معجم دلالي مرتبط بالاستهلال. ولنضرب لذلك أمثلة وردتْ في النماذج أعلاه:

– *لاصل ن واوال* / أصل الكلام:

تختزن مقولة الأصل في هذا السياق معان متعددة ومتقاطعة، منها ما يحيل على المفهوم الميتافيزيقي لأصل الكلام، وما يستدعيه ذلك من كون الاستهلال بالبسملة استهلال بكلام الله الذي هو أصل كل قول، كما هو معروف في ثقافة الشاعر الدينية. ومنها ما يحيل على المعنى الأخلاقي من خلال ما يحمله مفهوم "لاصل" في أدبيات المجتمع الأمازيغي من دلالة على الأصالة والرسوخ والتجذر. فكل كلام شعري لا يُستهل بالبسملة يكون مقطوعا عن جَذره، مادامت البسملة هي الأصل الذي تتفرع عنه بقية الكلمات والأشياء. ومما يؤكد هذا المعنى استعمال المفهوم في الدلالة على أصالة المرء وحسن سلوكه بالقول "*فلان ئكا ئويس ن لاصل*/ فلان من ذوي الأصول". وقد يحمل مفهوم الأصل أحيانا ما يدل على حرص

[27] إحيا بوقدير في افتتاح محاورة شعرية مع لحسن أجماع بتاريخ 8 يوليوز 1982. مدونات خالد المديدي، أرشيف المتون الأدبية بالمعهد الملكي للثقافة الأمازيغية.

الشاعر على استقامة كلامه الشعري، إذ يتصور أنه بصدد تشييد عمل فني لابد له من أسس تضمن إقامته، ومن ثم تكون البسملة أسَّ هذا القول وقاعدتَه.

– *صّاواب* / الصّواب:

يتصل مفهوم الصواب في الاستهلالات الشعرية بمعان كثيرة، منها ما يتعلق بالمعنى القيمي للكلمة، باعتبار البسملة في بداية الكلام تأسيسا لمفهوم الحق الذي هو نقيض الباطل. ومنها ما يرتبط بالمعنى الأخلاقي، حيث تصير البسملة في الشعر سلوكا أخلاقيا يستمد فاعليته من كونه تعبيرا عن ممارسة الشعر والتزامه بأدب الكلام. كما يمكن أن يَنزع المفهوم نحو المعاني الفنية، حين يعتقد الشاعر أن البسملة سبيل إلى القول السديد القويم، وضمان لإجادة النظْم والإصابة فيه.

– *زّوور ، نْبدا ، لفوتوح* / الابتداء الافتتاح:

تترسخ الوظيفة المركزية للبسملة في الاستهلال الشعري بوصفها المقولة الضرورية عند افتتاح كل كلام شعري، فهي السبيل لما يتلو، بتعبير أرسطو، ولا يُتصور أن يستهل الشاعر عمله الإبداعي دون المرور عبر هذه العتبة التي تُحفزه على النظْم وتمنحه القوة والشجاعة اللازمتين عند كل بداية. ولعل لفظة "لفوتوح" في مجال الثقافة الشعبية تقتضي الإشارة إلى ما تدل عليه من عوامل التحفيز المادية التي تكون مقابل تقديم خدمة أو أداء مهمة...

– *تيسورا ن لخير* / مفاتيح الخير:

قد يكون اللجوء إلى استعارة هذه الصورة المجازية تعبيرا من الشاعر على الأهمية القصوى للبسملة على مستويين، الأول يتعلق بكونها شرطا لولوج الشعر، باعتبار البعد الوظيفي لكلمة تاساروت/ المفتاح. ويتعلق الثاني بالبعد القيمي للبسملة، فبعد ولوج "بيت الشعر" بفعل مفتاح البسملة، يكون بمقدور الشاعر أن يقول خيرا، والخير هنا قيمة عامة تنصب على طبيعة محتوى الخطاب الشعري وما يحمله من قيم ومعان نبيلة، كما تنصب على المستوى الأدائي من خلال العلاقة المفترضة للشاعر بالمتلقي وبما يمكن أن تجود به قريحته الشعرية.

– *نْبوخ* / أبني:

باستعمال الشاعر فعلَ البناء نكون أمام وعي بأحد أضلع العمل الشعري وأهميته، يتعلق الأمر هنا بالتركيب/ تركيب العمل الشعري. فكما كانت البسملة أسّاً للكلام الشعري، تكون كذلك شرطا لبنائه وإقامة هيكله، مع ما يقتضيه البناء والتركيب من وسائل وعناصر

لغوية ودلالية وفنية وإيقاعية، تتآلف في ما بينها لتبني شيئا اسمه الشعر. إنها، أي البسملة، بهذا المعنى متصلة بمهمة جليلة هي جوهر الشعر وسرّه، مادام بنيان الشعر وتركيبه قائمين عليها.

– *لاخبار عدلنين* / الأخبار الطيبة:

ينطوي هذا التعبير على تصور خاص لوظيفة الشعر والغاية منه، يرتكز على البعد المعرفي في علاقة الشعر بمتلقيه. وهنا تحضر الإفادة بوصفها مقصد الشاعر وغايته، مع تخصيصها بصفة "عدلنين" التي يمكن أن تدل على طبيعة مضمون الخبر/ الإفادة ومصداقيته، كما تدل على شكله وطريقة صياغته، بحيث يستوفي مظاهر الحسن والجمال، تجعل المتلقي يتقبله ويقبل عليه. فكما يكون الحسن في محمول الشعر من معان، يكون أيضا في لفظه ومبناه.

– *أرْمْ أوال* / جرّب الكلام:

توظيف فعل *"أرْم"* [28] في هذا السياق يدل على أن الشاعر بصدد تجربة إبداعية تختبر قدراته وطاقاته الابداعية وإمكاناته الفنية التي من شأنها أن تؤهله إلى تشييد قول شعري، يتحقق من خلاله المراد. وتَلازُم البسملة مع التجربة في بعض النماذج الاستهلالية، إشارة واضحة إلى أن النجاح في التجربة والاختبار الشعريين مرهون بالاستفتاح بالبسملة.

– *رْخان / السهولة*:

من مقاصد الشاعر في البسملة استسهال الشعر واتقاء التوعّر والعُسر. فقولنا *"أد ئرخو واوال*/ أن يسهل الكلام" يعني أن يكون المتكلم فصيحا تجري على لسانه التعابير سلسة منسابة مستعذبة. فالسهولة المطلوبة هنا تكون في لغة الشعر وألفاظه كما تكون في محتوياته حين يتحرى الشاعر الوضوح في المعنى والدلالة. وبهذا المعنى تصير البسملة سلاحا وزادا يمكّن الشاعرَ من أن يُطاوعه الكلام الشعري ويَنقاد له.

– *ئمّيم واوال ، زوند تامّنت* / حلاوة الكلام، كحلاوة العسل:

[28] في دلالة اللفظ على التجربة والاختبار، ينظر محمد شفيق، المعجم العربي الأمازيغي، مادة جرب، الجزء الأول، ص 217.

تحيل لفظتا "تاميمت" و"تامّنت" على جانب الذوق الذي هو مدخل من مداخل الحكم على الشعر وتقييمه ذوقيا/ النقد الذوقي. فلكي تميل النفوس إلى شعر الشاعر وتستعذبه، يلزم الابتداء بالبسملة، لأنها ضمان لذته وحلاوته.

إن دلالات الصيغ والتعابير الشعرية السابقة، تفسر الدواعي التي تدفع بالشاعر إلى الاستفتاح بالبسملة، وتبيّن حرصه على إنتاج تجربته الشعرية في صورة يتفاعل فيها البعدان الاعتقاديُّ والجمالي. وتؤكد ذاكرة الشعر الأمازيغي أن استحضار الجانب الديني في بداية العمل الشعري لا يتعارض مع طبيعة العمل الفني، بوصفه مغامرة ذاتية فنية تنقل أشواق المبدع، بغض النظر عن طبيعة الموضوع. ويمكن الإحالة هنا على استهلال القصائد الغزلية بالبسملة أو تسمية الله، كما في مطلع قصيدة ***"زّين"*** للشاعر *محمد أوموراك*[29] التي يصف فيها الجوانب الحسية للجمال عند المرأة، أو ما يسمى بالغزل الحسي، قائلا:[30]

بيسمي الله أد داغ يارم يان أوال
أرمغ ئس گيس تلّيت أ لامان (...)
أد د نْكَ أ باب ن زّين كولّو صّيفات نّك
أ گيس ئسّف ؤمگرض ؤسعونت تْوالّين نّس
زّين أ ئرا د أد ربّون تيفيّي غ مْناصّ
أمّاس ن تّمي ن ؤورز أر تيملّي ن ؤفوس

(باسم الله أبدأ الكلام
أبحث فيه عن الأمان
أستعرض، أيها الجميل، كل محاسنك
طول العنق وسعة العينين
ونصف جسم يكتنز لحما
من أخمص القدم إلى بياض اليد)

2.1.2. التوسل بالأولياء والصلحاء

---

[29] الشاعر رّايس الحسين بن أحمد المعرف باسم محمد أوموراك إحيحي. ينتمي للجيل الأول من الشعراء في القرن العشرين. لم يصلنا من إبداعاته إلا نصوص شعرية نادرة لا تتجاوز العشرين، ومعظمها أعاد غناءه كثير من الشعراء ورّوايس بعد وفاته.

[30] أنطولوجيا الشعر الأمازيغي، ص 417.

إن التوسّل بالأولياء في تجربة الشعر الأمازيغي يندرج في إطار الاستلهام الذي هو معطى ثابت في تجارب الشعر لدى المجتمعات الشفوية بشكل عام[31]. والأصل في المسألة ما ساد من اعتقاد لدى الشعراء، في تفسيرهم للظاهرة الابداعية، بأن القريظ لا يتحصّل لمن أراد أن يكون شاعرا، إلا باستلهامه من وليٍّ صالح، أو من زيارة ضريح. وقد دأب الراغبون في احتراف الشعر على تقديم الذبائح في أضرحة مخصوصة معلومة من أجل التبرّك بأوليائها الصالحين[32] طلبا لسرّ الشعر ومفتاحه، إلى أن صار ذلك سلوكا واقعيا وتقليدا فنيا يَبرز على مستوى الخطاب في العمل الشعري. ولذلك ساد الاعتقاد بضرورة أن يكون لكل شاعر شيخه، أي منبع إلهامه الشعري، يستفتح به كلما همّ بنظم الشعر وقرضه، متوسلا بعطائه وبركاته، فصار شائعا "أن يتشيّخ أنظّام وأمارير حيث يربط موهبته بأحد الأولياء والصالحين يستلهمه الإبداع الغزير ويتبرك بمكرماته، ويفصح عن ذلك في ذيباجة قصائده"[33]. إن التشيخ في هذا المقام حالة سيكولوجية لا تقل أهمية عن ظاهرة الاستهلال بالبسملة، تنطوي على معطى غيبي غير ملموس، لكنها تكتسب مصداقيتها ومشروعيتها لدى الشاعر من خلال كونها تجربة باطنية ملهمة، ومصدرا للسلطة الابداعية ومنبعا للحكمة والخير. ويُشكل الاستهلال في الشعر الأمازيغي المجال الخصب لاستحضار هذه التجربة أو الاستلهام منها. وعلى سبيل المثال، نجد الشاعر رّايس الحاج بلعيد يستدعي الأولياء والصالحين باسمائهم ويتوسل إليهم في استهلالاته بأن يكونوا عونا له في قول الشعر:

1. *ئوا بيسمي أد غرخ ئ شّيخ بّناصر*
ؤلا صّالحين، ريخ أد كولّو گين لعوان ئنْو[34]

(باسم الله، أنادي الشيخ بناصر
والصالحين، أرجو عونهم جميعا)

2. *أ بني يعقوب أ مولاي براهيم*

[31] ينظر عبد الله بونفور في حديثه عن ملامح الانتاج الشعري التقليدي:

Bounfour, A. (1999), *Introduction à la littérature berbère*, 1. La poésie, p 40.

وأيضا، : أحمد المنادي، الإلهام والتلقي في الشعر الأمازيغي.

[32] من أشهرهم: الشيخ محمد بن يعقوب الصنهاجي السكتاني في القرن العاشر الهجري؛ ومولاي الحاج بتاسريرت، نواحي تافراوت؛ ومحمد بن الناصر مؤسس الزاوية الناصرية المتوفى سنة 1675م؛ ومولاي إبراهيم المعروف بطير الجبل، حفيد مؤسس زاوية تامصلوحت في القرن السابع عشر للميلاد؛ ولالاّ عزيزة السكسيوية بئسكساون...

[33] الحسين المجاهد، مرجع سابق، ص 669.

[34] القصيدة 5 ص 430 الحسين بن إحيا، م س.

أ نْغ ئكَ ربّي لعوان أشكو نحتاجّا تْ[35]

(يا بنيعقوب يا مولاي إبراهيم

كان الله في عوننا، فما أحوجنا إليه)

3. *أ صّالحين أ سّادات أ لمولوك*

ريغ أ ؤكان تحاضرم ئغ ساولغ[36]

(أيها الصالحون والأولوياء والملوك

أرجوكم أن تكونوا شهداء على نظمي)

ونجد شاعرا آخر، بوبكر أنشاد، يتوسل في مستهل إحدى قصائده بالولي الصالح مولاي إبراهيم، ملتمسا منه سلاسة الشعر وغزارتَه، راجيا أن توصِله بَركة الشيخ إلى حالة من التدفق الشعري، تماما كما تتدفق المياه الغزيرة في وادي سوس دون حاجة إلى المطر:

أ لوالي مولاي براهيم جارا د فلاّ غ

غيكاند ئجارا واسيف ن سوس كيگان د ءامان

ؤر ئحتاجّا واسيف ن سوس أنزار ئنگي نيت

ؤر ئحتاجا ؤليلي تيضاف ؤر گيس ئدّعا يان[37]

(أيها الولي مولاي إبراهيم جُد علينا

كما يجود نهر سوس بالماء الكثير

فوادي سوس منهمرٌ لا يحتاج إلى المطر

فالدفلى لا تحتاج رقيبا، مادامت لا تستهوي أحدا)

إن استحضار الشيخ/ الولي الصالح في الاستهلال الشعري يعدّ أمرا محوريا بالنسبة للشاعر، خاصة إذا علمنا أن الشاعر ينتمي إلى ثقافة شفوية، ويقرض شعره أمام جمهور من المتلقين والمستمعين، مما يجعله أحوج إلى الدعم النفسي وإلى التحفيز بمعناه السيكولوجي،

---

[35] القصيدة 21 ص 460 الحسين بن إحيا، م س.

[36] القصيدة 24 ص 468 الحسين بن إحيا، م س.

[37] قصيدة "صّبر"، تسجيل بيضافون، رقم 502. 98. ب، مدونات أحمد بوزيد، م س.

حتى لا يرتبك أمره، أو يضعف شعره. وقد عبّر الشاعر سعيد جروري[38] عن ذلك في مطلع إحدى قصائده قائلا:

ئوا بيسمي الله أ ئمي ساول
أ شيخ ئنو أ ئيي تْحاضرت أد ساوالغ
ئغ لّيغ غ كَر ميدّن أد ئيي تْعاونت
غ ؤمارك ؤلا كرا د ئ تيوي لوقت[39]

(باسم الله تكلّم يا فمي
يا شيخي كن حاضرا في كلامي
كن لي معينا وسط الملأ
في قول الشعر وفي كل النوازل)

وفي السياق نفسه، نجد شاعرا آخر يستهل كلامه بالتبرك بشيخه والاستفتاح به، أملا في أن يطاوعه شعره ويَسْهل عليه، خاصة وأن الأمر يتعلق هنا بالمحاورة الشعرية، حيث تكون المواجهة مباشرة بين شاعرين وأكثر أمام جمْع من السامعين:

1. *أ ها تّا غ داغ نبيدّ أيوا أ شّيخ ئنو لّيل أ غ*
أ كَّ ئمي ن تاتلت نزّور كْ أ ئرخو واوال
ئغ أك أ بني يعقوب نغرا تينيت نعام[40]

(يا شيخي كن بجانبي وأنا أشرع في النظم
بك يامن بإمينتاتلت أبدأ كي يسهُل الكلام
أرجوك يا بنيعقوب استجب ندائي حين أناديك)

2. *أوال ن بني يعقوب ئس ت أ ربّي تنصرت*
نتّان أ ئكَا ربي د لخيار ن صّالحين[41]

[38] من مواليد سنة 1949م بدوّار تيزي ن تيلين قبيلة إداوزدّوت أيت موسي، جماعة والقاضي–ئغرم، عمالة تارودانت.

[39] القصيدة قيلت يوم 5 غشت سنة 1979، كما نقلها الشاعر عمر إجوي، مدونات سعيد جروري، أرشيف المتون الأدبية بالمعهد الملكي للثقافة الأمازيغية.

[40] استهلال للشاعر أنظّام الحسين ؤمبارك، في محاورة له مع الشاعر بن زيدا وآخرين. ويعود تاريخ المحاورة إلى سنة 1972 حسب رواية الباحث إبراهيم أوبلا. يُنظر مدونات إبراهيم أوبلا في أرشيف المتون الأدبية بالمعهد الملكي للثقافة الأمازيغية.

[41] مبارك بن زيدة في المحاورة المشار إليها أعلاه.

(الكلام المستهل ببنيعقوب ينصره الله
فهو من جعله الله أفضلَ الصالحين)

ولعل هذه النماذج الاستهلالية وغيرها تؤكّد المقام الذي يحتله الشيخ الملهم في تصور الشعراء ونظرتهم إلى العملية الإبداعية. والتوسل في هذا الباب لا يقتصر على اعتراف الشاعر بفضل الشيخ عليه، باعتباره مصدر إلهامه الأوّل، ولكن يتجاوز ذلك إلى الاعتقاد بأن الاستهلال به يمكّنه من غايات أخرى، كالاستنارة به في درب النظْم، وطلبِ الإجادة في الشعر وكثرته وسهولته، والتفوق على الخصم...

3.1.2. التوسل بالعلم والمعرفة الدينية

من مظاهر حضور المعطى الديني في الاستهلال عند الشعراء الأمازيغ، توسُّلهم بالمعرفة الدينية أو ما يتصل بها من مكونات مادية او معنوية. فإذا كان الشاعر بطبيعته ينتمي إلى مجتمع ثقافته شفوية، فإن ذلك لم يمنع من استدعاء بعض الفضاءات المعرفية وإدارجها في مطالع القصائد. ففي هذا المجتمع التقليدي اقتصر انتاج المعرفة[42] على ثلاث مؤسسات:

- *لْمدرست* / المدارس العلمية، باعتبارها مؤسسة مختصة في تحصيل العلوم والمعارف الدينية؛
- *زّاويتْ* / الزوايا، التي تشكل مجالا للتصوف وتزكية النفوس، وتساهم في تأطير المجتمع، وخاصة المريدين، من الناحية السلوكية والأخلاقية؛
- *أسايس* أو *أباراز* / ميدان الشعر، الذي يمثل فضاء للمعرفة الإخبارية المتصلة بأحوال المجتمع والمحيط، بجانب المعرفة الأدبية والفنية التي ترتكز على المتعة والتسلية.

وبالرغم من أن الشعر عادة ما يُصنّف في إطار متعارض مع المعارف الدينية ومجال إنتاجها[43]، إلا أن ذلك لم يحلْ دون استثمار الشاعر لرموز الحقل المعرفي الديني في إبداعاته الشعرية، وخاصة في الاستهلالات. ولعل البنيات اللسانية التي تُستعمل في هذا السياق تشكّل معجما دلاليا يحيل في مجمله على المعرفة المشار إليها: لمدْرْست ، تيغري طّالب ، تالّوحت ، لقْلْم ، تادّوات ، تيرّا ، أكَمّاي ، لكوتوب...

[42] نستثني هنا المعرفة المتصلة بالخبرات والمهارات العملية، التي يكتسبها الفرد عبر انخراطه في مؤسسات ذات طبيعة اجتماعية واقتصادية وتدبيرية...

[43] يميز المبدعون الأمازيغ بين "علم الكرْش" الذي يختص به الشعراء، و"علم الحق" الذي يمتلكه العلماء والفقهاء. يُنظر الحسين مجاهد، مرجع سابق، ص 669.

وقد يرتبط هذا الأسلوب في بناء الاستهلال باعتقاد البعض أن تشييد نص شعري هو بمثابة إنتاج للمعرفة، مما يستلزم الحذر من الوقوع في الزلل والحرص على الصدق. نقرأ على سبيل المثال قول بعضهم:

أوا بيسمي الله نوسي د لقلم غ ئفاسّن
ولا تادّوات ئنو أد أراغ نبدو سرك[44]

(باسم الله نحمل اليراع في الأيدي
ومحبرتي، كي أكتب مستهلا باسمك)

– ولا تمنع طبيعة موضوع القصيدة أن يستفتحها الشاعر بهذا الأسلوب، حيث نجد شاعرا آخر في قصيدة غزلية يحرص على أن تكون مقدمتها دينية، مع افتراض البعد المجازي في هذا التوظيف، كما في قصيدة *ئتبيرن* التي يتغزّل فيها الشاعر الحسين أمزيل[45] مستهلا إياها بقوله:

سّالام ؤعاليكم أ طّالب ن لمدرست
ؤر نري بلا أ نسّاقرا تالّوحت ئنو دارك[46]

(السلام عليك يافقيه المدرسة
لا أرغب إلا في قراءة لوحي في حضْرتك)

هكذا إذن، يقترن التوسّل بالمعطى الديني متنوّع التجليات، في الاستهلال الشعري بمجموعة من المعاني الدالة على العملية الشعرية، والواصفة لبعض مقاييسها، خاصة لحظة ولادتها. إننا إزاء بنيات دلالية تشاكلت عبر نصوص كثيرة فشكّلت بذلك معجما أو حقلا دلاليا خاصا بالخطاب الاستهلالي، يستمد قوته من مرجعيته الثقافية والدينية. يدلّ هذا على أن الشاعر في ممارسته الإبداعية يتفاعل مع المكونات القاعدية، بتعبير عبد الله بونفور، للنسق الثقافي العام في المجتمع[47]. ويمكننا التأكيد، عموما، على أن الشروط الاجتماعية والثقافية أسهمت بشكل كبير في بلورة نماذج من الاستهلالات التي تؤشر على أن المحتوى

---

[44] الشاعر محمد بن إحيا أوتزناخت.

[45] من شعراء النصف الأول من القرن العشرين، الذين اختصوا في الشعر العاطفي والغزلي.

[46] أنطولوجيا الشعر الأمازيغي، م س، ص 424.

[47] Bounfour, A. (1994), *Le nœud de la langue,* P 7.

الثقافي الذي تحمله ذاكرة اللغة الأمازيغية، كان مرجعا أساسيا يستند إليه الشاعر في رسم ملامح تجربته الشعرية. فهل يعني ذلك غياب المسلك الجمالي في نسج الاستهلال الشعري عند الشعراء الأمازيغ لصالح المعطى الديني؟

2.2. البعد الجمالي

إذا كانت المقدمات الاستهلالية فضاءات نصية يستدعي فيها الشاعر منظوره الغيبي أو الميثي تجاه العملية الإبداعية، عبر توسلاته التي أشرنا إلى نماذج منها، فإن الاستهلالات عند الشاعر الأمازيغي كانت أيضا مجالا للتعبير عن براعة الشاعر في تصريف منظوراته عبر خطاب جمالي يبسط فيه قدراته على المستوى الفني والبلاغي. فبالرغم من ضيق المساحة النصية التي يتيحها الاستهلال، إلا أن الشاعر عادة ما يُوفّق في استثمار المتاح عبر نقْل ما يريد قوله في صور فنية مركزّة المبنى مكثّفة المعنى، انسجاما مع مقتضى الإيجاز والتركيز الذي يفرضه المقام الشعري. ومن نماذج الصور البلاغية التي تؤكد ما ذهبنا إليه، نجد الصورة التي عقّب بها الشاعر بوبكر أنشاد على البسملة في استهلاله لقصيدة "صّبر" قائلا:

بيسمي الله أد أ غ ئعدل ربّي زّناد ئ وبوري[48]
أ سرسن ؤتغ ليشارت ݣر مدّن أياد غ لّيغ
(باسمك اللهم أصلح زناد بندقيتي
كي أسددها وأصيب هدفي أمام الملأ)

تتشكّل هذه الصورة المعبّر بها في الاستهلال من عناصر لسانية تحيل على حقل السلاح المستعمل في القنص أو الحرب، لكنها تتجاوز دلالاتِها اللغويةَ لتأخذ أبعادا رمزية إيحائية:

زّناد/ الزناد – *أبوري*/البندقية – *ؤتغ*/أضرب – *ليشارت*/الذخيرة – *ݣر مدّن*/بين الناس/الميدان.

هي علامات لغوية تدل على مشهد يحمل فيه الشاعر بندقيته ويستعد لإطلاق الذخيرة، في مقابل مشهد آخر يقف فيه الشاعر نفسه أمام الملأ متوجها إليهم بشعره، كما يُستشف من تقاليد النظم الشفوي. هكذا إذن، يصوّر الشاعر وقوفه أمام المتلقين ليقرض

48 أبوري، البوري، نوع من البنادق المستعملة في القنص أو الفروسية أوالحرب.

الشعر بالقناص الذي يريد أن يصطاد الطريدة، أو المحارب الذي يواجه العدوّ، يحتاج إلى سلاح جيد وذخيرة فعّالة تحقق غايته وهدفه:

- *زّناد*/ الزناد: إشارة إلى البداية والجاهزية لإطلاق الذخيرة. توازيها لحظة الاستهلال وافتتاح النظْم؛
- *وُتْغ*/ فعْل الإطلاق، إطلاق الذخيرة تجاه الهدف. يوازيه انطلاق فعل النظْم؛
- *ليشارت*/ الإشارة، نوْع الذخيرة المصَوّبة نحو الهدف. يوازيها جودة القول الشعري القائم على الرمز والإشارة؛
- *كَر ملّن*/ فضاء عملية القنص أو المعركة. يوازيه المتلقون للشعر في الميدان. وفي تحديد هذا الفضاء ينزاح بنا الشاعر عن الصورة المجازية إلى الصورة الحقيقية التي هي لحظة ولادة العملية الشعرية، وليس لحظة إطلاق الذخيرة. فالشاعر يكشف هنا عن الهدف الذي صوّب نحوه سلاحه الشعري، إنه المتلقي الذي يحرص الشاعر على إمتاعه بالجيّد من القول.

هكذا يضعنا هذا الاستهلال أمام صورة مبنية على تقابل ضمني بين مشهدين:

مشهد القنص/الفروسية/الحرب	⟷	مشهد العملية الابداعية الشعرية
↓		↓
بسالة ومهارة القناص/الفارس/المحارب		"بسالة" الشاعر وإجادته وبراعته

تستمد الصورة فعاليتها من مرجعيتها الواقعية المحسوسة. فالشاعر يرسم عملية الابداع والتلقي في هيئة مادية محسوسة مستقاة من الواقع المعيش للإنسان في محيطه (فضاء القنص.المعركة/الفروسية)، مع ما تحمله الصورة من دلالة على الشهامة والرجولة، وما تحمله من قيم النبل في ثقافة المجتمع الأمازيغي. إن قيمة هذه الصورة يمكن الاستدلال عليها بالنقيض: لنتخيّل أن الفارس/المحارب/القناص، حين يضغط على زناد بندقيته ليطلق الرصاص، فإذا بالزناد يتعطّل ويتوقف عن وظيفته، أو يحصل ارتباك أثناء عملية الضغط، ما الذي سيحدث بعد ذلك؟ لنتصور موقف المحارب في هذه اللحظة وحالته النفسية، إنها حالة من الانكسار والإحباط، وربما تُشكّل اللحظةُ لحظةَ النهاية بالنسبة إليه. فإما أن رجولته ستنهار إذا تعلق الأمر بالقنص أو الفروسية، وإما أن مصيره الموت إذا كان الأمرُ أمرَ قتال وحرب. إن هذا الموقف المنكسر هو ما يخشاه الشاعر حين يقف أمام مستمعيه، وربما يكون في مواجهة شعراء آخرين. حالة نفسية رهيبة تلك التي تصوَّرها الشاعر وهو في معركة النظم الشعري.

وفي السياق الجمالي ذاته، تندرج افتتاحية الشاعر *ḥماد بيزماون* لإحدى قصائده قائلا:

أ بيسمي الله أ سرس بدوغ نبدو نارم
أوّولّو غ ئضرفان أ غ نْكّرز ئگيلالن[49]
(باسم الله أبدأ به ثم أختبر
المحراث، كي أحرث الحقول)

فالبعد الجمالي يحضر في هذه المطلع عبر توظيف صورة شعرية مستمدة من بيئة الشاعر ومجاله الحيوي، تتشكّل من ثلاثة عناصر لغوية:

أوّولّو/المحراث + ئضرفان/ الحقول + نكّرز/ فعل الحرث

تتحول هذه العناصر في تلازُمها، إلى رمز دالّ على عملية الحرث، بما تحمله من معاني الخصوبة والإنتاج. فإذا كان الحرث حاجة حيوية بالنسبة للإنسان بوصفه مصدرا للعيش وللاستمرار (الحاجة البيولوجية)، فإنه في التوظيف الشعري، يرتقي إلى مقامات دلالية أخرى تتصل بحاجات الإنسان الغريزية والنفسية (الدلالة على الزواج، خصوبة المرأة...)، كما تتصل بالحاجات الفنية والجمالية (نظْم الشعر) كما تشهد على ذلك الذاكرة الشعرية الأمازيغية. فالشاعر في هذه الصورة أقام تقابلا ضمنيا بين عمليتين: عملية حرْث الأرض، وعملية نظْم الشعر، وكلتاهما محكومة بمقصد الإنتاج، إنتاج الغلة (الحاجة البيولوجية) وإنتاج المعنى (الحاجة الجمالية).

ويمكن التأكيد على أن مُنجَز الشعر الأمازيغي الشفوي حافل بالاستهلالات التي تزاوج بين المدخل الديني عموما، متمثلا في ما سبق إيراده، وبين الحس الجمالي القائم على التفنن في التصوير والترميز، مما يجعل البدايات والمطالع محطات شعرية لا تقل قيمة وخطورة عن باقي أقسام العمل الشعري وأجزائه.

3.2. البعد التداولي

يكتسي البعد التداولي في سجل الشعر الأمازيغي الشفوي أهمية قصوى، باعتباره ينم عن وعي الشاعر بطبيعة العمل الفني الذي هو عمل تواصلي، تواصل مع الذات ومع العالم الخارجي للذات. يتجسد هذا الوعي انطلاقا من الاعتبار الذي يوليه المبدع لمكونات العملية

[49] عمر أمرير، الشعر المغربي الأمازيغي، ص 139.

التواصلية أثناء الإبداع، مما يعزز مكانة الجانب التداولي في النص الإبداعي[50] بجانب المكونات الأخرى التي تجعل من الشعر شعرا. ومن الطبعي أن يشكل الاستهلال أحد المداخل الأساسية التي تُبرز البعد التداولي ومدى حضوره في الشعر الأمازيغي الشفوي، بما هو منطلق الاتصال والتواصل بين الشاعر والمتلقي. ويمكن التأكيد على أن المقدمة الاستهلالية في النماذج الشعرية المطروقة تنهض بمجموعة من الوظائف وفقا للعناصر الأساسية للخطاطة التواصلية:

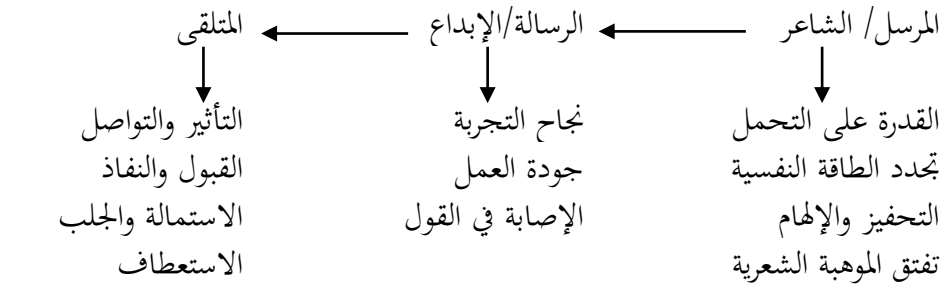

ولو عدنا إلى الحقول المعجمية التي استخلصناها في الفقرات السابقة، سنجد أن الشاعر الأمازيغي لم يكن يَنْظم الشعر منعزلا عن سياقه (سياق التلقي)، بل كان يضع نصب عينيه مقتضيات الفعل التواصلي وما يستلزمه من مراعاة للشروط الضرورية لتحقيق التواصل المطلوب. ولذلك جاءت استهلالاته (أي الشاعر الأمازيغي بشكل عام) مختزنة للمعاني والعبارات التي تفيد حرصه على فعالية خطابه الشعري ومن ثم الوصول إلى الغاية التي من أجلها يخوض غمار النظْم. إن الاستهلال هاهنا متعدد الوظائف، فعلى مستوى المرسل/الشاعر تمثل بدايةُ العمل الشعري المحطةَ التي يتزود فيها الشاعر بالمعاني التي تحفزه على النظم، وتهيء له المجال لتفجير طاقته الإبداعية، والثبات أمام الخصم (إذا تعلق الأمر بالمحاورات الشعرية) وأمام المتلقين. ولذلك يجد المبدع نفسَه مَحُوجا إلى التوسل بالمعطى الديني في تجلياته المختلفة (البسملة، التصلية، التسليم، التبرّك بالأولياء والصالحين...)، اعتبارا لما في الأمر من خطورة لا تستقيم مواجهتها إلا بخطاب ميتالغوي مطبوع بدلالات القدسية المشتركة بينه وبين المتلقين. وعلى مستوى الرسالة/الإبداع، فلا يقل حرص الشاعر عن

[50] بخصوص التداولية في علاقتها بالبعد الثقافي، يمكن الرجوع إلى محمد أديوان في كتابه النص والمنهج.

السابق، إذ يرمي من وراء الاستهلال إلى التوسل بما يضمن نفعية شعره وجودتَه، ويؤمّن تفوّقَه على أقرانه من الشعراء.

أما على مستوى التلقي، فإن الاستهلالات الشعرية تدلنا على اقتناع الشاعر بأن القوة التداولية لكلامه الشعري لا تحصل إلا في حدود ما تُحدثه عباراته ومعانيه الشعرية من تأثر وتأثير في المتلقين، أي أننا بإزاء خطاب يؤسس لعلاقات تواصلية بين المبدع والمتلقي، مما يعني أن رهان التلقي يعدّ تحديا وامتحانا للشاعر، فإما أن يكسب الأمر فيتحقق التواصل في بُعده التداولي، وإما ان يفشل فتنهار العملية الشعرية وهي في لحظة البداية. ورُبّ سائل يقول: لماذا يحتل المتلقي هذه المكانة المهيبة لدى الشاعر الأمازيغي؟ إن الأمر هنا يتعلق بنوع المتلقي وماهيته[51]، فخطاب الشاعر، بتعبير أرسطو، ليس موجها إلى سامع مثالي، بل إلى سامع نجده في الواقع. فنحن إذن لسنا أمام متلق مفترض، بل أمام متلق حقيقي، مستمع متفاعل ومشارك، بحُكم طبيعة الشعر الشفوي الغنائية والإنشادية. إن الشاعر في هذا السياق يراهن على جلب انتباه المتلقي وإثارة حفيظته حتى يجعله منخرطا في العملية الإبداعية تفاعلا واستمتاعا، مما يقتضي توظيف كل ما يتيحه السياق من إمكانات لغوية (الكلام الحسن والتعبير الشيق) وأدائية (الصوت والآلة) باعتبار أننا أمام عملية تواصلية تنفتح على الأشكال اللغوية وعلى الأنساق غير اللغوية (الإيماء والحركة والرقص)[52]. فرهان التلقي تحدٍّ يزيد من متاعب الشاعر، ويُرغمه على الاجتهاد لنيل رضى المتلقين والاستئثار بإعجابهم. وقديما عبّر أحد النقاد عن هذا المعنى في قوله "على الشاعر الحاذق أن يجتهد في تحسين الاستهلال والتخلص وبعدها الخاتمة، فإنها المواقف التي تستعطف أسماع الجمهور، وتستميلهم إلى الإصغاء"[53]. فالاستهلال بهذا المعنى له موقع جوهري ضمن استراتيجية تلقي النص الشعري، فكما أنه يؤسس لما سيأتي من كلام شعري فإنه أيضا يؤسس للعلاقة المفترضة بين الشاعر والمتلقي. ومن هذا المنطلق يحضر المتلقي في بنية الاستهلال الشعري، من خلال النماذج الشعرية الأمازيغية، بصيغ وتجليات مختلفة أهمها:

- اعتماد ضمير المخاطب (مفردا أو جمعا)، حيث يوجه الشاعر منذ بالبداية خطابه إلى المتلقي بشكل مباشر، بالتحية أو الإشادة أو الاستمالة...؛

---

[51] ينظر، محمد مفتاح، التلقي والتأويل مقاربة نسقية. وأيضا:

H.R Jauss, pour une esthétique de la réception.

[52] ينظر روبرت شولز في كتابه "السيمياء والتأويل"، ص 45.

[53] القاضي عبد العزيز الجرجاني، الوساطة بين المتنبي وخصومه، ص 51.

– توظيف المشترك القدسي أو المشترك الوجداني بين الشاعر والمتلقي، اعتبارا لما في الأمر من تأثير في النفوس، وتهيئة للأجواء، وفي ذلك ملاءَمة للاستهلال مع الذوق والعرف الاجتماعيين؛
– استعمال الصيغ والعبارات الدالة على تذوق الشعر وحلاوته، مما يؤكد إدراك الشاعر ووعيه بالبعد الوظيفي للعمل الشعري (تحقيق متعة التلقي).
– توظيف أفعال الكلام، بوصفها من سمات الإبداع الشفوي[54]، والتي يخاطب من خلالها الشاعر المتلقي قصد إحداث الأثر فيه، وتوجيهه في سياق التواصل الإبداعي.

إن الرهان على المتلقي في تجربة الشعر الأمازيغي الشفوي، نابع من كون القانون الذي يحكم نظْم الشعر وتلقيه يمنح له، أي للمتلقي، "صلاحية" أو سلطة واسعة في الحكم على العمل الإبداعي، وتحديد مستقبله، ومن ثم تعْلو قيمته أو تتهاوى، حسب استجابة المتلقي وتقييمه لهذا العمل. إن للمتلقي دورا حاسما في تحديد مصير العمل الإبداعي، فاستحسانه إياه يمنحه سلطة تجعله ينتشر ويتوسع متجاوزا المجال الإيكولوجي لقبيلة الشاعر أو قريته، وبتعبير آخر، فالمتلقي هو الضامن لاستمرار النص وبقائه، وهذا هو السرّ في العناية التي يحظى بها من قِبل الشاعر.

3. تناصية الاستهلال

نستعير هنا مفهوم التناص[55] لإثارة مسألة التعالق (الدخول في علاقة) بين نصوص الشعر الأمازيغي على مستوى الاستهلال. فالملاحظ أن هذا الشعر يبني استهلالاته وفق صيغة معرفية واحدة، تكاد تشكّل لازمة في كثير من النصوص، بفعل التناص الذي يحصل بين شعر وآخر. فإذا كان لجوء الشاعر إلى توظيف النماذج التي ذكرناها من الاستهلالات يستند إلى مبررات نفسية وثقافية واجتماعية، فإن تناصية الاستهلال في معناه ومبناه يجعلنا نفترض مبررا آخر له بعد فني، ويتعلق بحرص الشاعر على مراعاة الأعراف الفنية الخاصة بنظم الشعر. وعليه يمكن القول إن تعالق الاستهلالات وإعادة إنتاج بعضها لبعض في أحيان كثيرة، يؤكد فرضية انتقال صيغ الاستهلال أعلاه من مجرد افتتاح للعمل الشعري بمعان وعبارات مألوفة، إلى كونها نماذج بنائية صارت جزءا أساسيا مما يمكن تسميته بعمود الشعر

[54] بخصوص أفعال الكلام في الشعر الشفوي، ينظر:
- Zumthor, P. (1983), *Introduction à la poésie orale*.
- Bounfour, A. (1994), *Le nœud de la langue,* p 42.

[55] حوْل مفهوم التناص، يُنظر محمد مفتاح في كتابه "تحليل الخطاب الشعري، استراتيجية التناص، ص 119 وما بعدها.

الأمازيغي[56]. لقد تحولت بعض الجمل الاستهلالية إلى بنيات ملازمة للنصوص الشعرية، تتوالد فيها بشكل تكراري إلى الحد الذي يجعلنا في بعض الأحيان أمام إعادة إنتاج لاستهلالات سابقة.

ويمكن التمييز في سياقنا هذا بين نوعين من التناص، تناص كلي وتناص جزئي. فأما التناص الكلي فيُراد منه إعادة إنتاج استهلالات بشكل تُستدعى فيه مقاطع وأبيات شعرية يكون التصرف فيها محدودا كما في الاستهلالين الآتيين:

أ سيدي حْساين بدّ ئ رّوا نو سْنْمال اتْ
غمك أد ئنْمالا ئدّ نْ لْحائك ف ؤغانيم[57]
(يا سيدي حساين أرجوك المدد لينتظم دراسي
كما انتظمت خيوط سدى الحائك على قصبة النول)

أ لالاّ عزيزا بيدّ ئ رّوا نو سْنْميل ئتْ
مك أد ئنْمالا ووزّال ف ئمي ن لمنشار
مك أد ئنْمالا ئد ؤ حائك ف ؤغانيم[58]
(يا لالاّ عزيزة أرجوك المدد لينتظم دراسى
كما انتظمت أسنان منشار الحديد
وكما انتظمت خيوط سدى الحائك على قصبة النول)

وأما التناص الجزئي، فنقصد به الاستهلالات التي تتعالق في ما بينها على مستوى المعاني أو بعض الجمل الشعرية. وقد رصدنا هذا في كثير من مطالع النصوص الشعرية الأمازيغية، نذْكر منها على سبيل المثال التناص بين استهلالين أحدها لمحمد بن إحيا ؤتزناخت والآخر للمهدي بنمبارك:

أوا بيسمي الله نوسي لقلم غ ئفاسّن[59]
(باسم الله نحمل اليراع في الأيدي)
أ بيسمى الله نوسى د لقلوم أد كَمّيغ[60]

---

[56] ينظر، أحمد المنادي، الإلهام والتلقي في الشعر الأمازيغي، ص 35.

[57] م ن، ص 98.

[58] *Justinard, Textes chleuh de l'Oued Nfis* نقلا عن عمر أمرير، رموز الشعر الأمازيغي وتأثرها بالإسلام، ص 183.

[59] محمد بن إحيا ؤتزناخت.

(باسمك اللهم أحمل اليراع وأشرع في تعلم القراءة)

كما نذْكر أيضا التناص بين ثلاثة استهلالات على مستوى المعاني والدلالات الجزئية:

ئوا بيسمي ريغ أد داغ نكرز نمگر صّابت
ئغ ئلاّ لخير أ ئزر كيوان تادلا تلكم[61]
(باسم الله أحرث ثم أحصد
إذا جاد الخير، كل يفرح بمحصوله)

بيسمي الله ؤسيغ أكَالّو ؤكان نكرز لخير
نضالب ئ ربي أد ئكمّل صّابت أ يوجاد لْخير[62]
(باسم الله أحمل المحراث، أحرث به الخير
أسألك اللهم أن تبارك في السنابل ليكثر الخير)
أ بيسمي الله أ سرس بدوغ نبدو نارم
أوّوللّو غ ئضرفان أ غ نكّرز ئگيلالن[63]
(باسم الله أبدأ به ثم أختبر
المحراث، كي أحرث الحقول)

إن أهمية التناص في استهلالات الشعر الأمازيغي تنبع من كونه يمثل جانبا من جوانب سيرورة تشكّل البنيات الدلالية والنصية للمطلع في منظومة الإبداع الشعري الأمازيغي، على اعتبار أن النص الإبداعي وليد تجارب تتراكم عبر الممارسة الممتدة في الزمن والمجال. فكلما تواترت الأشكال والصيغ نفسُها في نماذج نصية كثيرة، كان ذلك مدعاة للشعراء اللاحقين إلى السير على نهج السابقين في طريقة بنائهم وإنشائهم لأعمالهم الإبداعية.

وإجمالا، يمكن التأكيد على أن تناصية الاستهلال في الشعر الأمازيغي تنطوي على جملة استنتاجات، يمكن تلخيصها في الآتي:

---

60 مطلع قصيدة الشاعر المهدي بن مبارك بعنوان "أسايس". المتون المدونة بأرشيف مركز الدراسات الفنية والتعابير الأدبية والانتاج السمعي البصري بالمعهد الملكي للثقافة الأمازيغية.

61 محمد بودراع، أركّاز د تمغارت، تسجيل بيضافون، رقم 99/ 097200. مدونات أحمد بوزيد، م س.

62 مطلع قصيدة أكَالو للشاعر المهدي بن مبارك، م س.

63 حماد بيزماون، م س.

– إن التناص في استهلالات الشعر الأمازيغي يعكس وعي الشاعر بأهمية السير على نهج فني محدد ضمن سيرورة تراكمية تتشكل عبرها هوية النص الشعري الأمازيغي وتاريخُه؛
– التناص إعلان عن تفاعل الشاعر القصدي مع نصوص قبْلية، هو إقرار واعتراف بالآخر، وأنْ لا شي ينطلق من فراغ، وهو ما يتوافق مع الأطروحة التي تؤكد أن تاريخ الشعرية يفيد بتأثير النصوص في بعضها، وأن على المتلقي تحديد أو إدراك الأثر الذي يخلفه نص إبداعي في آخر[64]؛
– انفتاح الاستهلالات على بعْضها، عبر آليات الحوار والتناص.

4. في تأويل الاستهلال

إن الاستهلال بالصيغ التي يرِدُ بها في الشعر الأمازيغي يُعد صورة من صور انعكاس المجتمع في النص. فكما أن الممارسات والتقاليد اليومية لها بداياتها كما في الصناعة والزراعة والحرف والمعاملات وغير ذلك، فإن للشعر أيضا بدايته التي تحْكي عن بنيات ذهنية وثقافية سائدة في المجتمع. فلا يمكن بأي حال أن نَفصل بين العمل الابداعي وبين مُنتجه فردا أو جماعة، ذلك أن الإبداع الشعري في مجتمعنا المتسم بالثقافة الشفوية "لا يخرج عن سياق الفعل اليومي المعتاد، بل هو فعل يحايثه ليشكّل لحظة أو لحظات قد ترسم للجماعة المبدعة ديمومتها عبر لغة الكلام أو لغة الرقص"[65]. فبالإضافة إلى ما يحمله الاستهلال من معان نفسية وفنية، فإنه ينطوي أيضا على وجود آصرة تربطه بالمجتمع وتركيبته الثقافية، كما هو الحال، إذا جازت المقارنة، بالنسبة للمقدمات الطللية في الشعر العربي القديم، والتي ترتبط بشكل جذري بتركيبة المجتمع العربي في الصحراء وما تفرضه من إكراهات سرعان ما تجد طريقها إلى الشعر من خلال المطالع والمقدمات.

إننا إزاء تقاليد وأعراف فنية تأسست بالتواتر عبر أجيال الشعراء، تكتسي طابعها الاجتماعي عبْر محمولاتها الدلالية القائمة على توظيف جزء من الميراث الثقافي للمجتمع، وتصريفه بشكل فني من خلال النص الشعري. ومما يعضد الترابط بين النص والمجتمع في سياق الشعر الأمازيغي، أن الابداع الشعري يبدأ إنتاجا فرديا ثم سرعان ما ينتقل إلى أن يصبح إنتاجا جماعيا، تتلقاه الأسماع وتتناقله الألسن، مع ما يعنيه ذلك من إمكانيات تأثير المتلقين في ما ينقلونه عن الشاعر. ويمكننا أن نصف نماذج الاستهلالات المدروسة بكونها

[64] Bounfour, A. (1994), *Le nœud de la langue,* p81.

[65] عبد الله هرهار، أحيدوس طقس يروي المعركة، مجلة زمان، ع 4، س 2014، ص 78.

استهلالات ثقافية واجتماعية، لكونها تحيل على خارج النص (السياق الثقافي والاجتماعي) أكثر مما تحيل على النص، ومن ثم يكون هذا الجزء من العمل الشعري جزءا من تاريخ المجتمع.

خاتمة

إن بناء أحكام فنية عامة وموضوعية يقتضي الانطلاق من دراسة مستوفية، تستقصي مجمل ما أنتجته قريحة الشعراء الأمازيغ، وهو ما لم ندّعِهِ في هذا المقالة. وحسبنا في هذه الخاتمة أن نقرّ جملة من الخلاصات التي أسعفتنا النصوص المدروسة في استنتاجها:

أولا: ينمّ تعاطي الشعراء مع مطالع نصوصهم الشعرية عن وجود وعْي بأهمية الاستهلال ودوره في تَشَكّل العمل الفني. يتضح ذلك من خلال حرصهم على التزام الأعراف الفنية الموروثة في هذا الباب. مما يعني أن الشاعر ينطلق في نَظمه من نموذج مسبق ارتسمت سننه وقوانينه في ذهنه، فصار يقرض على نهجها وطريقتها.

ثانيا: إن التراكم الذي حصل في إنتاج هذه النصوص أسّس لطريقة أو أسلوب مخصوص في بناء الاستهلالات، يعكس من جهة، ثقافة الشاعر المشدودة إلى نسق التفكير التقليدي السائد في المجتمع، ومن جهة أخرى يعكس ذهنية المجتمع وتقاليده الأخلاقية والفنية، والمرجعيات التي يستمد منها قيمه وتمثلاته.

ثالثا: قد يبدو في ظاهر الأمر أن الاستهلال، كما عرضناه، بنيةٌ مستقلةٌ منفصلة عن باقي العمل الشعري، إلا أنه رغم كونه يكتفي بحدوده التعبيرية فإنه جزء داخل الكلّ، لا يستقيم عزله عن بقية الأجزاء، لأن الإبداع بمثابة نسيج تمتد خيوطه لتربط بين أوله وآخره، مما يفترض وجود الوحدة العضوية بين أجزاء النص وإنْ كان مستقلا ببنائه الدلالي. وهذا يقتضي مزيدا من البحث في تجليات الاتصال بين مكونات النص الشعري الأمازيغي، وأشكال الانتقال والتخلص من جزء إلى الذي يليه.

رابعا: اقتران الاستهلال بالبعد الوظيفي، من خلال الوظائف النفسية والتواصلية التي يراهن عليها الشاعر في مطلع عمله الشعري. فبالإضافة إلى أن التجربة الشعرية راكمت، كما أشرنا، سَننا لبنيات الاستهلال في الشعر الأمازيغي، فإنها أيضا شكّلت أفق انتظار المتلقي وتوقعاته تجاه العمل الشعري، أي أننا أمام ميثاق للتلقي، يحْكم العلاقة بين الطرفين أثناء عملية النظْم.

بيبليوغرافيا

أديوان، محمد (2002)، الثقافة الشعبية المغربية: الذاكرة والمجال والمجتمع، الرباط، مطبعة سلمى.

أديوان، محمد (2006)، النص والمنهج، ط1، الرباط، دار الأمان للنشر والتوزيع.

أرسطو، طاليس (1979)، الخطابة، ت. عبد الرحمان بدوي، بيروت، وكالة المطبوعات بالكويت ودار القلم.

أزضوض، إدريس (مشرف)، (2011)، أنطولوجيا الشعر الأمازيغي، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، الرباط، مطبعة المعارف الجديدة.

أمرير، عمر (1975)، الشعر المغربي الأمازيغي، ط 1، الدار البيضاء، دار الكتاب.

أمرير، عمر (1985)، الشعر الأمازيغي المنسوب إلى سيدي حمو الطالب، الدار البيضاء.

أمرير، عمر (2003)، رموز الشعر الأمازيغي وتأثرها بالإسلام، ط 1، الرباط، مكتبة دار السلام.

الجرجاني، القاضي عبد العزيز(2006)، الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي،ط 1، بيروت، المكتبة العصرية.

شفيق، محمد (1993)، المعجم العربي الأمازيغي، الجزء الأول، الدار البيضاء، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، مطبعة الفن التاسع.

شولز، روبرت (1994)، السيمياء والتأويل، ترجمة سعيد الغانمي، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

العسكري، أبو هلال العسكري (1952)، كتاب الصناعتين، تحقيق علي محمد البيجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ط 1، القاهرة، دار إحياء الكتاب

القيرواني، ابن رشيق (1963)، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، ط 3، القاهرة، المكتبة التجارية الكبرى.

المجاهد الحسين (1989)، مادة "أمارك"، معلمة المغرب، ج 2، مطابع سلا.

مفتاح، محمد (1992)، تحليل الخطاب الشعري، استراتيجية التناص، ط 2، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي.

مفتاح، محمد (1994)، التلقي والتأويل مقاربة نسقية، ط 1، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي.

المنادي، أحمد (2011)، الإلهام والتلقي في الشعر الأمازيغي، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، الرباط، مطبعة المعارف الجديدة.

هرهار، عبد الله (2014)، "أحيدوس طقس يروي المعركة"، مجلة زمان، ع 4، س 78، 2014-81.

Basset, H. (2001), *Essai sur la littérature des berbères*, préface A. Boukous, Paris, éd Awal.

Bounfour, A. (1994), *Le nœud de la langue, langue, littérature et société au Maghreb*, Aix-en-Provence, Edisud.

Bounfour, A. (1999), *Introduction à la littérature berbère*, 1. La poésie, Paris, éd. Peeters.

Bounfour, A. (2005), *Introduction à la littérature berbère*, 2. Le récit hagiologique, Paris, éd. Peeters.

Jauss, H.R. (1978), *Pour une esthétique de la réception*, Paris, collection bibliothèque des idées, éd. Gallimard.

Zumthor, P. (1983), *Introduction à la poésie orale*, Paris, éd. du Seuil.

مجلة أسيناگ- □□□□□□، العدد الحادي عشر، 2016، ص 117-148

تركيب العطف في الأمازيغية*

رشيد لعبدلوي

المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية

Coordination which is realized in a variety of ways in Amazigh happens to exhibit many peculiarities when considered more carefully. Coordinators are in large measure resorted to join nouns or noun phrases. Sometimes, they behave as prepositions triggering thereby the post-placed nouns to shift from free to construct state. Coordination may also well be implemented through the use of coordinating particles between verbs and sentences or through plain juxtaposition.

This paper is meant to accommodate coordination in a whole range of amazigh varieties under the percepts of the Minimalist Program as construed in Chomsky (1989), (1992), (1995) and (2000).

The paper is an attempt to answer the following questions:

- *Do coordination particles constitute a homogenous list in amazighe?*
- *What is the categorical nature of these particles?*
- *Do coordinate elements constitute a phrase in the sense of X-bar theory?*
- *What is the syntactic process that is responsible for constituting a coordinate structure?*

1. تقديم

لا تخلو أي دراسة تركيبية من الدراسات اللسانية الأمازيغية من ذكر للعطف أو لأداواته. فبعضها يلجأ إلى بنيات العطف وسيلة لاختبار فرضية من الفرضيات وبعضها الآخر يذكر أدوات العطف ضمن جرده لمختلف الوحدات اللسانية للغة. وقليلة هي تلك التي أعطت للظاهرة ما تستحقه من البحث والتنقيب. وذلك راجع لما يميز ظاهرة العطف، ليس فقط في الأمازيغية[1]، ولكن في مختلف اللغات من تعقيد على مستوى البنية والمكونات.

* يعد هذا المقال صيغة معدلة ومحينة للمداخلة التي تقدمت بها خلال الندوة الدولية التي نظمتها كلية الآداب والعلوم

سنحاول أن نتناول في هذا المقال تركيب العطف في الأمازيغية من خلال أدواته ومكوناته وكذا بنيته. وسنستفيد مما يزودنا به البرنامج الأدنى كما طوره تشومسكي (1995 و2000) ولسانيون آخرون. وهكذا سنحاول مقاربة هذه الظاهرة عبر الإجابة عن الأسئلة الآتية :

أ. هل تشكل أدوات العطف في الأمازيغية لائحة متجانسة؟
ب. ما هي الطبيعة المقولية لتلك الأدوات؟
ج. ما هي بنية العطف في الأمازيغية؟
د. هل ينتج عن اشتقاق بنية العطف تشجير من نوع آخر يختلف عن التفريع الثنائي للفضلة أو الملحق؟
هـ. هل ينتج عن بنية العطف مقولة تركيبية جديدة غير المركب الاسمي والمركب الفعلي والجملة وغيرها من المقولات التركيبية؟

ننطلق للإجابة على الأسئلة أعلاه من فرضية تسلم بأن أدوات العطف في اللغة الأمازيغية رغم أنها تشكل طبقة مغلقة فإنها غير متجانسة من حيث سلوكها التركيبي وكذلك من حيث محتواها الفونولوجي. كما أن بنية العطف تشكل مركبا يرث طبيعته المقولية من المعطوف عليه وليس من رأس المركب الذي هو أداة العطف.

يضم هذا المقال خمس فقرات وخلاصة. خصصت الفقرة الأولى للحديث عن ظاهرة العطف في بعض اللغات الطبيعية. وتناولت الفقرة الثانية الخصائص التوزيعية والدلالية للعطف في الأمازيغية. وجاءت الفقرة الثالثة لتتطرق إلى الطبيعة المقولية لأدوات العطف. وفي هذا الإطار، صنفت إلى الحرف "**د**" ذي الطبيعة الحرفية وإلى الأدوات التي تعد روابط. وتناولت الفقرة الرابعة المقاربة المعتمدة على فرضية الحذف بخصوص دراسة العطف في اللغات. أما الفقرة الرابعة والأخيرة فتناولت مختلف البنيات الشجرية المقترحة للعطف، حيث دافعنا على البنية التراتبية للعطف .

1.1. المكونات

يحيل مصطلح العطف على بنية تركيبية تكون عناصرها من طبيعة مقولية واحدة ومن مستوى واحد ولها علاقة دلالية واحدة كذلك. وتكون عنصرين أو أكثر يربطها رابط يكون

الإنسانية بالرباط يومي 21 و22 فبراير 2013 تكريما للأستاذ الجيلالي السايب.

[1] انظر بهذا الصدد بنطوليلا (1981) Bentolila، وشاكر (1978) Chaker، والشامي (1979) Chami، وأوحلا (1988) Ouhalla، وصادقي (2004) Sadiqi.

ذا محتوى صوتي أو فارغ. وقد تكون هذه العناصر كلمات (1أ) أو مركبات (1ب) أو جمل (1ج).

(1)

أ. ارگاز **د** تمغارت
''الرجل و المرأة''

ب. ارگاز لّي ژري.غ **د** تمغارت لّي د ي.وشكا..ن
"الرجل الذي رأيت والمرأة التي جاءت"

ج. ي.ـدّا ورگاز ت.ـاشك **د** تمغارت
"ذهب الرجل وجاءت المرأة"

فأداة العطف **د** في (1أ) تعطف بين كلمتين هي أسماء، وتربط في في (1ب) بين مركبين اسميين يتكونان من رأسين اسميين وفضلة لهما عبارة عن صلة الموصول، أما في (1ج) فإن بنية العطف عبارة عن عطف جملتين. وما يوحد بين هذه التراكيب مكوناتها الثلاثة ، وهي العنصران المعطوفان والرابط بينهما. ونطلق عليها المصطلحات التالية:

– المعطوف وهو العنصر الذي يلي الرابط وقد يتعدد؛
– المعطوف عليه ولا يكون إلا واحدا؛
– أداة العطف التي تجسد علاقة العطف[2]، وهذه الأداة قد يكون لها محتوى فونولوجي أو تكون فارغة. وإذا كان لها محتوى فقد تتكرر بتكرار المعطوف.[3]

وتتشكل مختلف تراكيب العطف من هذه العناصر أو المكونات. وتجسد الأمثلة التالية ذلك :

(2)

أ. ارگاز **ولا** تامغارات
"الرجل والمرأة"

ب. ارگاز **نغ(د)/غدّ** تامغارت

[2] هناك تراكيب العطف في اللغة الأمازيغية لا تتوفر على أداة العطف خاصة حين يتم عطف فعل على فعل أو بالأحرى جملة على جملة. وسنتناول ذلك بتفصيل فيما سيأتي.

[3] نلاحظ ورود جمل في الأمازيغية المكتوبة لا ترد فيها أداة العطف إلا مع المعطوف الأخير إن تعددت المعطوفات وذلك إما تأثرا بالعطف في الفرنسية والإنجليزية أو ترجمة من إحدى هاتين اللغتين. ويحدث الشيء نفسه في العربية الحديثة.

"الرجل أو المرأة"

2.1. العطف وتنميط اللغات

تتوفر كل اللغات على بنيات العطف إلا أنها تتباين في أوجه تحقيقه، فتصنف حسب نوع الأداة وتوزيعها وموقعها وعددها في نفس التركيب. أما من حيث توزيع أداة العطف فإننا نجد :

- لغات تستعمل أداة واحدة لعطف مختلف أجزاء الكلام مثل الإنجليزية والعربية؛
- لغات تعتمد الاختصاص في أداة العطف حيث لكل مقولة أداة خاصة بها مثل اليابانية؛
- لغات تعتمد أداة خاصة وأخرى عامة مثل الأمازيغية والهاوسا.

وتصنف اللغات كذلك حسب تحقق الأداة (ظهور وعدم الظهور من جهة وأحادية الأداة أو ثنائيتها من جهة أخرى). فهناك لغات تستلزم هذه الأداة مثل الإنجليزية والعربية الفصحى فيما تعتمد لغات أخرى التجاور دونما حاجة إلى أداة محققة فونولوجيا مثل عطف الأفعال في الأمازيغية. كما تختلف اللغات من حيث اعتمادها رابطا واحدا أو أداتين واحدة ترتبط بالمعطوف وأخرى بالمعطوف عليه. وقد تتوفر لغة واحدة على نوعين من العطف : عطف أحادي الأداة وعطف ثنائي الأداة مثلما نجد في الإنجليزية (هاسبيلمات Haspelmath (2007)) .

وقد تختلف اللغات بخصوص موقع أداة العطف وارتباطها بالمعطوف أو المعطوف عليه. فالأمازيغية والعربية والإنجليزية والفرنسية تتوفر على أدوات ترد بين المعطوف والمعطوف عليه، وترتبط بالمعطوف أكثر من ارتباطها بالمعطوف عليه (انظر الفقرة 2.2.5 حول البنية التركيبية). بينما ترتبط الأداة في لغات أخرى بالمعطوف عليه، أو تكون ثنائية فترتبط واحدة بالمعطوف والثانية بالمعطوف عليه (انظر هاسبيلمات (نفس المرجع)).

2. أنواع العطف في الأمازيغية

1.2. المقولات المعطوفة

يُميز في طبيعة المقولات التي يمكن أن تخضع للعطف بين ما يأتي :

- الاسم كما في الأمثلة الواردة في (3)

- الصفة كما في الأمثلة (4)
- الفعل كما في (5) و(6)
- الحرف[4] والظرف كما في (7)

(3) **الاسم**

أ. ارگاز **د** تمغارت
''الرجل و المرأة''

ب. ارگاز **ولا** تامغارت
''الرجل و المرأة''

ج. ارگاز **نغد/غدّ** تامغارت
''الرجل أو المرأة''

(4) **الصفة**

أ. ومليل **د** وزگّاغ
''أبيض وأحمر''

ب. ومليل **ولا** ازگّاغ
''أبيض وأحمر''

ج. ومليل **نغد/غدّ** ازگّاغ
''أبيض أو أحمر''

(5) **الفعل**

أ. يـ. شّا يـ. سوا
''أكل وشرب''

ب. يـ. شّا ار يـ. سّا
''أكل ويشرب''

جـ. يـ. شّا يـ. سو
''أكل فشرب''

[4] ليس كل المركبات الحرفية قابلة للعطف في الأمازيغية فالمركبات الحرفية التي تأتي على رأسها حروف غير "دار" أو "غور" لا يمكن عطف بعضها على بعض.

د. يـ.ـشّا **نغد/غدّ** ور يـ.ـشّي
''أكل أم لم يأكل''
(6)

أ. يـ.ـتتّ **وخا** يـ.ـتطّص
''يأكل ثم ينام''

ب. اد يـ.ـشّ **وخا** اد يـ.ـطّص
''سيأكل ثم ينام''
(7) الحرف والظرف

أ. دار ورگاز **د** دار **تمغارت**
''عند الرجل وعند المرأة''

ب. دار ورگاز **ولا** دار **تمغارت**
''عند الرجل وعند المرأة''

ج. دار ورگاز **نغد/غدّ** دار **تمغارت**
''عند الرجل أو عند المرأة''

د. دّو وغاراس **د** نّيگ وغاراس
''تحت الطريق وفوق الطريق''

هـ. دّو وغاراس **ولا** نّيگ وغاراس
''تحت الطريق وفوق الطريق''

و. دّو وغاراس **نغد/غدّ** نّيگ وغاراس
''تحت الطريق أوقوق الطريق''

ويُلاحظ أن الأسماء يمكن أن تُربط بالأداة "**د**" و"**ولا**" و"**نيغ**" ، ويصدق نفس الشيء على الصفة. في حين لا يمكن أن يعطف بين الفعلين إلا الأداة "**نيغ**" أو "**وخا**"، **وقد يكون** العطف بالتجاور. أما الظروف فإنها كالأسماء. أما بخصوص الحروف فإن المركب الحرفي الوحيد الذي يمكن أن يلي أداة العطف فهو المركب الذي يكون على رأسه **دار** "عند" أو **غر** "عند".

2.2. دلالة العطف أو أنواع العطف

تدل أدوات العطف في الأمازيغية على الجمع أو الاختيار. ويعد العطف بالجمع محايدا لأنه يدل في حد ذاته على الجمع. فأن تعطف شيئا على شيء آخر هو أن تجمع بينهما. ويدل هذا النوع من العطف على إضافة شيء لشيء آخر أو على تتابعهما. وفيما يلي أمثلة تجسد ذلك :

(8) **العطف بالجمع**

أ. ارگاز **د** تمغارت
''الرجل و المرأة''

ب. ارگاز **ولا** تامغارت
''الرجل و المرأة''

ج. يـ.ـشَّا يـ.ـسو
''أكل وشرب''

د. ار يـ.ـشـ.ـتَّا ار يـ.ـسَّا
''يأكل ويشرب''

ويعد عطف مركبين اسميين عبر الأداة **د** أبسط تعابير العطف. و يتم العطف بالجمع كذلك عبر الأداة "ولا" كما في (8ب) أعلاه. أما عطف الجمل أو الأفعال فيتميز بخاصيتين : الأولى غياب أداة العطف، والثانية الصيغة المحايدة للفعل الثاني (8ج). لكن يمكن أن يكون للفعلين معا صيغة واحدة (8د).

وخلافا للعطف بالجمع الذي يعد عطفا بالإضافة فإن العطف بالاختيار يعد فصلا بين الشيئين المعطوفين. وتلجأ الأمازيغية للأداة "نغد" في العطف بالاختيار. وتنطق [غدّ] في بعض المناطق و [نغ] في مناطق أخرى، وتختص الأولى بالأسماء فيما تكون الثانية متبوعة بالفعل أو مقولة أخرى غير الفعل.

(9) **العطف بالاختيار**

أ. ارگاز **نيغد** تامغارات
''الرجل أو المرأة''

ب. يـ.ـسوا **غدّ** يـ.ـشّا
"شرب أو أكل"

ج. ومليل **نغد**/**غدّ** ازگّاغ
"أبيض أو أحمر"

ويعد حضور الأداة **نغد** "أو" ضروريا في العطف بالاختيار مع جميع المقولات.

3. الطبيعة المقولية لعناصر العطف

تسلم مختلف الدراسات التركيبية التي تناولت العطف في اللغات (مون (1987 و1992 و1993) Mun، ووولفورد (1987) Woolford، وكولينز (1988) Collins، وكين (1994) Kayne، وجوهانيسن (1998) Johannessen ، وزورنير وديك (1968) Dik ، وبروكوفاك (1998) Progovac) باعتبار أدوات العطف رؤوسا لمركب العطف. لكن ما تصطدم به هذه المسلمة هو أن هذه الرؤوس ليست لها خصائص مقولية تحدد بموجبها طبيعة هذا المركب مثلما نجد في المركبات الأخرى كالمركب الاسمي والمركب الفعلي والمركب الحرفي وغيرها من المركبات سواء منها ذات الرؤوس المعجمية أو ذات الرؤوس الوظيفية. كما نجد أن هذه الأدوات ليست لها طبيعة متجانسة في كل اللغات وداخل لغة من اللغات. فهل أدوات العطف لها طبيعة مقولية واحدة في الأمازيغية؟ أو ليست لها طبيعة مقولية؟ أم منها ما ينتمي إلى مقولة معينة ؟ ثم إذا كانت لها طبيعة مقولية، هل تدخل ضمن المقولات المعجمية أم ضمن المقولات الوظيفية؟

سنحاول مقاربة هذه الأسئلة بناء على السلوك التركيبي لأدوات العطف في الأمازيغية ومقارنتها بالسلوك التركيبي لمختلف المقولات في هذه اللغة.

ننطلق في مقاربتنا للطبيعة المقولية لأدوات العطف في الأمازيغية من مسلمة مفادها أن أدوات العطف ليست متجانسة في جميع اللغات، كما أنها ليست متجانسة مقوليا داخل بعض اللغات. حيث تتوفر بعض اللغات على أداة تعطف بها جميع المقولات مثل and في الإنجليزية وet في الفرنسية و واو العطف في العربية. وتتوفر لغات أخرى على أداة لعطف كل مقولة على حدة كما هو الحال بالنسبة لليابانية (زهانج (2009:45) Zhang) بناء على ما جاء في يامادا ويكاراشي (1967) Yamada & Igarashi، وكليتمان (1965) Gleitman، وتاي (1969) Tai). ولمعالجة هذه الأدوات، في حالتنا، نقوم بتصنيفها إلى ثلاثة أنواع : الأداة "د" والأداتان "ولا" و"نغدّ" وغيرها ثم الأداة الفارغة.

فالأداة الأولى لها سلوك تركيبي خاص يختلف عن سلوك باقي الأداوت أما الأداة الفارغة فإنها لا تكون إلا مع الأفعال.

1.3. الأداة "د" وطبيعتها الحرفية

1.1.3. العطف والمعية

إن أول من أثار إشكالية طبيعة الحرف "**د**" في الأمازيغية هو باصي Basset (1952) الذي انتهى إلى أن هذا الحرف لا يكون في الأمازيغية إلا للمعية نافيا أن تكون للأمازيغية أداة عطف تدل على الجمع additive. لنختبر هذا الافتراض في ضوء ما تزودنا به المعطيات التالية :

(10)

أ. يـ دّا ورگاز **د** تمغارت
''ذهب الرجل والمرأة''
''ذهب الرجل مع المرأة''

ب. يـ ـدَّا علي نتَّا **د** باباس
''ذهب علي هو وأبوه''

جـ. يـ ـمّودَّا س وگادير **د** ترودانت
''سافر إلى أكادير وتارودانت''

د. تـ ـلّا توگا غ دّو وغاراس **د** نّيگ وغاراس
"يوجد العشب تحت الطريق وفوقها"

إذا تأملنا الأمثلة الموجودة في (10) فإننا نجد أن المثالين (أ وب) يحتملان قراءتين : المعية والعطف. فإما أن اركاز "الرجل" و تامغارت "المرأة" في (10 أ) قد ذهبا معا أو أن أحدها ذهب بمعية أو بمرافقة الآخر. الشيء نفسه بالنسبة لـ "علي " و "أبوه". أما (10 ج ود) فلا يمكن تأويلهما إلا تأويل العطف. ومن ثم فإن افتراض باصي (1952) غير صحيح.

2.1.3. الانتقاء المقولي المقيد لـ "د"

لا يمكن للأداة **[د]** "و" عطف فعلين، بل إنها لا تجمع إلا اسمين أو ما تتوفر فيه سمة الاسمية وهي :

- الاسم كما في (11أ)
- الضمير المنفصل كما في (11 ب)
- الضمير الإشاري كما في (11ج)
- ضمير الملكية كما في (11د)
- المركب المصدري كما في (11هـ وو)
- الصفة كما في (11 ز)
- الظرف كما في (11 ح)

(11)

أ. ارگاز **د** تمغارات
"الرجل والمرأة"

ب. كيِّي **د** نتَّا
"أنت وهو"

ج. ۋالِّي **د** تالِّي
"ذلك وتلك"

د. ۋينك **د** وينس
"ما هو لك وما هو له"

هـ. سّنـ.ـغ يس يـ.ـدَّا علي **د** يس د يـ.ـوشكا براهيم
"أعلم أن عليا ذهب وأن ابرهيم جاء"

و. مانتا يـ. دّا.ـن **د** مانتا ا د يـ.ـوشكا.ـن؟
"من ذهب ومن جاء؟"

ز. دّو تركَا **د** نّيگ تركَا
"تحت الساقية وفوقها"

3.1.3. حالة الاسم بعد "د"

إن أول ما يمكن ملاحظته في الأسماء التي تأتي بعد الأداة "د" هي حالتها الإلحاقية. وهي الحالة التي تسم الأسماء التي تأتي بعد الحروف الأخرى مثل "س" و"غ" و"خف" و"دار" و"غر" و"كر" و"ن" و"ي" وغيرها من الحروف.

(12)

أ. تامغارت **د** ورگاز
''المرأة والرجل''

ب. ارگاز **د** تمغارت
''الرجل والمرأة''

جـ. علي **د** ورگاز
''علي والرجل''

د. علي **د** اگاز
''علي رجل''

ففي التراكيب أعلاه، باستثناء (12د)، تأتي كل الأسماء التي بعد "د" في حالة إلحاق. هذه الخاصية هي التي تميز "د" العطف عن "د" الإسناد. فإذا قارنا بين (12ج) و(12د)، نجد الأولى تركيب عطفي حيث الاسم الذي بعد الأداة في حالة إلحاق أما التركيب الثاني فهو عبارة عن جملة اسمية حيث الاسم الذي بعد "د" في حالة إرسال ومن ثم فهو أداة إسناد.

4.1.3. الاتصال بالضمائر

تشكل الضمائر المتصلة طبقة لها سلوك تركيب خاص في اللغة الأمازيغية[5]، وتعد الحروف من بين العناصر التي تتصل بها :

(13)

أ. نكِّي ديك/ديداك
''أنا وإياك''

[5] انظر بخصوص الضمائر في الأمازيغية أوحلا (1988) Ouhalla، ولعبدلوي (1997 و2010)، وبوخريص (1998) Boukhris.

ب. كِيِّي ديدس/ديس
''أنت وإياه''

ج. نكِّي ديون/ديدون
''أنا وإياهم''

إذا تأملنا الأمثلة الموجودة في (13) نجد أن العنصر "د" قد اتصلت به نفس الضمائر التي تتصل بالحروف الأخرى مثل "س " و"غ" و"ن" ...إلخ.

5.1.3."د" والمركب الحرفي

لا يأتي بعد أداة العطف "د" حرف أو مركب حرفي، كما تبين التراكيب الآتية:
(14)
أ. تيگمِّي ن ورگاز **د** تمغارت
''دار الرجل و المرأة''

ب.*تيگمِّي ن ورگاز **د** ن تمغارت

جـ. تيگمِّي ن ورگاز **د** تين تمغارت
''دار الرجل ودار المرأة''
(15)

أ. يـ ـلَّا ودخشام گ براهيم **د** علي
''ابراهيم وعلي مريضان بالزكام"

ب. *يـ ـلَّا ودخشام گ براهيم **د** گ علي
(16)
أ. يـ ـدَّا دار/غر براهيم **د** علي
''ذهب عند ابراهيم وعلي''

ب. يـ ـدَّا دار/غر براهيم **د** دار/غر علي
''ذهب عند ابراهيم وهند علي''

لا تنتقي الأداة "د" إلا المركب الحرفي الذي يرأسه الحرف غر أو دار كما في المثال (16)، فلا يمكن أن ينتقي المركب الحرفي الذي يكون رأسه ن (الإضافة) كما يدل على ذلك لحن

التركيب (14 ب) وسلامة التركيبين (14 أ وج)، ونفس الشيء بالنسبة للحرف گ / غ كما في (15).

نستخلص انطلاقا من السمات التي تحدثنا عنها في الفقرات السابقة أن الأداة "د "حرف ويؤدي وظيفة العطف.

2.3. الروابط

بالإضافة إلى الحرف "د" الذي يأتي للعطف بين الأسماء ويدل على الجمع، تتوفر الأمازيغية على أدوات أخرى للعطف وهي:

- [ولا] وتدل هي الأخرى على العطف بالجمع وتعطف بين الأسماء أو ما يحمل سمة الإسمية كما في (17 أ وب وج) كما تعطف بين الأفعال في سياق النفي (17د)[6].

(17)

أ. ارگاز **ولا** تامغارت
"الرجل والمراة"

ب. نتَّا **ولا** كيِّي
"هو وأنت"

ج. ؤاد **ولا** تاد
"هذا وهذه"

د. دار براهيم **ولا** دار علي
"عند ابراهيم وعند علي"

هـ. تين براهيم **ولا** تين علي
"التي لابراهيم والتي لعلي"

و. ور يـ. بيدّ **ولا** يـ. گيؤر

6 تحقق هذه الأداة في تاريفيت **وارا** عوض ولا (مضيان (2013)).

''لم يقف ولم يجلس''

كما تعطف بين المركبات الحرفية باستثناء التركيب الإضافي (18ج).

(18)

أ. يساول س براهيم **ولا** س خدّوج
"تكلم مع ابراهيم ومع خدوج"

ب. يـ ـلَّا گ تدَّارت **ولا** گ تيمزگيدا
"يوجد في المنزل وفي المسجد"

ج. *تادَّارت ن براهيم **ولا** ن خدّوج
"منزل ابراهيم وخدوج"

(19)

أ. تادَّارت ن براهيم **ولا** خدَّوج
''دار ابراهيم وخدوج''

ب. يـ ـساول س براهيم **ولا** خدّوج
''تكلَّم مع ابراهيم وخدوج''

ج. يـ ـلَّا گ تدَّارت **ولا** تيمزگيدا
''يوجد في الدار وفي المسجد''

(20)

أ. يوف اد خدمغ س يفاسّن د يضارّن **ولا** ار تتّرغ
"أن أعمل باليدين والرجلين ولن ألجأ إلى التسول"

ب. اد مّتغ **ولا** دّوليغ
"أن أموت أحسن من الذل"

وتفيد الأداة [ولا] في الجملتين الأخيرتين التعارض.

- **[نيغ]** التي لها صور صواتية مختلفة فتتحقق إما [نيغ] أو [نغدّ] أو [غدّ] حسب المناطق، وهي تتكون من [نيغ] وأداة الإسناد [د]. وتأتي في العطف لتدل على الاختيار كما تبين الأمثلة (21) و(22) و(23).

(21) **نيغ/نغد/غدّ**

أ. ارگاز **نغدّ** تامغارت
''الرجل أو المراة''

ب. كيّي **نغدّ** نتّا
''أنت أم هو''

جـ. ڤاد **نغدّ** تاد
''هذا أوهذه''

د. يـ. بيدّ **نغدّ** يـ. گيڤور
''وقف أو جلس''

هـ. دار براهيم **نغدّ** دار علي
''عند ابراهيم أو عند علي''

و. تين براهيم **نغدّ** تين علي
"لابراهيم أو لعلي''

(22)

أ. *تادَّارت ن براهيم **نغدَّ** ن خدّوج
"منزل ابراهيم أو منزل خدوج"

ب. يـ.ساول س براهيم **نغدَّ** س خدّوج
"تكلم مع ابراهيم أومع خدوج

جـ. يـ.لَّا گ تادَّارت **نغدَّ** گ تمزگيدا
"يوجد في المزل أم في المسجد"

(23)

أ. تادَّارت ن براهيم **نغدَّ** خدَّوج
''دار ابراهيم أو خدوج''

ب. يـ ـساول س براهيم **نغدَّ** خدّوج
"تكلَّم مع ابراهيم أو خدوج "

ج. يـ ـلَّا گ تداَّرت **نغدَّ** تيمزگيدا
"يوجد في الدار أو في المنزل"

إذا قارننا هاتين الأداتين بالأداة [د] السالفة الذكر لا يمكن اعتبارهما حروفين، فهما لا تنتقيان مقولة معينة، كما أن الاسم بعدهما لا يكون في حالة إلحاق، ولا يرد ضمير متصل بعدهما.

3.3. العطف بالتجاور

تعتمد الأمازيغية في الجمع بين تنفيذ حدثين أو فعلين أو ترتيبهما زمنيا على التجاور كما في (24). وقد اعتبر ميتان (1988) Mithun أن هذه الخاصية من خصائص اللغات الشفوية.

(24)

أ. يـ ـشَّا يـ ـسوا
"أكل وشرب"

ب. ار يـ ـشتَّا ار يـ ـسَّا
"يأكل ويشرب"

ج. يـ ـشَّا يـ ـسو
"أكل ثم شرب"

4. العطف والحذف

افترض كل من كليتمان (1965) Gleitman وتاي (1969) Tai فرضية الحذف لبنية العطف. واقترحا أن العطف ناتج عن عملية حذف انطلاقا من بنية جملية. لهذا أطلقا على هذه الفرضية، فرضية جملية للعطف Clausal Conjunct Hypothesis (انظر زهانك (Zhang (2009:65). إلا أن هذه الفرضية تصطدم منذ البداية بكون كل المركبات يمكن

عطف بعضها على بعض مما يصعب تعميم الفرضية لتشمل كل التعابير المعطوفة كما تبين الأمثلة التالية:

(25)

أ. يـ ـسغا حمّو تيگمّي **ولا** طاموبيل
"اشترى حمو المنزل والسيارة"

ب. يمّودّا حمّو **ولا** براهيم
"سافر حمو وإبراهيم

ج. يـ ـسغا طاموبيل مقورن **ولا** تامڤيانت
"اشترى السيارة الكبيرة وكذلك الصغيرة"

د. يـ ـكّا د دار باباس **ولا** دار عمّيس
"كان عند أبيه وعند عمه"

كما نجد أن هذه الفرضية لا تنطبق على بعض المعطيات مثل عطف المركبين الاسميين أو أكثر في موقع الفاعل وما يطرأ من تغيير على اللاصقة التطابقية للفعل حسب موقع المعطوفات. وفيما يلي أمثلة لذلك :

(27)

أ. يـ ـسغا حمّو **ولا** براهيم تيگمّي
"اشترى حمو وابراهيم المنزل"

ب. يـ ـسغا حمّو **ولا** براهيم **ولا** علي تيگمّي
"اشترى حو وابراهيم وعلي المنزل"

ج. تسغا تيهيا **ولا** براهيم تيگمّي
"اشترت تيهيا وابراهيم المنزل"

(28)

أ. حمّو **ولا** براهيم سغان تيگمّي
"حمو وابراهم اشتريا المنزل"

ب. حمّو **ولا** براهيم **ولا** علي سغان تيگمّي
"حمو وإبراهيم وعلي اشتروا المنزل"

ج. تيهيا **ولا** براهيم سغان تيگمّي
"تيهيا وإبراهيم اشتريا المنزل"

إن تطبيق الفرضية الجملية على الجمل (27) تقضي أن تكون مشتقة من الجمل (29) التالية :

(29)
أ. يسغا حمّو تيگمّي **ولا** براهيم يسغا تيگمّي
"اشترى حمو المنزل وإبراهيم اشترى المنزل"

ب. يسغا حمّو تيگمّي **ولا** براهيم يسغا تيگمّي **ولا** علي يسغا تيگمّي
"اشترى حمو المنزل وإبراهيم اشترى المنزل وعلي اشترى المنزل "

ج. يسغا حمّو تيگمّي **ولا** تيهيا تسغا تيگمّي
"اشترى حمو المنزل وتيهيا اشترت المنزل"

لكن تطبيق عملية الحذف ينتج عنه بنيات وسيطة هي (30) التالية :

(30)
أ. يسغا حمّو تيگمّي **ولا** براهيم
"؟اشترى حمو المنزل وإبراهيم"

ب. يسغا حمّو تيگمّي **ولا** براهيم ولا علي
"؟اشترى حمو المنزل وإبراهيم وعلي"

ج. يسغا حمّو تيگمّي **ولا** تيهيا
"؟اشترى حمو المنزل وتيهيا"

حيث يتم في البداية حذف الحمل لتنتج عنه الجمل (30)، ثم بعد ذلك ينتقل المعطوف مع الأداة لمجاورة المعطوف عليه. بالإضافة إلى كون هذه العملية معقدة فإن التركيب لا يوفر لنا مبررا للعملية الأخيرة وهي النقل مما يشكك في كفاية هذه الفرضية. المسألة الأخرى هي كيف يتم الانتقال من بنيات جملة إلى بنيات معطوفة في الجمل الموجودة في (28) خاصة أنها تتطلب عملية إضافية وهي تغيير مطابقة الفعل. ففي (28 (أ) و(ب)) تم الانتقال من المفرد المذكر إلى الجمع المذكر أما في (28 (ج)) فقد تغيرت المطابقة من المفرد المؤنث إلى الجمع المذكر. ثم ماذا لو كان المعطوف والمعطوف عليه يشغلان وظيفة غير الفاعل ؟ نضيف

إلى هذه الأمور عدم إمكانية امتداد الفرضية لتشمل بنى عطفية في لغات أخرى من قبيل الجمل التالية في العربية والإنجليزية :

(31)

أ. أكل محمد وعلي الخبز والتفاح على التوالي

ب. Tom and Jane eat bread and crackers respectively/ Tom eats bread and Jane eats crackers

كل هذه الأمور دفعتنا إلى التخلي عن فرضية الحذف واعتماد فرضية المركب وليس الجملة لمقاربة العطف في اللغة الأمازيغية.

5. بنية العطف

1.5. أي بنية للعطف؟

بناء على مجموعة من الدراسات التي تناولت العطف في اللغات يمكن تصنيفها إلى ثلاث فرضيات؛ وهي فرضية البنية المسطحة، وفرضية بنية الإلحاق، وأخيرا فرضية تكوين مركب مستقل.

اقترح كل من بلومفيلد Bloomfield (1933: 185) وباخ Bach (1964 : 67) وتشومسكي Chomsky (1965: 12–13) وديك Dik (1968) وبيتيرسون Petersen (2004) ودجونسون Johnson (2008) البنية المسطحة للعطف كما في (32) أسفله. حيث نلاحظ أن العلاقة بين المعطوف والمعطوف عليه وأداة العطف علاقة مماثلة، إلا أن المعطيات اللغوية كما سنرى لاحقا تبين العكس.

(32)

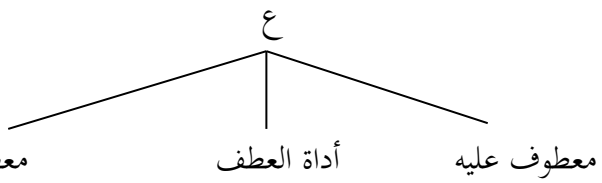

كما أن التفريع المتعدد ضعيف نظريا (كين Kayne (1984) وتشومسكي (1995) وتشومسكي ولاسنيك Chomsky & Lasnik(1991). إضافة إلى أن مبادئ الاقتصاد على التمثيلات تفضل التفريع الثنائي على التفريع المتعدد.

وتجسد البنية (33) أسفله التفريع الثنائي لبنية العطف كما اقترحها كل من كولينز Collins (77 :1997) وزهانج Zhang(11 :2009) .

(33)

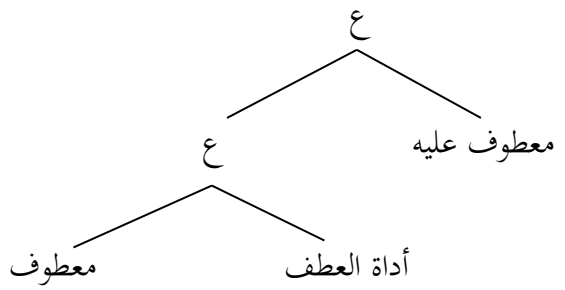

ففي البنية أعلاه نلاحظ تراتبية بين مكونات بنية العطف، حيث المعطوف عليه يسبق ويعلو الأداة والمعطوف. فهل هذه البنية تشكل في مجملها مركبا جديدا أم أنها عبارة هن بنية ملحقة ؟ قبل الإجابة عن هذين السؤالين سنقدم مجموعة من الحجج لصالح التفريع الثنائي.

2.5. دفاعا عن التفريع الثنائي لبنية العطف

نلاحظ في البنية (33) أن بنية العطف تتكون من مركب، حسب خطاطة نظرية المقولات التركيبية (تشومسكي 1970، 1981، 1995)، رأسه أداة عطف، ويشغل المعطوف عليه موقع المخصص فيما يشغل المعطوف موقع الفضلة. فموقع المعطوف وموقع المعطوف عليه غير متناظرين. كما أن علاقة الأداة بالمعطوف ليست بنفس مستوى علاقته بالمعطوف عليه. ومن بين الروائز التي تزكي عدم التناظر بين المعطوف والمعطوف عليه نجد :

- اقتران الضمير داخل المعطوف بالمعطوف عليه؛
- التطابق؛
- الإضمار.

أما الروائز التي تزكي ارتباط الأداة بالمعطوف فهي :

- تكرار الأداة بتعدد المعطوفات؛
- التوقف على المعطوف عليه قبل نطق الأداة والمعطوف عليه؛
- انطباق بعض القواعد الفونولوجية التي تجمع بين الأداة والمعطوف.

1.2.5. عدم تناظر العلاقة بين عناصر العطف

1.1.2.5. الربط

يمكن للمعطوف أن يتضمن ضميرا ويكون مربوطا بالمعطوف عليه والعكس غير ممكن . لنقارن بين (35) و(36):

(35)

أ. ارگاز **د** ييوّيس
''الرجل وابنه''

ب. ارگاز **ولا** يوّيس
''الرجل و ابنه''

ج. ارگاز **نيغد** يوّيس
''الرجل أم ابنه''

*د. يوّيس **ولا** ارگاز

*هـ. يوّيس **نيغد** ارگاز

فالمعطوف عليه يمكن أن يربط الضمير الموجود داخل المعطوف وهو ما جعل التراكيب (35 (أ) و(ب) و(ج)) سليمة إلا أن العكس غير ممكن مما أدى إلى لحن التركيبين (35 (د) و(هـ)) حين يتم ربط الضمير الموجود في المعطوف عليه بالمعطوف. وهي نفس الإمكانية التي نجدها مع الفاعل والمفعول. فبما أنهما غير متناظرين فإن الفاعل يمكن أن يربط الضمير داخل المفعول ولا يمكن العكس كما في المثالين التاليين :

(36)

أ. ينغا ونافال يخف نس
"قتل الأحمق نفسه"

ب. *ينغا يخف نس انافال
"*قتل نفسُه الأحمقَ"

2.1.2.5. التطابق

حين نتأمل البنية (37) نلاحظ أن الفعل يتطابق مع المعطوف عليه إذا كانت بنية العطف بعد الفعل لأن موقع المعطوف عليه أقرب إلى الفعل من المعطوف. أما إذا تقدمت بنية العطف عن الفعل فإن التطابق يكون مع البنية ككل.

(37)

أ. يـ ـدّا ورگاز **د** تمغارت
''ذهب الرجل والمرأة''

ب. تـ ـدّا تمغارت **د** ورگاز
''ذهبت المرأة والرجل''

جـ. ارگاز **د** تمغارت دّاـن
''الرجل والمرأة ذهبا''

د. تامغارت **د** ورگاز دّاـن
"المرأة والرجل ذهبا"

3.1.2.5. الإضمار

من بين الروائز التي تدل على ثنائية التفريع في بنية العطف وارتباط الأداة بالمعطوف أكثر، نجد إمكانية عدم التناظر بخصوص ربط المعطوف عليه لضمير الملكية في المعطوف كما الأمثلة التالية :

(38)

أ. تيگمّي ن موح **د** تين براهيم
"منزل موح ومنزل ابراهيم"

ب. ابريد ن وگادير **د** وين تزنيت
"طريق أكادير وطريق تيزنيت"

ج. تيگمّي ن موح **نيغ** تين براهيم
"منزل موح أو منزل إبراهيم"

د. تيگمّي ن موح **ولا** تين براهيم
"منزل موح ومنزل إبراهيم"

ولا يمكن للمعطوف عليه أن يكون ضميرا للملكية يربط المعطوف كما في لحن الأمثلة التالية :

(39)

*أ. تين موح **د** تيگمّي ن براهيم
*ب. وين وگادير **د** وبريد ن تزنيت
*ج. تين موح **نغد** تيگمّي ن براهيم

هذا يدل على عدم التناظر بين المعطوف والمعطوف عليه وهو نفس العلاقة التي تنشأ بين الفاعل والمفعول كما في المثالين التاليين :

(40)

أ. تسلي طاموبيل$_{ع}$ ن حمّو تين$_{ع}$ براهيم
"لمست سيارة حمو سيارة إبراهيم"
*ب. تين$_{ع}$ حمّو تسلي طاموبيل$_{ع}$ ن براهيم

فالفاعل والمفعول غير متناظرين ومن ثم نجد لحن البنية الثانية وسلامة البنية الأولى. فالفاعل يمكن أن يقترن بالضمير الموجود داخل المركب الاسمي المفعول (40أ)، لكن لا يمكن للمفعول أن يقترن بالضمير الموجود في المركب الاسمي الفاعل (40ب).

2.2.5. ارتباط الأداة بالمعطوف أكثر من المعطوف عليه

1.2.2.5. التكرار

من بين الروائز التي تدل على ارتباط أداة العطف بالمعطوف أكثر من ارتباطها بالمعطوف عليه تكرار أداة العطف مع تعدد المعطوفات كما في الأمثلة لتالية :

(41)

أ. ارگاز **د**تمغارت **د** وفروخ **د** تفروخت
''الرجل والمرأة والولد والبنت''

ب. ارگاز **ولا** تامغارت **ولا** افروخ **ولا** تافروخت
''الرجل والمرأة والولد والبنت''

د. ارگاز **نيغ** تامغارت **نيغ** افروخ **نيغ** تافروخت
''الرجل أوالمرأة أوالولد أوالبنت"

وهذه الخاصية لا تنفرد بها الأمازيغية، ففي العربية مثلا، يتكرر واو العطف وأدوات أخرى بتكرار المعطوف ويبقى المعطوف عليه واحدا.

2.2.2.5. التوقف

قد يتوقف المتكلم عند النطق بالمعطوف عليه قبل النطق بأداة العطف والمعطوف عند تعدد هذا الأخير كما في المثال (42) :

(42)

أ. ارگاز، **د** تمغارت، **د** وفروخ
''الرجل والمرأة والولد ''

ب. ارگاز، **ولا** تامغارت، **ولا** افروخ
''الرجل والمرأة والولد''

ج. ارگاز، **نيغ** تامغارت، **نيغ** افروخ
''الرجل أوالمرأة أوالولد''

3.2.2.5. انطباق الإدغام

تبرهن قاعدة الإدغام على ارتباط أداة العطف بالمعطوف أكثر من المعطوف عليه، بحيث تولد الأداة والمعطوف أسفل المعطوف عليه. فنجد انطباق قاعدة الإدغام بين الصامت [ت] الأول في صرفة التأنيث مع الأداة "د" إذا كان الاسم المؤنث معطوفا لكن لا يدغم الصامت الثاني [ت] لنفس الاسم إذا كان معطوفا عليه كما في الأمثلة التالية :

(43)

أ.ارگاز **د** تمغارت [تّمغارت]
"الرجل والمرأة"

ب. افروخ **د** تفروخت [تّفروخت]
"الولد والبنت"

ج. تامغارت **د** ورگاز *[تامغارتّ]
"المرأة والرجل"

د. تافروخت **د** وفروخ *[تافروختّ]
"البنت والولد"

فالأمثلة أعلاه تبين إمكانية إدغام الأداة مع الاسم المؤنث إذا كان معطوفا لكن لا يمكن إدغام نفس الاسم مع الأداة إذا كان معطوفا عليه.

إن الحجج التي ذكرناها تدل على أن العطف يعتمد التفريع الثنائي لمكوناته. ويشكل المعطوف عليه مكونا فيما تشكل الأداة والمعطوف مكونا آخر. وتكون للعطف البنية التالية :

(44)

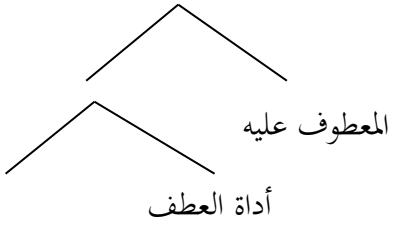

إن اعتماد البنية أعلاه ينتج عنه أن عناصر هذه البنية تشكل مركبا يتكون من ثلاثة مواقع هي الرأس والمخصص والفضلة. وإذا كان الأمر كذلك فما هي طبيعة هذا المركب ؟ وهل يمكن الحديث عن مركب عطف ؟

3.5. طبيعة مركب العطف

ما توصلنا إليه خلال الفقرات السابقة هي أن بنية العطف بنية تراتبية تشكل مركبا تحتل فيه أداة العطف موقع الرأس فيما يشغل المعطوف عليه موقع المخصص والمعطوف موقع الفضلة. لكن ما لم نحدده هو طبيعة هذا المركب، علما أن الطبيعة المقولية للمركب يحددها الرأس. لكن ما نلاحظه بالنسبة لبنية العطف هي أنها تأخذ الطبيعة المقولية للمعطوفات وليس لأداة العطف. ونهدف خلال هذه الفقرة إلى تحديد الطبيعة المقولية للمركب الذي تشكله بينة العطف.

1.3.5. العطف ونظرية المقولات التركيبية

تبعا للمسلمة التقليدية حول المقولات التي مفادها أن المقولات الكبرى للغة مخصصة بالسمات المقولية [±س، و±ف]، يكون الاسم مخصصا بـ [+س، -ف] والفعل بـ [-س، +ف] والصفة بـ [+س، +ف] والحرف بـ [-س، -ف] (تشومسكي (1970 و1986)).

اعتمدت بعض الأعمال اللسانية مثل بيسيتسكي (1982) Pesetsky، ومون (1993) Mun، وكين (1994) Kayne، وكولينز (1988) Collins، وجوهانيسن (1998) Johannesen وآخرون فرضية مفادها أن أدوات العطف رؤوس كباقي المقولات. ومن أهم خصائص المركبات أن طبيعتها المقولية تحددها الرؤوس. غير أن أدوات العطف لا تؤثر في الطبيعة المقولية لبنية العطف بل ما نلاحظه هو أن هذه الطبيعة تحددها العناصر المعطوفة. وبناء عليه فمن المستبعد عنونة المركب الذي ترأسه عناصر العطف بمركب عطف تبعا لمون (1987) Mun وجوهانيسن (1998) Johannesen لأن هذا المركب غير مبرر تركيبيا. فكل بنية عطف تكون إما مركبا اسميا أو مركبا فعليا أو غيرها من المركبات الموجودة معجمية ووظيفية (زهانج (2004) Zhang).

ونحن مطالبون بتبرير تعميم بورزليي (1994 : 226) Borsley القاضي بأن تعكس الطبيعة المقولية لبنية العطف طبيعة المعطوف و/أو المعطوف عليه. وهذا ما سنحاول تفصيله خلال الفقرات الفرعية الموالية. وسننطلق من مسلمة نظرية مفادها أن أي بينة عطف لابد لها من طبيعة مقولية حتى تكون مبررة تركيبيا أو على الأقل تكون وظيفتها مبررة. فلا يمكن مثلا لبنية العطف أن تشغل وظيفة نحوية ما لم تتخصص بالسمات الاسمية.

2.3.5. أداة العطف بخصائص انتقائية : "د" والمركب الاسمي

انطلاقا مما رأيناه في الفقرة 3. 1. عن الأداة "د" من حيث خصائصها التركيبية فإنها ترأس مركبا حرفيا وتأخذ المعطوف فضلة لها. أما البنية ككل فهي عبارة عن مركب اسمي يكون المركب الحرفي فضلة للاسم. لتكون هذه البنية مماثلة لبنية الإضافة التي يكون على رأس المركب الحرف [**ن**] كما تبين على التوالي البنيتان (45 أ) و(45 ب).

(45)

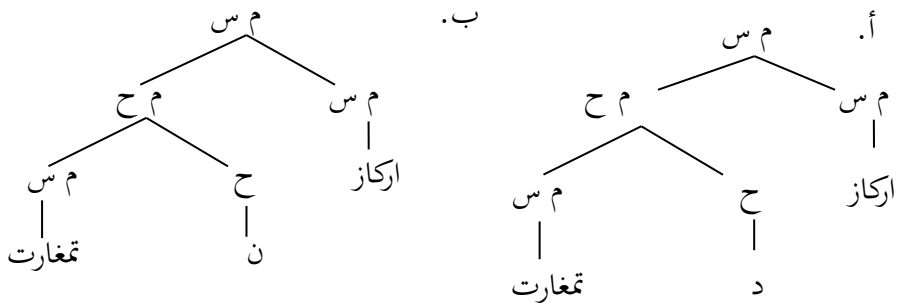

3.3.5. أدوات بدون خصائص انتقائية

لقد رأينا في الفقرة الفرعية (3. 2.) أن مجموعة من أدوات العطف ليس لها خصائص انتقائية بحيث يمكن أن تعطف مختلف المقولات المعجمية والوظيفية. وهذه الأدوات هي : "ولا"، و"نغ"/"غدّ" كما في الأمثلة التالية :

(46)

أ. ارگاز **ولا** تامغارت
"الرجل والمرأة"

ب. ارگاز **نيغ** تامغارت
"الرجل أو المرأة"

ج. يـ.وف اد يدّو **ولا** يـ.گّاور
"أن يذهب خير من أن يبقى"

د. يدّا **نيغ** يـ.گّاور
"ذهب أم بقي"

هـ. دّو وغاراس **ولا** نّيگ وغاراس
"تحت الطريق وفوقها"

و. دّو وغاراس **نغد** نّيگ وغاراس
"تحت الطريق أو فوقها"

ولا تنفرد الأمازيغية بهذا النوع من الأدوات، فأدوات العطف في العربية تعطف بين مختلف المقولات. كما أن الأداة and في الإنجليزية، وet في الفرنسية لهما نفس السلوك

فإذا قارنا هذه الأدوات بالمقولات الأخرى في اللغة مثل المقولات المعجمية أو الوظيفية، نجد هذه الأخيرة مقيدة من حيث المقولات التي تنتقيها. فالحرف مثلا لا ينتقي فعلا فضلة له، كما أن المصدري لا ينتقي إلا الصرفة وهذه الأخيرة لا تنتقي إلا فعلا والفعل ينتقي مركبا اسميا أو جملة وهكذا.

ومن خلال ذلك فإن البنية التي تشكلها العناصر المعطوفة تحمل الطبيعة المقولية الاسمية أو الفعلية أو غيرها من مقولات اللغة. ومن ثم لا يمكن الحديث عن مركب عطفي كمركب معجمي أو كمركب وظيفي. وإنما نتحدث عن مركب فعلي أو مركب اسمي.

6. خلاصة

سعى ى هذا المقال إلى الإجابة عن الأسئلة التي طُرحت في المقدمة من خلال النقط الآتية :

- تشكل أدوات العطف طبقة غير متجانسة في اللغة الأمازيغية، فهناك الحرف وهناك أدوات أخرى ليس لها سمة مقولية وإنما ترث هذه السمة من المعطوف عليه ثم أخير هناك أداة عطف فارغة.
- إن بنية العطف مثلها مثل بنية المركبات الأخرى في اللغة وتختلف عنها بخصوص كون المركب الناتج عن هذه البنية لا تتحدد طبيعته المقولية بناء على خصائص الرأس.
- تكون بنية العطف مركبا اسميا يأخذ مركبا حرفيا فضلة له، وترأسه الأداة "**د**" التي لها نفس خصائص الحروف في الأمازيغية.
- وترث بنية العطف الطبيعة المقولية للمعطوف عليه إذا كان الرابط غير الأداة "**د**"، فتكون إما مركبا اسميا أو مركبا مصدريا أو مركبا صرفيا.

البيبليوغرافيا

Anderson Carol (1983). Generating Coordinate Structures with Asymmetrical Gaps, *Chicago Linguistic Society (CLS)* 19: 3–14.

Aoun Joseph and Elabbas Benmamoun (1999). Further Remarks on First Conjunct Agreement, *Linguistic Inquiry* 30: 669–681.

Artstein Ron (2005). Coordination of Parts of Words, *Lingua 115* (4): 359–393.

Aspinion Robert (1953). *Apprenons le berbère. Initiation aux dialects chleuhs*. Rabat, Félix Moncho.

Bach Emmon (1964). *An Introduction to Transformational Grammars*. New York: Holt, Rinehart & Winston.

Baker Mark (2003). *Lexical Categories : Verbs, Nouns and Adjectives*. Cambrige Studies in Linguistics 102.

Basset André (1952). *La langue berbère*. International African Institute, London.

Bentolila Fernard (1981). *Grammaire fonctionnelle d'un parler berbère, Ait Seghrouchen d'Oum Jeniba (Maroc)* ; SELAF-Paris.

Bloomfield Leonard (1933). *Language*. New York: Holt, Rinehart & Winston.

Borsley Robert D. (2004/5). **«** Les coordinations relèvent-elles de la syntaxe X-barre »**.** *Langages* 160 : 25-41.

Borsley Robert D. (2005). Against ConjP, *Lingua* 115(4): 461–482.

Borsley Robert D. (1994). In Defense of Coordinate Structures, *Linguistic Analysis* 24: 218 -246.

Bresnan Joan and Hoskuldur Thr´ainsson (1990). A Note on Icelandic Coordination, in Joan Mailing and Annie Zaenen (eds.), *Syntax and Semantics 24: Modern Icelandic Syntax*, San Diego: Academic Press, 355–365.

Cadi Kaddour (2006). *Transitivité et diathèse en tarifite : analyse de quelques relations de dépendances lexicale et syntaxique*. Publications de l'Institut Royal de la Culture Amazighe. Rabat.

Chaker Salem (1978). *Un parler berbère d'Algerie (kabyle) : Syntaxe*. Thèse de doctorat d'Etat. ParisV.

Chami Mohamed (1979). *Un parler du Rif Marocain : Approche phonologique et morphologique*. Thèse de doctorat de 3ème Cycle, Paris V.

Chomsky Noam (1965). *Aspects of the Theory of Syntax*. MIT Press, Cambridge, MA.

Chomsky Noam (1970). Remaques sur la nominalisation. *In Question de Sémantique*. Ed. Seuil, Paris.

Chomsky Noam (1981). *Lectures on Government and Binding*. Dordrecht: Foris.

Chomsky Noam (1986b). *Barriers*. MIT. Monograph 13. Cambridge Mass.

Chomsky Noam (1989). Some Notes on Economy of Derivation and Representation. *In Laka & Mahajan (eds)*, 43-74.

Chomsky Noam (1993). A Minimalist Program for Linguistic Theory, in K. Hale and S. J. Keyser (eds.), *The View from Building 20*, Cambridge, MA: MIT Press, 1–52.

Chomsky Noam (1995). *The Minimalist Program*. Cambridge, MA: MIT Press.

Chomsky Noam (2008). On Phases. In Robert Freidin, Carlos Otero, and Maria-Luisa Zubizarreta (eds.), *Foundational Issues in Linguistic Theory*, Cambridge, MA: MIT Press, pp. 133–166.

Chomsky Noam. & Haward Lasnk (1991). Principles and Parameters Theory. in J. Jacobs & al. (eds.). *Syntax : An International Handbook of Contemporary Research*.

Collins Christopher (1988a). Part 1. Conjunction Adverbs. ms., MIT.

Collins Christopher (1988b) Part 2. Alternative Analysis of Conjunction. ms., MIT.

Fukui Nuki. & Speas Margarette (1986). Specifiers and Projections. *In MIT working Paper 8* ; departement of linguistics and philosophy. MIT. Cambridge Mass, 128-172.

Galand Lionel (2002). *Etudes de linguistique berbère*. Leuven-Paris, Peeter (collection linguistique publié par la Société de linguistique de Paris).

Gleitman Lila (1965). Coordinating Conjunctions in English, *Language 41*: 260–293.

Haspelmath Martin, (2007). Coordination, in Shopen Timothy ed. *Language Typology and Syntactic Description. Volume II*, 2nd edition ; Cambridge.

Inquiry 27: 661–676.

Ivan A. Sag (2004/5). La coordination et l'identité des termes. *Langages 160* : 110-127.

Johannessen Janne Bondi (1996). Partial Agreement and Coordination, *Linguistic Inquiry 27: 661-676*.

Johannessen Janne Bondi (1998). *Coordination*. Oxford: Oxford University Press.

Johnson Kyle (2008). The View of QR From Ellipsis, in Kyle Johnson (ed.), *Topics in Ellipsis*, Cambridge: Cambridge University Press: 69–94.

Kayne Richard (1994). *The Antisymmetry of Syntax*. Cambridge, MA: MIT Press.

Laoust Emile (1936). *Cours de berbère marocain, dialecte du Souss du Haut et de l'Anti-Atlas*. 2ème édition, Sociéte d'éditions géographiques, maritimes et coloniales, Paris.

Mithun Marianne (1988). The Grammaticalization of Coordination, in J. Haiman and S. A. Thomson (eds.), *Clause Combining in Grammar and Discourse*, Amsterdam: John Benjamins: 331–360.

Moudian Souad (2013). La coordination en Tarifit, in A. Boumalk & R. Laabdelaoui (Coord.) *Faits de syntaxe*, actes du colloque international organisé par le Centre de l'Aménagement Linguistique IRCAM, Rabat, 09-10 novembre 2009. Publications de l'IRCAM: 173-181.

Munn Alan (1987). Coordinate Structure and X-bar Theory, *McGill Working Papers in Linguistics* 4.1: 121–140.

Munn Alan (1992). A Null Operator Analysis of ATB Gaps, *The Linguistic Review* 9: 1–26.

Munn Alan (1993). *Topics in the Syntax and Semantics of Coordinate Structures*, Doctoral dissertation, University of Maryland, College Park.

Ouhalla, Jamal (1988). *The Syntax of Head Movement, a study of Berber*. Doctoral dissertation, University College . London.

Pesetsky David (1982). *Paths and Categories*, Doctoral dissertation, MIT.

Peterson Peter G. (2004). Coordination : Consequences of a Lexical-Functional Account . *Natural languge and linguistic theory 22* **:** 243-279.

Progovac Ljiljana (1998a). Structure of Coordination, Part 1, *GLOT International 3(7)*:3–6.

Progovac Ljiljana (1998b). Structure of Coordination, Part 2, *GLOT International 3(8)*: 3–9.

Ross, John Robert (1967). *Constraints on Variables in Syntax*, Doctoral dissertation, MIT.

Sadiqi Fatima (2004). *Grammaire du berbère*. Afrique Orient.

Tai James H.-Y. (1969). *Coordination Reduction*, Doctoral dissertation, Indiana University.

Taylor John R. (1995). *Linguistic Categorization: Prototypes in linguistic Theory*. Second edition, Clarendon, Press Oxford.

Woolford Ellen (1987). An ECP Account of Constraints on Across-The-Board Extraction, *Linguistic Inquiry* 18: 166–171.

Yamada S. and I. Igarashi (1967). Co-ordination in Transformational Grammar, *Zeitschrift f¨ur Phonetik, Sprachwissenschaft und Kommunikationsforschung* 20: 143–156.

Zhang Niina Ning (2004a). Move is Remerge, *Language and Linguistics* 5(1): 189–209.

Zhang Niina Ning (2004b). Against Across-the-Board Movement, *Concentric: Studies in Linguistics* 30: 123–156.

Zhang Niina Ning (2006). On the Configuration Issue of Coordination, *Language and Linguistics 7-1* : 175-223.

Zhang Niina Ning (2009). *Coordination in Syntax*. Cambridge Studies in Linguistics 113.

Zhang Niina Ning (2010). Explaining the Immobility of Conjuncts, *Studia Linguistica* 64 (2) : 190-238.

عروض

تعريب الدولة والمجتمع بالمغرب الأقصى خلال العصر الموحدي

رحمة تويراس، باحثة في التاريخ الوسيط- الرباط

صدر سنة 2015 عن مؤسسة الإدريسي الفكرية للأبحاث والدراسات كتاب بعنوان "**تعريب الدولة والمجتمع بالمغرب الأقصى خلال العصر الموحدي**" للباحثة رحمة تويراس. ويضم الكتاب 319 صفحة، وهو في أصله أطروحة دكتوراه في التاريخ نوقشت بجامعة محمد الخامس بالرباط سنة 2004. تناول الكتاب موضوع التعريب خلال العصر الموحدي والعوامل التي أنتجت هذا الواقع التاريخي، دون أن يغفل المكانة التي كانت للّغة الأمازيغية في إرساء أسس هذه الدولة.

يضم الكتاب أربعة أبواب، مَهَّد بابه الأول للعوامل التي ساهمت في انتشار اللغة العربية قبل العصر الموحدي؛ فتناول فصله الأول تاريخ المجموعات البشرية التي صنعت الخريطة اللغوية لمجتمع مغرب العصر الوسيط، بدءا بالأمازيغ الذين استوطنوا المنطقة منذ أقدم العصور، ثم العرب الذين توافدوا على بلاد المغرب منذ الفتح الإسلامي إلى العصر المرابطي، فشكل بذلك أهم وسيلة للتعريب، دون إغفال مساهمة العناصر القيروانية والأندلسية. أما الفصل الثاني من هذا الباب، فخصص لإبراز دور المدن في مسلسل التعريب. فالعناصر العربية الأولى المهاجرة استوطنت المدن والأمصار باعتبارها مراكز جذب لنخبة الفقهاء والعلماء، والتي كان لها دور في تنظيم الإدارة والتعليم. وهكذا ظهر التعريب في المدن قبل البوادي، ولم يمتد إلى هذه الأخيرة إلا لاحقا مع قدوم القبائل العربية الهلالية.

خصص الباب الثاني لدراسة عوامل أخرى مؤثرة ساهمت تدريجيا في صنع هذا الواقع التاريخي. فاهتم الفصل الثالث بدراسة دور المؤسسات الدينية والتعليمية في نشر اللغة العربية مثل المسجد، والكتَّاب، والرباطات. ويدل انتشار هذه المؤسسات على احتكاك الناس باللسان العربي، خصوصا أنها مؤسسات شعبية تتصل بعامة الناس، بل تضافرت وتكاملت فيما بينها لتدعم إشعاع اللغة العربية، لكن أدوارها كانت غير متكافئة، واختلفت من وقت لآخر. أما الفصل الرابع فيتعلق بمسألة انتحال الأمازيغ للنسب العربي، وهي ظاهرة لا نجد لها مثيلا عند الشعوب الأخرى. وقد تم الوقوف على العوامل التي أسست لفكرة القرابة ضمن سلسلات النسب، مع إقامة علاقة افتراضية بين هذا الانتحال والتعريب، إذ يحتمل أن

تكون هذه العلاقة لبنة من اللبنات التي أسست لموقف ايجابي من التعريب، لأنه قد يكون ساهم في تقبل اللغة العربية. وانصب الاهتمام في الفصل الخامس على حلقة أخرى من حلقات التعريب، وهي الاندماج في الثقافة العربية. ويبدو أن هذا الاندماج تحكمت فيه إرادة الخلفاء والعلماء، والصلات الثقافية، وعلاقات التجاذب التي ربطت بين المغرب الأقصى وباقي أقطار المشرق الإسلامي، حيث شكلت الرحلة العلمية جسرا مرت عبره الثقافة العربية في شكلياتها ومضامينها، لتصبح بعد ذلك مؤهلا أساسيا لشغل المناصب الكبرى.

أما الباب الثالث، فركز على دراسة تعريب الدولة الموحدية، ويحتوي على الفصلين السادس والسابع. وقف الأول على دور الدولة في إرساء هياكل تنظيمية كانت السيادة فيها للغة العربية التي ظلت مرعية في الشؤون الإدارية. وحظي ديوان الرسائل بأهمية خاصة ساهمت في استمرار ترسيخ اللغة العربية لغةً للكتابة، وكذا هيئة الحُفّاظ التي أنشئت لتخريج كفاءات ذات خبرة ودراية في مجال التدبير. ولا شك أن هذا الإجراء ساهم في تعزيز الإدارة الموحدية بعناصر ذات ثقافة عربية. وتناول الفصل السابع المؤثرات المختلفة والوسائل التي استخدمتها الدولة الموحدية لتطوير الثقافة في قالبها العربي، وكذا مجهوداتها في استعمال اللسان الأمازيغي سواء على المستوى الديني أو الرسمي.

خصص الباب الرابع لتعريب المجتمع خلال العصر الموحدي، عبر رصد بنيته وتحديد العناصر السكانية المشكلة له في كل من المدينة والبادية. ففي الفصل الثامن، تم التركيز على متابعة مسلسل تهجير القبائل العربية ورصد تحركاتها ومناطق نفوذها. وقد كان إنزال العرب الهلالية بالسهول والأرياف الدفعة التي أعطت للتعريب قوته، خاصة على المستوى المجالي. وبما أن المنطقة عرفت ما يكفي من الحركية السكانية، خاصة أواخر الحكم الموحدي عندما فقدت السلطة الموحدية جل مقوماتها، مما شجع القبائل الهلالية على الانتشار والتحرك، فإن هذه التحركات كان لها عميق الأثر في انتشار اللغة العربية وحمولتها من أعراف وتقاليد. كما تم توضيح الظروف التي ساهمت في تعريب المدن الموحدية، حيث جاءت الهجرة الأندلسية لتتجه بالمجتمع الحضري من جديد نحو التعريب. وتناول الفصل التاسع العامية المغربية خلال العصر الموحدي. وتم الاعتماد في هذا الباب على بعض الجمل التي وردت في كتاب أخبار المهدي للبيذق، وعلى بعض الأزجال المتفرقة. أما الفصل العاشر والأخير، فكان النظر فيه مركزا على دراسة أسماء الأماكن (الطوبونيميا)، التي عكست الواقع التاريخي السالف الذكر. وقد تم الوقوف على أعلام أمازيغية محرفة وفق النطق العربي، وكذلك على أعلام عربية، مما يفصح عن واقع بشري ولغوي جديد عرفه المغرب الأقصى خلال العصر الوسيط.

الهوية واللغة ومراحل التحول بالمغرب الوسيط

قراءة في كتاب: جذور وامتدادات، الهوية واللغة والإصلاح بالمغرب الوسيط، للأستاذ محمد القبلي[1]

يضم الكتاب[2] بين دفتيه سبعة مقالات وملحقاً سبق أن أسهم بها المؤرخ محمد القبلي في مناسبات علمية مختلفة، ونشرت متفرقة، ثم جمعها في هذا الكتاب، وتكوّن في مجموعها خمسة وتسعين صفحة، وهي:

1- نحو مقاربة أولية لمراحل البحث في تاريخ المغرب الوسيط؛
2- حول بعض مرتكزات الهوية في تاريخ المغرب الأقصى الوسيط؛
3- حول التبدل والاستمرارية بمغرب العصر الوسيط؛
4- حول بعض جذور الوضع اللغوي الحالي بالمغرب؛
5- حول الإصلاح وإعادة الاصلاح بالمغرب الوسيط؛
6- الدولة والولاية بالمغرب الأقصى في منتصف العصر الوسيط؛
7- المجتمع بين الإصلاح والابتداع بالمغرب الاقصى الوسيط؛
8- ملحق من كتاب المعيار المُعرب.

ونظراً لغنى هذه الأبحاث وعمقها وتنوعها، فقد ارتأيت الاقتصار على عرض المقالات الأربع الأولى لصلتها بموضوع ملف هذا العدد من مجلة أسيناگ.

المقالة الأولى: نحو مقاربة أولية لمراحل البحث في تاريخ المغرب الوسيط:

استهل المؤلف هذه المقالة بالإشارة إلى أن من "ألصق الضوابط المتصلة بوضع حصيلة مّا أن يتم الاعتناء بتوطين المجال الذي يهم هذه الحصيلة، مع استحضار أبرز المواصفات المحددة التي تؤطره"[3]. ثم أبرز مراحل البحث في تاريخ المغرب الوسيط وحصرها في ثلاث:

---

[1] – أستاذ التاريخ الوسيط، ومدير المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب.

[2]- القبلي، محمد: **جذور وامتدادات، الهوية واللغة والإصلاح بالمغرب الوسيط**، منشورات دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، ط1، 2006، 95 صفحة، ص. 7.

[3] – القبلي، محمد: **جذور وامتدادات**، ص. 7.

1. مرحلة الاستكشاف:

وقد كان من أهدافها: "ضبط الواقع عن طريق المعرفة"، استناداً إلى فرضيات قائمة على مجموعة من الثنائيات (السهل والجبل، والعرب والبربر، والزوايا والمخزن، وانعزال المغرب النافع عن بقية البلاد...)، مع الاهتمام بجوانب أخرى من تاريخ المغرب الوسيط، مثل الحفريات والمسكوكات والنقوش والفن المعماري...، والعناية بالتراث المخطوط جمعاً وفهرسةً وترجمة بعضه الى اللغة الفرنسية. وقد بصم هذه المرحلة باحثون فرنسيون من مثل: ليفي بروفنسال (E. L. Provençal)، وجورج مارسي (G. Marçais)، وكولان (G. S. Collin)، وهنري تيراس (H. Terrasse)، وروني باسّي (R. Basset) وغيرهم.

وشهدت نهاية هذه المرحلة ظهور بعض المشاريع المونوغرافية لبعض الباحثين الفرنسيين، من أمثال: روجي لوترنو (R. Le Tourneau)، وگاستون دوفيردان (G. Deverdun)، وجاك بيرك (J. Berque)، وجاك مونيي (J. Meunié). مع الإشارة الى أن باحثين إسبان اهتموا بشمال المغرب وكانت لهم نفس العمليات الاستكشافية، مع تباين في الكثافة والإمكانيات، وكان منهم: گارسيا گوميز (E. G. Gomez)، گونزاليس بالانسيا (G. Palencia)، ومنينديز بيدال (R. M. Pidal)، وبوش فيلا (B. Vila)، وأمبروسيو هويسي ميراندا (A. H. Miranda) وآخرون.

أما الباحثون المغاربة، فقد ظهرت لبعضهم بعض الأعمال المونوغرافية، وإن كانت لا تلتزم بالعصر الوسيط زمناً لها، فقد "مهدت لما سوف يتلوها مباشرة من تموقع الباحث المغربي خارج الخطاب المعرفي السائد لدى مؤرخي الحماية"[4]. ومنها أعمال محمد الكانوني، وعبد الرحمان بن زيدان، والعباس بن إبراهيم، الذين عرّفوا بمآثر وأعلام مسقط رأسهم. وما يميز هذه المرحلة أن البحث بمعناه المعاصر لم يكن متوفرا لدى المغاربة بالنسبة لتاريخ المغرب الوسيط.

2. مرحلة الانطلاق والتموقع:

قدم المؤلف تحقيقَ الأستاذ محمد بن تاويت لمقدمة ابن خلدون، سنة 1951، نقطةَ البدء في هذا الاتجاه. كما اختار لنهايته توقف مجلة (تطوان) عن الصدور، سنة 1971، أو بداية التأليف "التيمي" التركيبي مع نشر الأستاذ محمد بنشقرون لأطروحته عن "الحياة الثقافية المغربية في عصر المرينيين والوطاسيين"، سنة 1974 باللغة الفرنسية.

---

[4] – القبلي: **جذور وامتدادات**، ص. 10.

ومن مميزات هذه المرحلة:

أ. تعدد المنابر التي تنشر باللغة العربية (صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، 1954، ومجلة تطوان، 1956، ومجلة البحث العلمي، 1964، ومجلة هسبيريس تمودا، 1960)؛

ب. الاتجاه نحو تحقيق النصوص الوسيطية ونشرها (محمد بن تاويت الطنجي، ومحمد بن تاويت التطواني، وعبد الله كنون، ومحمد إبراهيم الكتاني، ومحمد الفاسي، وعبد القادر الصحراوي، ومحمد زنيبر، وعبد الوهاب بنمنصور، وعبد الهادي التازي، ومحمد بنشريفة، وسعيد أعراب، وآخرون)؛

ت. الاهتمام بالأعمال الببليوغرافية (عبد السلام بنسودة، ومحمد بن إبراهيم الكتاني، ومحمد المنوني...).

هذا ما يتصل بالإنتاج المغربي في موضوع تاريخ المغرب الوسيط، أما الإنتاج الفرنسي في الموضوع ذاته، فقد اتخذ له توجهات أخرى تأثرت بما عرف بظاهرة "التاريخ الجديد"، أو "مدرسة الحوليات"، كما تجسده أعمال جاك بيرك، وجون بونسي (J. Poncet)، وبيرنار روزنبرجي (B. Rosenberger). في حين حاولت المدرسة الإسبانية التوفيق بين التأليف والتحقيق (فرناندو دو لاكرانخا (F. De La Granja)، وماريا خيسوس فيكيرا (M. J Veguera)، ومانويلا مارين (M. Marin)، وميرسيديس كارسيا أرينال (M. G. Arenal)).

أما البحث الانكلوسكسوني فقد عرف بدوره انطلاقاً في ذات المجال، واعتمد المقاربة الانتربولوجية في دراسة القضايا ذات البعد الديني والاجتماعي، وكذا عامل الكم في تناول بعض الظواهر الاجتماعية. ومن رواد هذا الاتجاه: إرنست گلنير (E. Guellner)، وجون هوبكنز (J. E. P. Hopkins)، ومايكل دولس (M. Dols)، ومايا شاتز ميلير (M. Shatzmiller).

وما يجمع مختلف المدارس الأوروبية خلال هذه الفترة هو اتجاه البحث المتقيد بالضبط الببليوغرافي والتوثيق والقراءة المقارنة للمصادر. ومن ممثليه البارزين: تادوز ليفيتشكي (T. Lewicki)، وروبير برانشفيك (R. Brunchvig)، وهويسي ميراندا، وروجي لوترنو..

3. مرحلة الاستشكال والمراجعة:

هي نتيجة لسابقتها وامتداد لبعض نواحيها، ذلك لأنها ستوظف النصوص الجديدة المحققة خلالها، مع ما يصاحب ذلك من "إثراء التساؤل وتعميق النظرة للأشياء (...)

فتصبح بذلك فترة استشراف وتأمل واستشكال وتجاوز في نفس الوقت"[5]. وتميز الباحث المغربي خلال هذه المرحلة بتحقيق ونشر نصوص جديدة[6]، وإعادة النظر في بعض النصوص التي سبق تحقيقها خلال المرحلتين السابقتين والعمل على تحقيقها من جديد[7].

صاحَب هذا التوجه اهتمام بقضايا مختلفة من تاريخ المغرب بحقبه المختلفة، وضمنها العصر الوسيط، نشأ في كنف الجمعية المغربية للبحث التاريخي مع منتصف ثمانينات القرن العشرين، يروم "ارتياد تاريخ المجتمع بمعناه الواسع المتشعب المؤدي حتماً الى اعتماد عدة مقاربات مندمجة متداخلة"[8]، وتناول قضايا ذات صلة بالدين والسياسة والذهنية والتجارة والبنى والذاكرة والكرامة والولاية والشرف...[9]، واهتماماً بالمدينة[10]، وبمجال المغرب الوسيط، وبالتحركات البشرية وأثرها في تطور الأوضاع بشكل عام[11].

وقبل ختم مقالته، سجل المؤلف بعض الملاحظات:

- أهمية الكتابة التاريخية التقليدية للحقبة الوسيطية، وإفادتها للكتابة التاريخية الجديدة؛
- ارتقى التعاون بين باحثين من المغرب وفرق بحث أجنبية بمعرفة تاريخ المغرب وادمجه ضمن نسق حضاري أوسع؛
- ساعدت إمكانيات فرق البحث الأجنبية على إنجاح عملية التعاون، كما سهلت إقامة باحثين مغاربة ببعض الجامعات ومراكز البحث الأجنبية عملية التواصل؛

---

[5] - القبلي: **جذور وامتدادات**، ص. 15.

[6] - **ملعبة الكفيف الزرهوني** (تحقيق محمد بنشريفة)؛ **المقصد الشريف** للبادسي (سعيد أعراب)؛ **دعامة اليقين** للعزفي (أحمد التوفيق)؛ **المنتقى المقصور** لابن القاضي (محمد رزوق)؛ **المعيار المعرب** للونشريسي (محمد حجي)؛ **فيض العباب** للنميري (محمد بنشقرون)..

[7] - **اختصار الأخبار** للأنصاري (عبد الوهاب بن منصور)؛ **السلسل العذب** للحضرمي (مصطفى النجار)؛ **البيان المغرب** –قسم الموحدين– لابن عذاري (محمد ابراهيم الكتاني وآخرين)؛ **التشوف** للتادلي (أحمد التوفيق)..

[8] - القبلي: **جذور وامتدادات**، ص. 16.

[9] - تُنظر، على سبيل المثال لا الحصر، أعمال جاك بيرك (J. Berque)، وميرسيديس گارسيا أرينال (M. G. Arenal)، وبيرنار روزنبرجي (B. Rosenberger)، وحليمة فرحات، وحميد التريكي، وسيمون ليفي (S. Lévy)، وأحمد التوفيق، وعبد الأحد السبتي، ومحمد الشريف، ومحمد القبلي... وغيرهم.

[10] - مثل سبتة وتطوان وسلا..، مع جودية حصار بنسليمان، وحليمة فرحات، وباتريس كريسيي (P. Cressier)، وعبد العزيز التوري، وجيمس بون (J. L. Boone)، تشارلز ريدمان (Ch. Redman)... وغيرهم.

[11] - أحمد التوفيق، وعبد العزيز التوري، ومحمد القبلي.

- كان من نتائج كل هذا تحقيق انفتاح فعلي عند طرح قضايا المغرب الوسيط وتناولها، مع مراجعة التعامل مع عامل الزمن (التحقيب)؛
- ضرورة استحضار اهتمام الباحثين اليهود من أصل مغربي بالفترة الوسيطية، وما راكموه من أبحاث نوعية في هذا الباب[12] لتكتمل صورة تعامل الباحث المغربي مع تاريخ المغرب الوسيط.

وفي نهاية المقالة خلص الكاتب إلى أن تعامل الباحث المغربي مع تاريخ المغرب الوسيط بدأ ضعيفاً غداة الاستقلال ثم تقوّى بعد ذلك وفرض نفسه في الدخل والخارج بفضل تضحياته وتنظيمه الذاتي والتزامه في المقام الأول، رغم "التشرذم وضعف الطاقات المكتبية وهشاشة الهياكل"[13] دون إغفال دور الدولة في تكوين الطاقات البشرية القائمة على الإنجاز.

المقالة الثانية: حول بعض مرتكزات الهوية في تاريخ المغرب الأقصى الوسيط

وضع الكاتب في بداية مقالته تعريفات لأركانها الرئيسة، فحدد إطارها الزماني في "الفترة الواقعة بين بداية الأسلمة في نهاية القرن السابع للميلاد، وبين بداية التدخل الأجنبي وسقوط مدينة سبتة في يد البرتغال مع مطلع القرن التاسع الهجري [بداية القرن الخامس عشر للميلاد]"[14]. كما حدد الإطار المجالي "فيما اصطلح على تسميته بالمغرب الأقصى ابتداءً من منتصف القرن السادس للهجرة او الثاني عشر للميلاد"[15]. كما عرّف مرتكزات الهوية بأنها "المستقرات المرجعية التي حددت أبرز معالم الهوية"[16]، وفي مقدمتها: مرتكز **المعتقَد**، ثم **النسب** أو الانتماء الإثني، فمرتكز **الدولة** بمفهومها الواسع، ومرتكز **الأرض** ثم مرتكز **اللغة** في المقام الأخير. وكلها مرتكزات تُقدم متداخلة لا منفصلة عن بعضها.

---

[12] - أمثال ميشيل أبيتبول (M. Abitbol)، وبنعمي (I. Ben Ami)، ودافيد كوركوس (D. Corcos)، وشلومو دِشن (Sh. Deshen).

[13] - القبلي: **جذور وامتدادات**، ص. 19.

[14] - القبلي: **جذور وامتدادات**، ص. 22.

[15] - القبلي: **جذور وامتدادات**، ص. 22.

[16] - القبلي: **جذور وامتدادات**، ص. 22.

1. مرتكز المعتقَد

قصد الكاتب بالمعتقد ذلك الذي نتج عن اتصال المغاربة بحاملي الدين الجديد، (الإسلام)، اتصال أصبح فيما بعد نقطة البدء للتاريخ عند المغاربة بخلاف مؤرخي المشرق الإسلامي الذين يجعلونه ضمن تاريخ الخليقة.

اتسم اتصال المغاربة بالإسلام في عصر الولاة بسلوكات طغى عليها الميز والإقصاء والإكراه والإهانة...، في إطار ما سمي ب"تخميس البربر"[17]، وكان لهذا كبير الأثر على مرتكز المعتقد، فانتفض المغاربة ضد الخلافة الإسلامية بالشرق باسم الإسلام بداية القرن الثاني الهجري، الثامن الميلادي، فيما سمي بثورة الخوارج بقيادة ميسرة التي انفصل معها المغرب بشكل نهائي مع مركز الحكم بالشرق، مع الاستثناء المرابطي الذي اعترف شكلياً بالخلافة العباسية لأسباب ظرفية عابرة. ولعل لتسمية "الأمازيغ" أي "الأحرار" علاقة بهذا الوضع غير السليم بين الولاة والأهالي.

2. مرتكز النسب

وربما له صلة بموقف المغاربة من الخلافة الإسلامية بالشرق، وإنْ ظهر الاعتداد بالنسب بعد ذلك بفترة طويلة. غير أنه كان حاضراً عند تأسيس الكيانات المحلية المستقلة عن الشرق في شكل الانتماء إلى عصبيات وقبائل متنوعة تلتقي، بتفاوت، في الأصول الأمازيغية الثلاثة الكبرى، الصنهاجية والمصمودية والزناتية، مع اختلاف في مُعتقد تلك الكيانات المحلية[18].

ظهر مرتكز النسب في الهوية المغربية بشكل واضح مع إنشاء الدول المركزية ابتداءً من القرن الخامس للهجرة، الحادي عشر للميلاد (انتساب صنهاجة المرابطين لحمْير، وابن تومرت لآل البيت، وعبد المؤمن لمضر من قريش، واعتصام أمراء بني مرين برعاية أهل البيت من بين أدارسة المغرب الأقصى)، وتبيّن تلازم قوي بين مرتكزيْ المعتقد والنسب في تأصيل الهوية عند مغاربة العصر الوسيط.

---

[17] - أي استرقاق خمس السكان عملياً واعتبارهم عبيداً للخلافة وممثليها بعين المكان (القبلي: **جذور وامتدادات**، ص. 24) .

[18] - بين خوارج سجلماسة وشيعة السوس وأتباع الأدارسة وبورغواطة وغمارة.

3. مرتكز الأرض

تمثّل هذا المرتكز بشكل أساسي في دمج المرابطين لسائر الجهات ضمن مجال –سمي لاحقاً بالمغرب الأقصى– تم توحيده انطلاقاً من الصحراء قبل توحيده لغوياً. وهو مرتكز يرتبط بما قبله، لأن "توحيد المجال معناه توحيد السلطة الحاكمة، وتوحيد السلطة الحاكمة معناه توحيد المعتقد.."[19]، ويؤدي لما بعده (مرتكز اللغة).

4. مرتكز اللغة

كان لجوء الموحدين إلى استقدام القبائل الهلالية من المغرب الأوسط ومن إفريقية وإنزالها بالسهول الغربية تدشيناً لمسلسل تعريب المغرب الأقصى بدءاً بهذه السهول. وهكذا توارى الحديث عن اللغة الأمازيغية، على مستوى الكتابات المصدرية على الأقل، و"عوملت كموضوع وصفي لا علاقة له بالهوية الذاتية الجماعية الموحدة تجاه الغير"[20].

المقالة الثالثة: حول التبدل والاستمرارية بمغرب العصر الوسيط

تناول الكاتب في هذه المقالة الحديث عن جذور ثنائية **التبدل والاستمرارية** بمغرب العصر الوسيط، والتي حددها في أربعة:

- **المجال الجغرافي**

المعروف اليوم بالمغرب الأقصى أو المغرب، المنتمي الى فضاء أوسع، يتسع لما يسمى حالياً بالمغارب أو المغرب الكبير، وقد يضاف إلى بلاد المغرب والأندلس..، ويرمز هذا إلى "اندماج مختلف مكونات هذا الفضاء فيما بينها أو إلى تضامنها الفعلي تجاه الآخر على الأقل"[21]. ويبقى المجال الجغرافي هو الإطار الموطّن لبقية العناصر ذات الصلة بتلك الثنائية.

---

[19] - القبلي: **جذور وامتدادات**، ص. 27.

[20] - القبلي: **جذور وامتدادات**، ص. 29. ولفهم بعض أسباب تغييب الأمازيغية على مستوى الحياة الرسمية منذ قيام الدولة المركزية، طرح الكاتب عدة اسئلة من قبيل:

– هل لذلك التغييب علاقة بظاهرة انتساب الحكام لأصول عربية او قرشية او شريفة؟

– هل توارى مرتكز اللغة امام مرتكز المعتقد منذ البداية، فاسحاً المجال للغة القرآن والتفقه على حساب لغة التعامل اليومي؟

رابطاً بين وضع الأمازيغية في العصر الوسيط ووضعها في عصرنا الحالي، متسائلاً عمّ اذا كان مرتكز اللغة لا يعني لنا شيئا إذا قيس ببقية المرتكزات؟

[21] - القبلي: **جذور وامتدادات**، ص. 32، وقد قدم المؤلف أمثلة معبّرة تشرح هذه الفكرة (ص. 32–33).

- **الاستقلالية**

وتجلت، منذ زمن مبكر، في المسافة الكافية التي يضعها المغرب دوماً بينه وبين أي شكل من أشكال التبعية الفعلية لمختلف مراكز الخلافة بالمشرق". ومن أمثلة ذلك ثورة شمال المغرب التي كانت السبب في انفصال مجموع الغرب الإسلامي عن الخلافة في الشرق[22]. والتي نشأت بعدها عدة مراكز مستقلة إلى أن دشن المرابطون عملية توحيد فعلي لمجموع التراب المغربي خلال منتصف القرن الخامس للهجرة، الحادي عشر للميلاد، وما تلا ذلك من تجارب وحدوية موحدية ومرينية، متمسكة "جميعها بمبدأ استقلالية التصرف وحرية المبادرة تجاه بقية مراكز النفوذ الإسلامية المعاصرة"[23]، مع سعيها للقضاء على كل الاستقلاليات لفائدة المركز.

- **أنماط النظم وتوجهات الحكم**

ذكّر المؤلف بكون مسار الحكم في المغرب لم يختلف عن مساره عند كثير من المجتمعات المعاصرة، أي الانطلاق من صيغة إقليمية محدودة، وقصد بها الانتفاضة الأولى ضد الخلافة الأموية خلال القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) إلى دولة مركزية مكتسحة، تجلت في المرابطين مع منتصف القرن الخامس الهجري (الحادي عشر للميلاد)، وهو ما صاحب توحيد التراب المغربي كله على يد الدولة ذاتها[24]. مبرزاً كيف أن لهذا التبدل انعكاس على مستوى اللغة ومن ثمّ على مستوى الوعي الجماعي.

- **العقيدة والمذهب**

هو ميدان جامع تصب فيه غالبية المعطيات السالفة، وصفه الكاتب بأنه "منطلق هوية المرجع الوجداني المؤسس الحاسم سواء بالنسبة للحاكم أو المحكوم"[25]، وللتدليل على ذلك استحضر أهم الفوارق الموجودة بين خريطتين دينيتين، الأولى سماها **خريطة المنطلق**، سابقة على ظهور الدولة المركزية المرابطية بالمجال المسمى-لاحقاً- بالمغرب الأقصى، تضم هذه الخريطة تيارات مختلفة، منها ما يندرج ضمن المرجعية الإسلامية من خوارج ومعتزلة

---

[22] - والقصد هنا الثورة التي قادها ميسرة المطغري ضد الأمويين سنة 122هـ/739-740م.

[23] - القبلي: **جذور وامتدادات**، ص. 34.

[24] - القبلي: **جذور وامتدادات**، ص. 36.

[25] - القبلي: **جذور وامتدادات**، ص. 37.

مشربين بتشيع زيدي إدريسي، وشيعة إمامية وسنة (مالكيون وأحناف)، ومنها ما يخرج عن دائرة المرجعية الإسلامية، كما هو الشأن بالنسبة لإمارتيْ بورغواطة وغمارة.

أما الخريطة الثانية، فسمّاها **خريطة الوصول**، التي تمخضت عن اختيارات الدول المركزية المتعاقبة وانعكاسها على المجال الموحَّد التابع لها، وكذا عن المرجعيات المعارضة لها. والحاصل أن هذه الخريطة لم تحتفظ، بخلاف الأولى، سوى بمذهب مالك من بين بقية المذاهب والتيارات الإسلامية، مع عودة "الشرف" وظهور العقيدة الأشعرية وتيار التصوف[26].

أشار المؤلف، في الأخير، إلى أن ملاحظاته بخصوص بعض المعالم المرجعية التي تعاملت مع ثنائية التبدل والاستمرارية في مغرب العصر الوسيط تبقى في حاجة إلى تشخيص لعناصر أخرى لا تقل أهمية، كتلك المتصلة بالبعد اللغوي أو بالثقافة السائدة أو بالسكان مثلا..، الأمر الذي يحيل على اختصاصات أخرى من قبيل اللسانيات والجغرافيا البشرية والأنتربولوجيا والتاريخ..، عاقداً الأمل على تعاون أصحاب هذه الاختصاصات للوصول إلى الغايات المنشودة.

المقالة الرابعة: حول بعض جذور الوضع اللغوي الحالي بالمغرب

استهل المؤلف هذه المقالة بجملة من الملاحظات أهمها "عدم استحضار البعد التاريخي للمشهد اللغوي الحالي للمغرب على مستوى التعامل العلمي المعتمد هنا وهناك من قبل بعض المحاولات الترويجية الشائعة"[27]. منطلِقاً لتشخيص جذور هذا المشهد اللغوي، بدءاً بالإطار وبعض المسلمات، ومنها:

- تقيّد العمل التاريخي بالمصادر بالدرجة الأولى؛
- الأخذ في الاعتبار مفهوم الأسطوغرافية المغربية الوسيطية للزمن[28].

ثم استعرض بعض التجارب التي ميّزت المشهد اللغوي بالمغرب الوسيط، والتي ميز فيها بين أربع حلقات:

- حلقة أولى، اتسمت بطابع اللاّمركزية الجهوية وتنوع المرجعيات: من القطيعة مع الحكم الأموي للمغرب بفعل ثورة الخوارج سنة 122 أو 123هـ (740–741م) إلى منتصف

---

[26] - تُراجع بعض تفصيلات المؤلف في هذه القضايا بالصفحات 38، و39، و40 من الكتاب.

[27] - القبلي: **جذور وامتدادات**، ص. 42.

[28] - الزمن بالنسبة للأسطوغرافية المغربية الوسيطية هو زمن إسلامي، يبدأ فيه التاريخ مع دخول الإسلام، وليس مع بدء الخليقة كما الأسطوغرافية المشرقية (**جذور وامتدادات**، ص. 43).

القرن الخامس الهجري (الحادي عشر للميلاد) وما ميّزها من تأسيس كيانات جهوية مختلفة المذاهب (سنة وشيعة وخوارج) التي حافظت على اللغة العربية، لغة الدين الجديد، ومختلفة الديانات (بورغواطة بتامسنا، وحاميم بغمارة) التي استقلت لغوياً؛

■ حلقة ثانية، دشنت قيام الحكم المركزي السني بالمغرب بقيام دولة المرابطين بداية النصف الثاني من القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي)، والتي اعتمدت "أسلوب التوسع الممركز وتوحيد المجال باسم السنة والإسلام والسهر على نشر مذهب مالك"[29]، ونجحت في توحيد المعتقَد ومحاربة الكيانات التي "مرقت" من الإسلام وأقصت اللغة العربية، التي أصبحت مع المرابطين لغة الدواوين الرسمية على كل مجال حكمهم الممتد من الأندلس إلى تخوم نهر السنغال.

ولم يشذ الموحدون، الذين خلفوا المرابطين منتصف القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) عن هذا، فقد بقيت اللغة العربية لغة الحياة الرسمية بوجه عام، مع استعمال اللغة المصمودية في نشر الدعوة بالأطلس وخارجه[30]، مع اشتراطهم معرفة هذه اللغة وحفظ "التوحيد" التومرتي بها عند تعيين أئمة المساجد بفاس[31]. الأمر الذي جعل من النصف الثاني من القرن السادس الهجري "منعطفاً هاماً ربما اعتُبر مصيرياً" بالنسبة للمسار اللغوي بالمغرب، حيث بدأت تتعايش اللغتان بغالب الأقاليم والجهات[32].

■ حلقة ثالثة، وفيها اكتمل "الكيان النوعي" الخاص بهذه اللغة باستقرار القبائل الهلالية مع منتصف القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي)، حيث ظهرت بمسحة عامية دارجة، تجسدت في الأرجوزة المشهورة (ملعبة الكفيف الزرهوني) التي تضمنت وصفاً لحملة أبي الحسن المريني إلى المغرب الأوسط وأفريقية[33].

---

[29] - القبلي: **جذور وامتدادات**، ص. 46.

[30] - انظر نماذج من استعمال ابن تومرت للسان الغربي (المصمودي) في نشر دعوته عند:

أبو بكر بن علي الصنهاجي، (المكنى بالبيدق): **أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين**، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الرباط، المطبعة الملكية، 1971، الصفحات: 26، 61...

[31] - الجزنائي، علي: **جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس**، الرباط، 1991، ص. 56؛ ابن أبي زرع الفاسي: **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، الرباط، 1999، ص. 70-71.

[32] - القبلي: **جذور وامتدادات**، ص. 47-48. ولتوطين هذا المنعطف، راجع مقالاً للكاتب نفسه بعنوان: "حول التحركات البشرية بمجال المغرب الاقصى فيما بين منتصف القرن الثاني عشر ونهاية القرن الثالث عشر للميلاد"، ضمن كتابه: **الدولة والولاية والمجال في المغرب الوسيط: علائق وتفاعل**، الدار البيضاء، دار توبقال للنشر، ط1، 1997، ص ص. 41-70.

[33] - **ملعبة الكفيف الزرهوني**، تحقيق محمد بن شريفة، الرباط، المطبعة الملكية، 1987، 247 صفحة.

■ حلقة رابعة: تمثلت في اللسان العربي الحساني الذي ساد أقصى الجنوب الغربي من الصحراء المغربية مع منتصف القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي)، حيث نزلت به القبائل المعقلية الراحلة، واليها ينتمي ذووا حسان الذين اشتقت منهم تسمية هذا اللسان.

ختم المؤلف هذه المقالة باللوحة التي رسمها الحسن الوزان أوائل القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) للتشكيلة اللغوية–الجغرافية لتلك الفترة، عندما ذكر أن العرب "الذين جاؤوا الى افريقيا فيدعون بالعرب المستعجمة والعرب المتبربرة، لأن لغتهم فسدت مع طول الزمن لمساكنتهم أمة أجنبية فأصبحوا برابرة"[34]. واصفاً الأحوال اللغوية للأمازيغ الذين ميّز فيهم بين خمسة شعوب: صنهاجة، ومصمودة، وزناتة، وهوارة، وغمارة "هذه الشعوب الخمسة المنقسمة إلى مئات السلالات وآلاف المساكن تستعمل لغة واحدة تطلق عليها اسم أوال أمزيغ، أي الكلام النبيل، بينما يسميها العرب البربرية. وهي اللغة الافريقية الاصيلة الممتازة والمختلفة عن غيرها من اللغات"[35].

وتساءل المؤلف، في الأخير، عن سبب "التغييب التدويني" للأمازيغية خلال العصر الوسيط، مفترضاً تعلق الأمر بالتمييز بين "واقع التخاطب ومثالية التقاليد الرسمية المتواترة (...) وعناد البنية المرجعية السائدة في الأوساط المثقفة والأوساط الرسمية التي تؤسس مشروعيتها على المرتكز العقدي (...) وعلى مرتكز الانتساب القابل للتكييف والتوفيق في أغلب الأحيان"[36]. مثيراً مسألة "الهوية الأمازيغية" بعد قيام الحكم المركزي بالمغرب، مع المرابطين والموحدين والمرينيين، والتي وقع فيها التركيز على أنساب الأمازيغ ورجالاتهم وعلمائهم وصلحائهم.. على حساب اللغة التي عدّها مرتكزاً عضوياً لتلك الهوية[37].

تبيّن من خلال هذه القراءة السريعة للمقالات الأربع تكاملها وانسجامها، فهي تشترك في أمور عدة وتتقارب موضوعاتها المطروقة، فإذا كانت الأولى استعراضاً لمراحل البحث في تاريخ المغرب الأقصى الوسيط، فلأن الفترة التاريخية والمجال الجغرافي المحدَّدين فيها هما المؤطران لباقي المقالات، سواء المتصلة منها بمرتكزات الهوية، وبثنائية التبدل والاستمرارية، أو ببعض جذور الوضع اللغوي الحالي بالمغرب.

---

34 - الوزان، الحسن بن محمد: **وصف إفريقيا**، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط2، 1983، ج1، ص57.

35 - الوزان: **وصف إفريقيا**، ج1، ص36 و39.

36 - القبلي: **جذور وامتدادات**، ص. 50.

37 - القبلي: **جذور وامتدادات**، ص. 51.

مراجع القراءة

- الجزنائي، علي: **جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس**، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الرباط، المطبعة الملكية، ط2، 1991.
- الزرهوني الكفيف: **ملعبة الكفيف الزرهوني**، تحقيق محمد بن شريفة، الرباط، المطبعة الملكية، 1987.
- الصنهاجي، أبو بكر بن علي (المكنى بالبيدق): **أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين**، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الرباط، المطبعة الملكية، 1971.
- الفاسي (ابن أبي زرع)، علي: **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، مراجعة عبد الوهاب بن منصور الرباط، المطبعة الملكية، ط2، 1999.
- القبلي، محمد: **جذور وامتدادات: الهوية واللغة والإصلاح بالمغرب الوسيط**، الدار البيضاء، منشورات دار توبقال للنشر، مطبعة النجاح الجديدة، ط1، 2006.
- القبلي، محمد: **الدولة والولاية والمجال في المغرب الوسيط: علائق وتفاعل**، الدار البيضاء، دار توبقال للنشر، ط1، 1997.
- الوزان (ليون الإفريقي)، الحسن بن محمد: **وصف إفريقيا**، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط2، 1983.

الوافي نوحي

المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية

ملخصات الأطروحات

المحفوظ أسمهري ، أطروحة الدكتوراه في التاريخ القديم ،" **جوانب من حضارة شمال إفريقيا القديم والصحراء من خلال النقوش والرسوم الصخرية**" ، وحدة البحث والتكوين: "شمال إفريقيا القديم: تاريخ وأركيولوجيا" بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط ، الموسم الجامعي 2003-2004.

يتوخى العمل إبراز دور الفن الصخري في التعريف بالحضارة الأمازيغية القديمة، لأهمية لوحاته، المرسومة والمنقوشة، في التأريخ لجانب مهم من التحولات الحضارية التي عرفتها شمال إفريقيا القديم وامتدادها الصحراوي، وذلك في الفترة الممتدة من ما قبل التاريخ إلى انتشار الإسلام بالمنطقة. يتكون العمل من ثمانية فصول مرتبة في ثلاثة أبواب، فضلا عن تقديم وخلاصة عامة ولائحة للمصادر والمراجع.

عُنْوِن الباب الأول ب "مجال الحضارة الأمازيغية وعناصره البشرية من خلال معطيات الفن الصخري"، وخصص فصله الأول لإعطاء لمحة عن تاريخ الفن الصخري بالمنطقة، وتتبع مراحل تطوره، مع تبيان خصائص كل مرحلة على مستوى الأسلوب المستعمل في نقش اللوحات ورسمها. أما الفصل الثاني من الباب الأول، فرصد دور التوزيع المجالي للفن الصخري في رسم الحدود الطبيعية للحضارة الأمازيغية القديمة، ومميزات العناصر البشرية التي أنتجت هذه الحضارة، انطلاقا من الخصائص الفيزيولوجية للأشكال البشرية التي خلدتها لوحات هذا الفن. وتبين من خلال المقارنة مع باقي المعطيات التاريخية والأثرية أن الحضارة الأمازيغية القديمة هي نتاج لتفاعل الإنسان المتوسطي والإنسان الصحراوي ذي الملامح الزنجية.

وتناول الباب الثاني "أسس حضارة ما قبيل التاريخ من خلال معطيات الفن الصخري"، وسعى إلى أبراز دور هذا الفن في معرفة حضارة ما قبيل التاريخ (Protohistoire) بالمجال الأمازيغي القديم، باعتبارها المرحلة التي عرفت فيها المجتمعات القديمة قفزة حضارية نظرا للتمكن من تقنيات صنع المعادن. وهكذا بيَّن الفصل الثالث دور لوحات الأسلحة المعدنية في دحض الآراء التي تنفي أو تقلل من تمكن الأمازيغ القدامى (Paléoberbères) من تقنيات التعدين خلال عصور المعادن. وجاء الفصل الرابع ليغوص في دراسة أنواع هذه الأسلحة، وذلك لأهميتها في الكشف عن مدى التمكن من تقنيات صنعها، وفي فهم مختلف استعمالات هذه الأسلحة، خصوصا في الجانب الحربي والدفاعي، وذلك من خلال المقارنة مع معطيات المصادر الإغريقية واللاتينية التي وصفت سلاح المحاربين الأمازيغ فرساناً ومشاةً. وتطرق الفصل الخامس لتاريخ العربة وتدجين الفرس، لأن

لوحات الفن الصخري هي من أهم الوثائق التي تسمح بفهم جانب مهم من تاريخ تقنيات التنقل عند الأمازيغ القدامى.

خصص الباب الثالث والأخير لدور الفن الصخري في التعريف بـ "بعض المظاهر الحضارية لما قبيل التاريخ والفترة التاريخية"، وأُفرد فصله الأول (السادس في الترتيب العام) للعربة، لأن رسوم ونقوش هذه الأخيرة تعد أهم وثيقة تسمح بفهم ريادة الأمازيغ في تقنيات العربات لقرون عديدة، لدرجة أن الإغريق تعلموا منهم كيفية جر عرباتهم بأربعة خيول حسب ما أكده المؤرخ هيرودوت في القرن الخامس قبل الميلاد. كما سمحت هذه الريادة باستعمال ساكنة شمال إفريقيا القديم للعربات الحربية، فضلا عن تفوقهم في السباقات التي كانت تنظم في مناطق من الحوض المتوسطي القديم.

أما الفصل السابع، فتناول "اللباس وأشكال التزين" من خلال معطيات الفن الصخري. وتسمح هذه المعطيات بمعرفة أنواع مختلفة من الألبسة استعملها الأمازيغ منذ الفترة الممهدة للتاريخ، وهو ما يتناقض مع ما ورد في المصادر الإغريقية واللاتينية التي صورت ساكنة شمال إفريقيا القديم حفاةً عراةً، انطلاقا من الرؤية الإغريقية والرومانية التي تعتبر كل من هو أجنبي عن دائرتهم الحضارية متوحشاً وبربرياً.

- تطرق الفصل الثامن والأخير لتاريخ " الكتابة الأمازيغية"، انطلاقا من الكتابات التي تزخر بها مواقع الفن الصخري سواء في الصحراء أو في جبال الأطلس وجزر الكناري. ويسمح التوزيع المجالي لهذه النقائش الصخرية (Inscriptions Rupestres) ليس فقط بتجاوز الرأي الذي يربط تداول الكتابة الأمازيغية القديمة بالشريط الساحلي المتوسطي، بل يفتح آفاقا علمية لطرح أسئلة جوهرية حول انبثاق الأبجدية الأمازيغية من العالم الرمزي الذي عكس الفن الصخري تطوره منذ ما قبل التاريخ. ورغم الصعوبات التي ما تزال تواجه دراسة هذه الكتابات، فإنها تؤكد أن الأمازيغية بدأت منذ وقت مبكر مشوار الانتقال من الشفاهي إلى الكتابي في مناطق مختلفة من المجال الأمازيغي القديم، لكن فك أسرار هذا التحول ما يزال في حاجة إلى مجهود علمي جبار.

قواعد النشر بمجلّة أسيناگ □□□□□□

مقتضيات عامة

- تقبل الأعمال العلمية التي لم يسبق نشرها.
- يتعين إرفاق كل عمل مقترح للنشر بتصريح بالشرف من مؤلّفه، يفيد بأنه عمل أصلي لم يسبق عرضه للنشر في دورية أو مطبوعة أخرى.
- يشترط في المقال المتضمّن عرضاً أو قراءةً لمؤلَّف منشور أن يقدّم قراءة نقدية لأحد المؤلّفات حديثة النشر، كتابا كان أو دورية أو غير ذلك، بوضعه في سياق مجموع الإصدارات حول الموضوع المعني.
- كل مقال تنشره المجلة، يصبح ملكا لها. ويلتزم المؤلّف بعدم نشر ذات المقال في مكان آخر دون إذن خطّي مسبق من مديرية المجلة.
- تعبر الأبحاث والمقالات المنشورة عن أفكار وآراء أصحابها، ولا تمثل بالضرورة وجهة نظرالمجلة أو المؤسسة التي تصدرها.
- لا ترد أصول المواد إلى أصحابها سواء قبلت أم لم تقبل، ولا تلتزم المجلة بإشعارهم بذلك.

أعراف تقديم المقالات

- يسبق نصّ المقال بصفحة غلاف، تتضمن عنوان المقال، واسم الكاتب ولقبه، واسم المؤسسة التي ينتمي إليها، وعنوانه، ورقم هاتفه، ورقم الفاكس، وعنوانه الإليكتروني. ولا يثبت على رأس الصفحة الأولى من المقال، سوى اسم الكاتب ولقبه والمؤسسة التي ينتمي إليها.
- تبعث المقالات إلى المجلة بواسطة البريد الإليكتروني، في شكل ملف مرتبط (Fichier attaché)، قياس وورد Format Word، إلى عنوان المجلة: asinag@ircam.ma

- يجب ألا يزيد عدد صفحات المقال عن 30.000 حرفا، بما فيها المراجع والجداول والملاحق.
- يقدم المقال مطبوعاً على ورق (A4) وعلى صفحة بمقاس (24/17)، وباعتماد نوع Traditional Arabic ، حجم الخط (16)، ببُعد يساوي "Exactement 18"، مع هوامش (يسار ، يمين) 2 سم، و(أعلى، وأسفل) 2.5 سم. وبالنسبة لخط تيفناغ، يعتمد نوع Tifinaghe-ircam Unicode، حجم 12، الممكن تحميله من موقع المعهد http://www.ircam.ma/fr/index.php?soc=telec. ولكتابة الأمازيغية بالحرف اللاتيني، يعتمد أحد حروف منظومة Unicode، من قبيل Gentium مثلا.
- يُصاغ عنوان المقال في حوالي عشر كلمات، مع إمكانية إتباعه بعنوان فرعي مفسّر له. ويكون ممركزا وببنط عريض بحجم 18. ويكتب اسم صاحب المقال ومؤسسته أسفل العنوان بأقصى يسار الصفحة الأولى.
- تُصاغ عناوين الفقرات والفقرات الفرعية لكل مقال بالبنط العريض، بحيث يكون حجم الأولى 17، وحجم الثانية 16.
- يُرفق النص بملخص لا يتجاوز عشرة أسطر، ويُترجم إلى لغة أخرى غير تلك التي كُتب بها المقال.

وسائل الإيضاح

- ترقّم الجداول بالترتيب، داخل المتن، بالأرقام الرومانية. ويكون التعليق أعلاها.
- ترقّم الرسومات والصور داخل المتن، متتابعة بالأرقام العربية. ويُعلق أسفلها.

المراجع البيبليوغرافية والإليكترونية

- لا تثبت المراجع البيبليوغرافية بكامل نصها داخل المتن ولا في الهوامش. ويُكتفى داخل المتن بالإشارة، بين هلالين، إلى اسم المؤلف(ين)، متبوعا بسنة إصدار المرجع المحال إليه؛ وعند الاقتضاء، يضاف إليهما رقم / أرقام الصفحة

/الصفحات المعنية. وفي حالة تعدّد المؤلفين، يشار إلى أولهم متبوعا بعبارة "وآخرون"بحرف مائل.

مثال: (صدقي، 1999)؛ (صدقي و أبو العزم، 1966)؛ (صدقي وآخرون، 1969)؛ (صدقي 2002: 20).

- في حالة تعدّد المصادر لنفس المؤلِّف في نفس السنة، يميَّز بينها بواسطة حروف حسب الترتيب الأبجدي (1997أ، 1997ب، إلخ.).

مثال: (خير الدين، 2006أ)، (خير الدين، 2006ب).

- في حالة تعدّد طبعات نفس المرجع، يشار إلى الطبعة الأولى بين قوسين معقوفين[...]، في آخر المرجع باللائحة البيبليوغرافية.
- تقدّم المراجع كاملة، مرتبة أبجديّا بأسماء المؤلفين، في نهاية المقال (دون تجاوز الصفحة).
- تكتب عناوين الدوريات والمجلات والكتب بأحرف مائلة.
- تشمل المعلومات الخاصة بالكتب، على التوالي، اسمي الكاتب، العائلي والشخصي، وسنة الإصدار، ثم عبارة (ناشر) إن كان ناشرا أو مدير نشر، ثم عنوان الكتاب، فمكان النشر، ثم اسم الناشر. ويتم الفصل بين هذه الإشارات بفواصل.

مثال: شفيق، محمد (1999)، *الدارجة المغربية مجال توارد بين الأمازيغية والعربية*، الرباط، أكاديمية المملكة المغربية.

- توضع عناوين مقالات الدوريات، وكذا فصول الكتب، وغيرها من مقتطفات المراجع، بين مزدوجتين.
- تشمل الإحالات على مقالات المجلات والدوريات، على التوالي، وبالترتيب، اسمي الكاتب العائلي والشخصي، وسنة النشر، وعنوان المقال بين مزدوجتين، ثم اسم المجلة، ورقم المجلّد، والعدد، ورقم كل من الصفحة الأولى والصفحة الأخيرة. ويتم الفصل بين هذه الإشارات بفواصل.

مثال: أزايكو صدقي، علي (1971)، "مشاكل البحث التاريخي في المغرب"، *الكلمة*، عدد 2، ص 25-40.

- تشمل الإحالات على مقالات الصحف والجرائد، فقط، عنوان المقال بين مزدوجتين، ثم اسم الصحيفة، ومكان النشر وتاريخ العدد ورقم الصفحة.

مثال : "الحقوق الثقافية والمسألة الأمازيغية"، *السياسة الجديدة*، الرباط، 22 أكتوبر 2002، ص 8.

- للإحالة على فصول كتب جماعية، يشار إلى اسمي الكاتب العائلي والشخصي، ثم عنوان الفصل، فمرجع الكتاب بين قوسين معقوفين [...].

مثال : شفيق، محمد (1989)، "إمازيغن"، [معلمة المغرب]، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، سلا.

- للإحالة على أعمال ندوة أو مناظرة، يشار إلى عنوان وتاريخ الندوة أو المناظرة.

مثال: الراجحي، عبده (1984)، "النحو العربي واللسانيات المعاصرة"، البحث اللساني والسيميائي ، أعمال ندوة نظمتها كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، أيام 7 و8 و9 ماي 1981، الرباط، ص 153-164.

- للإحالة على أطروحات جامعية، تعتمد نفس الأعراف بالنسبة للكتب، مع الإشارة إلى كون العمل أطروحة جامعية، وإلى نظامها (دكتوراه دولة، دكتوراه السلك الثالث، إلخ.)، وإلى الجامعة الأصلية.

- مثال: جودات، محمد (2002)، *تناصية الأنساق في الشعر الأمازيغي*، دكتوراه، جامعة الحسن الثاني عين الشق، كلية الآداب و العلوم الإنسانية.

- للإحالة على مراجع بالمواقع الإليكترونية (webographie)، يتعيّن الإشارة إلى URL، وتاريخ آخر رجوع إلى صفحة الويب page web.

مثال : http//fr.wikipedia.org/wiki/langue construite, octobre 2007

الهوامش والاستشهادات

- في حالة ما قرر صاحب المقال استخدام الاختصارات للإشارة إلى بعض العناوين التي غالبا ما يتكرر استخدامها في النص، يتوجب شرح وتوضيح المختصرات، في الهامش، عند أول استخدام.

- في حالة توافرالهوامش، تثبت بأسفل الصفحة وليس في نهاية المقال، وترقّم بالتتابع.
- الاستشهادات : عندما يكون الاستشهاد في أقل من خمسة أسطر، يوضع بين مزدوجتين "..." داخل النص. وحين يتعلق الأمر باستشهاد ضمن استشهاد آخر، يستعمل هلالان منفردان "....'.....'....". أما الاستشهاد الذي يتجاوز خمسة أسطر، فيقدّم دون مزدوجتين، مع انحياز نصه عن حاشية نص المقال، وببعد واحد بين سطوره.
- توضع جميع التصرّفات أو التعديلات في الاستشهاد (إغفال كلمات أو جمل أو حروف، إلخ.) بين معقوفين [...].
- العناوين الفرعية: يمكن تقسيم النص إلى فقرات وأجزاء باستعمال عناوين فرعية بالبنط العريض.
- الحروف المائلة: تستعمل الحروف المائلة بدلا من تسطير الكلمات والجمل المراد إبرازها.